

# كولن ولسون

## راسبوتين وسقوط القيامة

ترجمة: مالت فايزل البديوي

الكتاب  
العلمي

1987



# كولين ولسون

## راسبوتين وسقوط القيامة

ترجمة: مالت فايل البديري

الأممية  
للشؤون الدولية

مجموعتنا الإبداعية محفوظة  
الطبعة الأولى  
١٤١٤ هـ - ٢٠١٤ م

الأممية  
للشؤون الدولية

المطبعة الإبداعية العالمية - عمان، الأردن  
عنوان: عمان، الأردن - ص.ب. ٧٧٧٧ - هاتف: ٥٠١١١١  
www.iam.org.jo

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الترجمة

يزعت اسطورة واسبوتين مع قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧. فقد عاد (ايليدور) حشيت الحظي الى روسيا وطبع كتابه (الشيطان المقدس). وفيه وصف واسبوتين بالسكير المحتال الذي غلبت سطوته التزارينا المستيرية والقبصر الضعيف. ثم أصدر (جارلس اوميسا) كتابه عام ١٩١٨ الذي هو معلومات مختلفة من نفسها الى بائها وفيه يقول أنه التقى شخصاً مقرباً لراسبوتين أعطاه جميع التفاصيل السرية للمغامرات الشيقة لهذا الدون جوان الصوفي الفظ والذي قال فيه أحد المرضى العصائين أنه تراق ليغدو مازارين (وهو الكاردينال جول مازارين، رجل دولة فرنسي (١٦٠٢ - ١٦٦١) له الفضل في إنهاء حرب الثلاثين عاماً والحصول على مقاطعة (الفروند) وفرض معاهدة بيرينيه على اسبانيا). ان عطف الثقة في كتاب اوميسا قد جاءت في الفصل الثالث منه وفيه يقول أن عاشق التزارينا الأمير او قد تلقى أسراً من جون من الكروستنادت بمغادرة البلاد ثم وُجد بعد ذلك ميتاً في فندق القاهرة. وأعمال كهذه هي انما سبب لخلق اسطورة واسبوتين. وكثير من رموز التاريخ الحديث قد طلستها أسطورتها وتغير من لنا فيه آية (ق. اي. لورنس).

جامعة  
بغداد

مكتبة  
الجامعة

مكتبة  
الجامعة



وفي بريطانيا والولايات المتحدة. تصدر قائمة المجرمين (سيد العموض) وليام لي كوكس الذي أعان في استغلاله شخصية راسبتين وأصدر بعد مقتله ثلاثة كتب في ثلاث سنوات أفضلها انظر الى ما يمكن أن نسميه به (الحقيقة). ثم أثر أن يشبع رغبة العالم المتعطشة لمعرفة شيء عن راسبتين فأصدر رواية أسمها به (الراسبتونية في لندن) وهي عرض لحركة شهوانية ابتداعها راسبتين.

وقد كتب (الدوس هكنسلي) - وهو أحد أعضاء الكونغرس الأمريكي - بعد قراءته كتاب (فولوب ميلر) الموسوم به (الشیطان المقدس) مقالة قارن فيها بطريقة مستهجنة بين القديس (فرانسيس) من آسيا وبين راسبتين. وفيها يقول: «ان راسبتين قد نهج في أفعاله ما تنادي به الماديء الخليسية المرتبطة بالوصية (السابعة)». بيد أن راسبتين افتقر لعة النفس التي جعلت من فرانسيس شديد التمسك بمبادئه المسيحية فنأى بنفسه (اي فرانسيس) عن قول أنه فاعل ما لا يفعله سواء البشر ودعا لذلك للنجاة عن طريق الخطيئة.

ان السؤال الأكثر إلحاحاً عن راسبتين هو السؤال الذي لا يستطيع أحد الجواب عليه. فهو انتهاء للتاريخ الرومي الذي يمنح امتداده للمعامل بعض الشرعية. فذاك غارجييف قد أدرك مرة أن أغلب الرجال يفتقرون للمصير لأنهم يفتقرون للحقيقة العميقة فياتوا عرضة لقوانين الصدقة. والامسان بحاجة لمجهود جبار كي يبلور جوهر ما سيكون مصيره. وبقراءتنا مسيرة حياة راسبتين ندرك أنه امتلك ذلك الجوهر فيما وقع البصر وعائلته ضحية لقوانين الصدقة.

ان ما نسميه اليوم به (ثورة أكتوبر) هي اعتلاء البلاشفة منصة الحكم بعد

أن طردوا منها الروماتوفيين. فالأمر إذاً ليس الا تغييراً في الوجوه. فالثورة الفعلية قد تمت بدورها منذ أصدر ستولين مرسوم (الأرض) عام ١٩٠٦. وسواء ظل نيقولا في عرشه أم ولاء كانت شروط المرسوم ستكمل بحلول عام ١٩٢٠. وكما يقول شارك: «لم يكن للبلاششفة دوراً في اسقاط القيصرية) وبدول «الانبيستا»: «ان تغيير الحكم هو أن تغير ربطة عنق الرجل الذي تنف لك جيبيك». لقد وجد الشعب الرومي الثمن على حسابه أن غير نيقولا به (سفالين). فالثورة لم تكن وجهاً جديداً لسفر التاريخ الرومي بل وصلة مستمرة لللاثائة سنة عطلت.

أسأل الله أن أكون قد وفقت في عملي الترجمي لرواية وجدتها تستحق لهاها للقاريء العربي لما احتوته بين سطورها من غزارة معلومة فكرية وتاريخية وأدبية ..

والله ولي التوفيق.

المترجم

مالك فاضل البديري

## ابطال الكتاب

برنيس اندرويليكوف: متآمر شاذ جنسيا اصبح لفترة وجيزة ضابط العلاقات العامة لراسيوتين.

بارناي او غارنافا: رفيق راسيوتين في شبابه، اصبح بعدها اسقفا لتوبولسك.

بيانسكي: رئيس الشرطة تحت امرة هفوستوف (ابن الأخ)

اليزابيث: الغرائدوقة وهي شقيقة - التزارينا-

كلياريد: معلم التزافيش

الكولوفونين: الام والبت كن تعليمات لراسيوتين

كورميكن: رجعي تافه اصبح رئيسا للوزراء مرتين

كوشكوف: رئيس سابق للدوما كانت التزارينا تبغضه

هيرسوجن: اسقف ساراتوف وهو احد اعدوان راسيوتين في البداية ثم اصبح فيما بعد عدوه اللدود.

هفوستوف: (ابن الأخ): المتعلق، اللذليل لراسيوتين اصبح بعدها وزيرا للداخلية

ابليودور: قسا اصبح لاحقا الد اعداء راسيوتين

جون من الكوونستانت: قس مقدس وهو احد اهلوان راسبوتين في بداية حياته في بطرسبورغ

كرونيسكي: عضو يساري في الدوما اصبح بعدها قائدا للحكومة بعد الثورة في اذار ١٩١٧.

كوكوفيتشيف: وزير المالية اصبح بعدها رئيسا للوزراء وهو عدوا لراسبوتين.

اولغا لوكتين: تلميذة راسبوتين عرفت لتعليمها اياه القراءة والكتابة.

ماناسفيتش ماتيلوف: ميتر وعميل سري وهو مستشار راسبوتين في اعماله.

المونتكريات: الفراندوق ميليتسا واناماتازيا (واناماتازيا هي ستانا ولا يجب خلطها مع الابنة الصغرى التزار): وهن المسؤولات عن احضار راسبوتين لمدينة القديس بطرسبورغ.

ادميرال تيلوف: موظف في البلاط وهو صديق لراسبوتين

الفراندوق نيقولا: زوج اناماتازيا (اقرأ الصفحات الخاصة بالمونتكريات) واصبح لاحقا القائد الاهل للقوات المسلحة في الجيش وهو عدو لراسبوتين.

الفراندوق بيتر: زوج ميليتسا.

الطبيب فيليب (وكنتيته فاسخوت من نيزير): وهو امعه جلبه ميليتسا لمدينة بطرسبورغ.

بلهيف: رئيس الشرطة ووزير الداخلية.

بولياتوف: وزير للحرب بعد طرد سوخومالينوف

بروتوبوف: شخص تافه جعله راسبوتين وزيرا للداخلية.

بوريشكفيتش: عضو يساري في الدوما وهو عدو راسبوتين وقاتله في النهاية.

ساريا راسبوتين: ابنة راسبوتين مولودة في عام ١٨٩٨.

رودزيانكو: رئيس الدوما وهو الد اعداء راسبوتين

الغراندوق سيرجيسوس: محافظ قانس لموسكو وهو زوج اليزابيث قتل بقتلة.

سيهانوفيتش: مدير اعمال راسبوتين ومكتريره.

سترومر: متآمر رجعي اصبح لاحقا رئيسا للوزراء بفضل راسبوتين وماتيلوف.

سوخومالينوف: وزير الحرب طرد من منصبه عام ١٩١٥ لعدم كفاءته.

الاسقف يتوفان: احد اهلوان راسبوتين في البداية.

التزار: نيقولا الثاني

التزارينا: اليكسندرا، وهي المانية المولدة وحفيذة الملكة فكتوريا، واليكسا سابقة لهيس - داراماتادت.

التزارفيتش: اليكسر (ويختصر اسمه عادة لاليكسي) ابن التزار وزوجته ولد في آب من عام ١٩٠٤ واعتيل في تموز من عام ١٩١٨ وقد كان يعاني من نزف الدم الوراثي.

(اولغا، تاتيانا، ماري، اناستازيا) بناتها وهن ذوقات عظيمة.

انا فيروف: موضع ثقة واعتزاز التزارينا منذ عام ١٩٠٥.

سيرجيوسوت: اول رئيس للوزراء اصبح لاحقا صديقا لراسيوتين.

برنس يوسيفوف: شاب ثري لعوب وهو قاتل راسيوتين.

## تمهيد

عجزت أغلب رموز التاريخ الحديث أن تثير عن شخصها هذا الكم الهائل من الأدب الحسي واللاواعي كما أثاره كريكوري راسيوتين. لقد كتب عنه أكثر من مائة كتاب ولكنها لم ترتق جميعاً إلى مستوى القبول كعرض سليم لشخصيته.

يقول السيد الن مورفين في إحدى كتاباته: «لقد تعرض كريكوري بيمبوتش راسيوتين للتشويه واللاتقييم في الأربعين سنة التي تلت وفاته حتى باتت الاحساس به كما ينبغي أمراً عسيراً وهو نظير التشويه الذي تعرض له رينشارد نجلترا الثالث وقبصر بوركيا الايطالي، فلقد عد شريراً بل هو الخلاصة الخالصة للوقاحة ونسبت اليه حيلة (اياكو) وقوة (كاليان). ليس فيه من حسنات الحصول شيئاً فكان قليل الاغتسال كرهه الراحة واذا ما جلس أمام المائدة تجده وقد غطس يديه في طبق حساء السمك المفضل لديه، كان سكيراً أو عليه السكر لحظم الذي أمامه، بلذيه اللسان مائناً وفسوقه ببربرياً حوله إلى وحش كاسر أكثر منه انساناً». يقول رودزيانكو- احد أعيان (دوما): «في جمعني كم كبير لرسائل أرسلتها أمهات قنليات تعرض لهنك العرض على يد هذا الساقط الصلف».

إن السيد مورفيد كاتب تاريخي واقعي غير متحيز لكنه هنا وبعد اعترافه بأن راسيوتين الحقيقي قد اخفته اسطوره بين جوانبها، يعمل على إعادة تنظيم عناصر هذه الاسطورة. فليس من رواية غير قابلة للنقاش: لقد أورد بعض الكتاب شغف راسيوتين بالخمام البخاري فليس من المعقول اذا ان يكون كرهه الراحة. أما وصفه راسيوتين غاطساً يديه في طبق حساء السمك فقد ورد اصلاً

في كتاب غير موثوق بصحته لسياتوفيتش، اذ تكرر ذكر هذا الوصف مراراً بيد  
أننا لم نجد انطباعاً أن أحداً لم يتناول قط حساءه هذه الطريقة. أما بقية وصفه  
إنما هو صورة مزيفة وغير صحيحة البتة عن راسبوتين على أنه سكيراً، بربرياً  
ومختصبياً: لقد سجلت ابنته ماريا التي عاشت معه في شارع بطرسبورغ سني  
إبداعه الاعظم قائلة أن أيتها قد اسرف في الشرب في آخر سنة من حياته فقط ولم  
يقرب الفودكا المرة لكنه كان مغرماً في شرب الخمر المحلى ولقد كان في سني  
شبابه الاولى قادراً على شرب كميات كبيرة من هذا الشراب دون أن يتجلى عليه  
شيئاً. كان مولعاً بالجنس رغم أنه لم يتعشر في ايجاد رقة من سيدات لامعات  
ومثلات يقاسمته فراشه. كان رودزيانكو أحد أعداء راسبوتين وهذا يفسر أن  
الأسمهات ربما كتبت رسائل تحكي فقدان شرف بنائهن بتحريض منه. ربما كان  
راسبوتين قد أغوى قتيات صغيرات وربما لا ولكن في كل الاحوال لا يمكن  
الأخذ بكلام رودزيانكو كدليل قاطع على ذلك.

تلك هي العقبة الكأداء التي تواجه كل من يحاول الكتابة عن راسبوتين  
فنحن نملك بين أيدينا كماً هائلاً من دلائل عنه، بيد أن التلغيق والتضليل قد  
طغى على أغلبها بينما يبقى المرجع المادي الأساسي ضئيل. فقد جاءت الثورة بعد  
وفاته بقليل واضمحك مؤرخو الحكومة السوفياتية في اساطة اللثام عن عيوب  
نيقولا الثاني أكثر من اهتمامهم بالبحث عن الأمانة التاريخية بينما افتقرت معظم  
الكتب التي تناولت سيرة حياته والمطبوعة خارج روسيا الى الاستقلالية في الرأي  
وكانت عبارة عن مذكرات رخيصة مثيرة. استهلكت دار تي فوجل جورجسن  
اسداراتها (راسبوتين)، (المدمر)، (عاشق الملذات)، (التأمر) والتي طبعت بعد  
وفاته بالعبارة التالية: «لم يكن راسبوتين اسمه الحقيقي: بل هو أصلاً كريكودي  
بيغموفتش. ولد في قرية تدعى بيترونوفيسكوي. ٤٠. وثمة ملاحظة تهلل

الصفحة تبين أن كلمة (الراسبوتينية) تعني الفجور أو الخلاعة. بيد أن ابنته تنفي  
ذلك مشيرة أن راسبوتين كان اسمه الحقيقي، فقد أشارت ابنته ان كلمة  
راسبوتين لا تعني سوى (مفترق طرق) أو (شوكة طعام) وأن أكثر من نصف  
سكان قريته يعملون نفس الاسم لأن القرية تقع على مفترق بين (توبولسك) و  
(نيومين) وكما هو معروف لدى كل قاريء للادب الروسي أن (بيغموفتش) هو  
بالطبع اسم العائلة وليس اسمه الاول، وأخيراً فإن قرية راسبوتين كانت تسمى  
(بوكروفيسكو) وليس (بوكروفيسكوي). ويتضح جلياً جداً، حتى لكاتب  
مذكرات حسي بأن (جورجنسن) هذا قد استطاع ان يكذب عدداً هائلاً من  
المغالطات المتعمدة في جملة الاولى، وهو برغم ذلك لم يكن سوى خدش بسيط  
مقارنة مع الكتب الاخرى التي ظهرت.

فالكتاب الذي يعمل بين طياته سطوراً تملؤها الكلمة الصادقة لم يظهر  
بعد، وعمل كهذا لا بد وأن تعطر سطوره ريشة كاتب يتكلم الروسية ليصبح  
بإستطاعته البحث في كم الوثائق الاصلية واليوميات ورسائل العائلة الملكية  
والوثائق الارشيفية للبوليس السري وأن يسافر الى سيبيريا الشالية باحثاً عن  
معلومات تخص حياة راسبوتين المبكرة.

أما الكتاب الذي بين أيدينا فهو محاولة لاعادة تقييم شخصية راسبوتين.  
بيد أن ذلك لا يعني أنني قد وضعت نصب عيني نية مسبقة في الدفاع عنه لأنني  
أشكك حتى في أهمية اخراج مثل هذه الكتب، سيما وأن محاولات عديدة سابقة  
لتبرئة ساحته قد ظهرت لكنها لم تتل من الأهمية مكاناً. إن وجه الاعتراض  
الوحيد للراهب الفاجر (مكروباكو) هو كونه لم يصل الى نصف ما يستحق  
راسبوتين من اهتمام ذلك الرجل الذي فكر أن يكون راهباً ولما يزل في السادسة  
عشرة من عمره والذي اصبح واعظاً جوالاً تحصنه قوى شافية غريبة حتى ظن



في نفسه صورة جديدة للمسيح. وإذا ما حاول القاريء أن يجسد امامه راسبوتين الحقيقي الذي غاب بين ظلال الكتب التي تحدثت عنه، نراه سرعان ما يدرك أن لمشكلة تكمن في اقتناص الجزء الجوهرى من حياته، جزء ابعد من أن يوصف... انه جزء الانسان الحي. ونظم جيمعاً ايضاً أن كبار الكتاب لم يتعشروا أن يتلقوا وراهم تجارهم الحية. وأمانتاً شيلي الذي اذا ما شئتنا تحويل شعره الى سيرة فائتة فلن نصيف سوى التزور القليل لحقيقته الواقعية المعروفة لدينا مسبقاً، لكن راسبوتين لم يكن كاتباً عظيماً... ولم تكن مذكراته سوى شيء يشبه الغصين الخارجى لبصلة (بيركينيت) حيث يتتاب المرء الشعور المزعج أن لها مفقود.

انه سوء الطالع الذي اتسبه للتاريخ، وفوق ذلك للتاريخ المتبر لاواخر الملوك القياصرة. انه شخصية مثيرة حقاً وأكثر منها اثارة جذوه التاريخية. ان للتاريخ اسلوبه في أن يحط بالرجال الى الحضيض... الى صورة ذات بعدين فقط. انه عدو للموضوعية فحق لتستين ديدالوس أن يصفه: «الكابوس الذي أحاول ان ابقى منه...». وإذا نظرنا الى (كيركجارد<sup>(١)</sup>) و (نيشه<sup>(٢)</sup>) و (هولدرلين<sup>(٣)</sup>) نراهم يلقون وحيدين خارج حدود التاريخ، لقد بزغوا بفاهليتهم الشديدة بينما

(١) كيركجارد (سورن) Kierkegaard (١٨١٣ - ١٨٥٥).

فيلسوف ولاهوتي دانماركي وصنوي. وهو أول الفلاسفة الوجوديين المعاصرين الخارجين على هيكل، وقد علل الوجود في شيء من الشاؤنية. تستند فلسفته على الإيمان والفكر والحقيقة، وهو يدرك أن الأداة الالسانية ذات الشفرة الحادة هي التي تقرر علاقة الانسان الذاتية بالله.

(٢) نيشه (فردريش) Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠).

فيلسوف ألماني أخذ بملذهب التطور وشر بالانسان الاصل (السورمان) قائلاً أن الانسان الاصل يجب بلوغه وان البقاء للأصلح، وهو أحد مؤسسي العرقية الجرمانية، ومن كتبه التي تخلص فيها ما يدعى بـ (الزادة القوة): «نشأة المأساة وروح الموسيقى»، «هكذا تكلم زرادشت»، «المسار وظله»، «الزادة القوة».

(٣) هولدرلين (فريدريش) Holderlin (١٧٧٠ - ١٨٤٣).

شاعر ألماني صاحب رواية (هيريون) وأنشيد رائعة رغبعت الوحي الرومانطيقى الى درجة الصوف.

طلست الأصول غارقة في الظلام. لقد دخلوا التاريخ ولم يكونوا جزءاً منه. في هؤلاء الرجال شيء ما ضد التاريخ، فهم عرضة للزمن، للحادث والموت، لكن قاهليتهم الشديدة كانت تمثل مقاومتهم له، لذلك فقد اسميتهم في كتاب غير هذا بـ (اللامتمتعين) لانهم يحاولون الوقوف خارج التاريخ الذي يعرف الالسانية في اطار عجزها وقصورها وليس في اطار الاحتمالية.

ان الدين بطبيعته نقيض التاريخ: لقد كان راسبوتين رجلاً مأخوذاً بالدين وكان ايتهاته الذاتي بالمسيح الباعث الأحموى لديه لا الانغراس الجنسي او الرغبة بانشاء السلطة. بيد أن روسيا تحمل التاريخ كله - فيها الحروب والمجازر والقتل والشوات والاعدامات. كتب ار. دي. شارلك قائلاً: «لقد طاردت (تيمسز) الهة الاستقام لدى الاغريق) الثلاث وعشرين عامساً الاخيرة من حكم آخر القياصرة الرومانوفيين، ولن يستطيع اي قاريء للتاريخ أنى كان دقيقاً ان يشع عباله سواء هذه الحفبة من الزمن او غيرها من حقب الماضي». هنا يعبر شارلك عن هذا الشعور الذي يتتاب الفرد وهو يقرأ تاريخ روسيا، فهناك لحظات يبدو المرء فيها وكأنه (يتفس روح التاريخ) ساحباً يحيطه لتحرك الشخص كما يفعل الأحموز. لكن راسبوتين يمتلك ميزة اللامتتمتعى الثالث ضد تأطير نفسه بروح الزمن الذي يفصل الانسان عن واقع. ان جوهر ميزة اللامتتمتعى تتجسد عند نيشه في عبارته: «كيف يصيح الانسان ما هو عليه». لقد جاهد راسبوتين طوال الأربعين سنة الاولى من حياته لنبال هذه الصيغة من الواقعة الداخلية فجنى بجهاده هذا قوى متميزة. نوعاً من الزخم الباطني اتاح له مقاومة تيار التاريخ.

بعدها قدم شارخ بطرسبورغ ليجد نفسه في اعنف دوامة لهذا التيار جرفته نحو مستطع المياه حيث تطارد نيمسز القياصرة. لقد خدمته قوته الداخلية كثيراً لكنه لم يكن قوياً للدرجة التي تمكنه من انفاذ القياصرة او انفاذ نفسه من الموت.

كانت الملكة تدرك حقيقة الموقف فراسبتين لم يكن ملاحاً احتضته العائلة الملكة بل كان قد يسهم وهذا ما يفسر قدرة راسبتين على توبيخ القيصر وجعله مطيعاً كطفل وديع، وهو ما يفسر أيضاً رسائل الملكة إليه المقعنة بالتوسل وشعور بالحنوع:

«معلمي الحبيب الابدي، ايها المتقذ والناصح المخلص... أي ظلمة أعيشها بعيداً عنك، لقد تميت سكون الروح واسترخاء الجسد في ذم جليستك. دعني أقبل يدك وألقي برأسي على كتفك المباركتين. أه كم تعمرني السعادة حينها، إنني لا أشد من الحياة غير أن أنام ابداً على عندك وبين ذراعيك... أي غبطة أعيشها وأنت قربي. أين أنت؟ أين دعيت؟ عجل الي بخطوك فما عيل صبري، وسلواتي أي أقرب خطاك...»

تبدو هذه الكلمات كأنها رسالة حب لكن تأثير راسبتين عليها كان اقوى من وقع الحبيب على عشيقته فالجنس لن يكون سوى مضغاً هذه الهيمة. لقد كان راسبتين هو الواهب في تلك العلاقة، ولم يكن لديهم شيئاً ليهبوه اياه. كان يعلم انهم يسعون منه النصيحة، وكان مطلبهم ذا وجهين: الاول يخص ضعفهم والآخر ملوكيتهم، وربما كان الاول قوياً جداً بيد ان راسبتين كان قروياً يؤمن بالحق الالهي للملوك وهو ما جعل الرفض لديه مستحيلاً. اذ انتفضت حيويته سرات عديدة ضد التضحية بالنفس... كان يفر منها لمرات عديدة وكان يعود بعد كل مرة ليعيد الكرة، وبعد عام 1910 تقريباً انبرى لدى شخصية راسبتين عنصر جديد ليس من البسير تحديد معاملة وربما يكون من الافضل التعبير عنه بالصمت بدلاً من الكلمات... لقد قبل ان يدور في فلك هذا العنصر حتى نهاية المطاف وهذا يعني انه قبل بتدمير الذات. لقد اتضحت لديه معالم من الازواجية منحته احياناً سلاماً مضطرباً، سلام انسان يدرك انه وافق على

الانكباب اشبع حزيمة بحق نفسه. لم يتأكد قط هل يحتم عليه كيانه الباطني ان يتسلل عن القياسرة ويتركهم يتخطون بتفاعة التاريخ الذي تورطوا فيه. ايها الشفقة وشعور الواجب قد منعا ان يفعل ذلك. هنا تجلت شخصية اخرى بالكاره لقيمه العميقة في نفسه: مائكرة وعيفة، موسومة عليها بصيات الماسوشية (تعذيب الذات)... كان كمن ذهب الى دائن يرهن لديه الثمن كتونه لا لشيء سوى ليرفضها. لقد انعكس ثقيله من قدر نفسه على نفسه حيث تتحيل هنا الشفقة الجريئة الى نوع من الماسوشية لديه. كان يدرك جيداً انه ذاهب الى حتفه وهذا ما تكشفه رسالته الاحيرة، وكان يعلم ايضاً ان نهايته مرتبطة بنهاية القياسرة، اذ اخبر القيصر ان موته سيؤدي سقوط العرش. لقد ذكرت ابته ان اياها أسس وبعد عام 1914 عصبياً، مشدوداً وبدأ يشرب الخمر وعندما افترضته اجابها: «ولم لا افعل؟ انا رجل كياقي الرجال». ان راسبتين الذي اهدم في باحة قصر يوسيف ليس براسبتين الذي قدم شارع بطرسبورغ سنة 1908... ذلك الـ (راسبتين) الذي كان مدرتاً بأنه رجل ليس كياقي الرجال، راسبتين الذي تعرفون بدأ يموت بالسم البطيء منذ عام 1910. ربما لاجل هذا لم يؤثر سيانيد يوسيف فيه فاضطروا للقضاء عليه باساحتهم التاريخية.

اذن لم تكن حياة راسبتين «تاريخياً» بل هي نزاع التاريخ تطوره الموضوعية. كان راسبتين في سنه التي اعضاها في شارع بطرسبورغ (لاوكونا) حظه التاريخ. لكن جميع من كتب عن راسبتين كان إما مؤرخاً أو صحفياً شخصياً. فليس من العجيب اذن ان يظهر راسبتين في تلك الكتب (كصلة بيركيت) الخالية اللب... كان كيدق بعركة التاريخ. ويطرز المكر قوته القائدة له ان جوهر راسبتين الحقيقي يكمن في ولعه بالدين وهذا هو المنفذ الوحيد للمواج الى دواخله.

ليس عسيراً إجراء مقارنة (على سبيل المثال) بين في. إي. لورنس<sup>(1)</sup> ورامسيون، فقد كان لورنس رجلاً لامتياً أيضاً أوقع به التاريخ، وربما يكون كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) الوثيقة الأساسية الوحيدة مثل هذا الصراع. وهو كرامسيون قد جعل من نفسه رجلاً عظيماً قبل أن يصبح قائداً للثورة العربية (ربما يكون الاثنان قد التقيا في فلسطين قبل الحرب لأنها كانتا هناك في نفس الوقت). كان هاجسه الزهد وفكرة الحج وساوره شعور أيضاً أنه إذا ما خدم التاريخ فيكون كمن تحن نفسه. ولم ينجح قط في استعادة الموضوعية التي كان قد فقدتها أثناء الحرب. لقد طغى على كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) شعوره بالظهور من التاريخ... هو نوع من التمرد المرتبك وهو محاولة للخلاص من الضيقة التي أمسكت به. عندما عرض (ايريك كينجتون) الكتاب على منجم عجوز لا يفقه شيئاً عن لورنس قال المنجم: «لقد جعلتني قراءة هذا الكتاب أتعذب. إن كاتبه أعظم رجلاً عرفته لا محالة...»<sup>(2)</sup> لكن هذا المنجم نفسه أحسن باستسلام لورنس للتاريخ... إحساس بلا حقيقة الوجود ذلك لا تشعر به حياً فيها يفعل... أنه مجرد مليون تجري من خلاله الحياة...»

وبعد، ويرغم العفة المطلقة وعظمة لورنس الجليتين في (أعمدة الحكمة السبعة) لم يتصور ريتشارد اولدنكتون أن يكشف في سيرة حياة لورنس الذاتية طلالة الزيف الذي غطها ليرهن أن منبع حياة لورنس هو ولعه بالكذب. إلا أن الاحتمال ما زال قائماً أن نجد حتى في أعمدة الحكمة السبعة لورنس الحقيقي (أب البصلة). وهنا نصل تحت هذه الظروف إلى البداية التالية: لا عجب إذا لم نجد كتاباً واحداً عن رامسيون استهله مؤلفه بذكر الحقيقة فقط لا غير. إن

(1) لورنس (لورانس) Lawrence (1888-1943).

مساعد وكتاب انجليزي، التقى الشريف حسين وشجع ثورة العرب ضد الاتراك 1916-1918. لقب بلورنس العربي.

المخالفة بحق رامسيون لا تكمن في الحقيقة التاريخية فحسب بل في كيفية التوصل إليها، ومن ثم ادراك السبب وراء اختيار رامسيون لذلك النمط من الحياة. وبإدائه ذي يده تقول: إن رامسيون كان روسياً والقلبة من كتبوا عن سيرته الذاتية كانوا من الروس أو ممن يدركوا ماذا يعني أن يكون المرء روسياً. أما من كتب عنه من الروس فكان معظمهم شيوعياً أو أهم كتبها من وجهة النظر الماركسية.

فالروسي رجل المتناقضات مثله في ذلك مثل لورنس العرب. إنه كسول وبسيفه قوة الإرادة في اطار الأصرار على غايته. يبد أنه يملك - من جانب آخر - قوى ملغلة تتمثل في القدرة على تحمل الصعوبات وتحاولها. إن أغلب المتناقضات في الشخصية الروسية ليست سوى ردود فعل لهذه الصفات من الكسل واللامبالاة. كتب (بيردياييف) قائلاً: «لقد كان هناك عنصر قوة رهيب لدى الشعب الروسي مقرون بضعف نسي في الصيغة» أو بمعنى آخر إن الروسي يمتلك قوة لكنه يجهل السبيل ليفعل منها شيئاً. إن من المستحيل فهم التاريخ الروسي إذا ما حكمنا على (أيفان المريخ) و (بيتر العظيم) وحتى سائرين على أنهم رجال انجليز. ولو ارتكب اوروبي غربي مثل ما ارتكبه من وحشية لأصابه جنون الاضطهاد والارتياب من الآخرين، لكن الأمر ليس كذلك لروسيا. فهي أرض الغموض والبلادة والعجز وتقصان الهدف. إن عتق التاريخ الروسي هو رد فعل حتمي لهذه الصفات... رد فعل رجال يحاولون تحقيق شيء ما.

لقد قيل إن كسل الروسي أنها هو جزء من موروثه الآسيوي. وهنا كتب (جون كشر) قائلاً: «تقع على المسؤولين مسؤولية العديد من الصفات التي نعتبرها شرقية أو آسيوية في روسيا اليوم كالحشونة والامتثال للقدر والكسل. ربما لا تكون بلادة الروسي وجزءه جزأين من معالم الشخصية القومية الأصلية

بل هما حصيلتين للشخلف. فهناك بلدان لا يمت احدها للاخر بصلة، مثل  
ايرلندا والهند، يتقاسمان هذه الصفات والتي بدأت بالزوال بعد قيام الثورة  
الصناعية، وسيشهد القرن الحالي، ربما، اختفائها من روسيا. إن الحرافقة الدينية  
هي سمة لعالم تخلف البلدان وربما هي رد فعل للكسل: انه التوق المليء بالايهان  
العميق ضد حالة الخمول في هذه البلدان. وهنا نجد روسيا اقرب الى آسيا منها  
الى اوروپيا، فمسيحياتها الاغريقية الأرثوذكسية لها نفحة بوذية. اذ يلقب من  
يفر ترك عائلته في البلدان البوذية ليصبح متسولاً دينياً بالك ( تانهاجاتا )، وفي  
روسيا يدعى (ستاريتز) اي (حاجاً). لقد اصبح راسبوتين (ستاريتزاً) عندما بلغ  
الثلاثين من العمر.

ثمة ميزة اخرى في الروسي علينا ادراكها جيداً: فهو اذا ما امسى رجل  
دين فانه سلم بوجود الله. الله قوة خارجية. أما نظرية ( جورج فوكس ) القائلة  
أن الله هو (الضياء الداخلي) فهي نظرية دخيلة تماماً على الروسي. لقد تطلب  
الاعتقاده في اوروپيا، على رؤية جديدة لله ثلاثة قرون بعد الثورة العلمانية لنيوتن  
وغاليليو. لقد علم نيوتن الرجل الاوروبي أن يتن بعقله فقط فخلق بلمحة ثورة  
لامرئية. ونيشته أعلن موت الرب بعد ثلاثة قرون من ولادة هذه الفكرة في  
اوروپيا. لكن الرجل الروسي لم يكتسب بناتاً الثقة المطلقة بالعقل و (الضياء  
الداخلي). فهو يرى في الله سؤالاً مسلحاً ما حياً. وفي هذا الاطار يروي  
(بيردياييف) كيفية اثباته الى فريق من المفكرين اعتاد الاجتهاد في شائع  
بطرسيبورغ في بداية هذا القرن. اذا اقترح احدهم أثناء إحدى النقاشات حول  
(ما وراء الطبيعة) الذهاب الى منازلهم بعد أن أسدل الليل سدوله لكن آخر  
أجابه قائلاً: «لا... لا يمكن أن نذهب الآن فنحن لم نقرر بعد فيما اذا كان الله  
موجوداً!».

انه لمن المستحيل أن نتصور روسياً يقبول غير مبال كزادشت: «أو لم  
يسمع هذا بعد أن الله قد مات ٤٩»، أو أن يراهن بالخدائيه بطريقة سارتز<sup>(١)</sup>. ان  
ستافرون عند دستوفسكي في (الشياطين) هو زرادشت روسيا ومزيد من الثقافة  
لنا أن نقارنه بتظيره الألماني. فستافرون شاب غني اكتشف موت الرب لكن هذا  
الاكتشاف لم يحقق لحرته الاحتفال (الدايونيبي) - نسبة الى دايونييس اله الخمر  
عند الاغريق-، انه يجد العالم مرفقاً مجرداً والرب غائب عنه ويرتكب الجرائم لا  
لشيء سوى ليصدم ذاته ويحدث رد فعل اخلاقي، انه عاطفة تجلوت حتى عظمه  
ولا ينال من عقله اية متعة، ومن المستحيل ايضاً تصوره مرفقاً نفسه، كشيلي،  
في دراسة الكيمياء او الاقتصاد السياسي. فاذا غاب الرب غدا العالم ثقافة، ما  
من جدوى للبحث في داخله عن معنى فعماله الداخلي قد مات. وما الحياة له إلا  
مفترق طريق: اما قوة العاطفة أو أنها ليست بشيء. والقوة تنجم عن حافظ  
خارجي ولا يمكن له قط تصورها تنشأ من الداخل. ان رد فعله لموت الرب هو  
الانتحار.

لا مندوحة هنا من ادراك هذا لفهم ماهية الدين لدى راسبوتين. ان دين  
راسبوتين لو قورن مع اي من رموز الدين الاوروپية العظيمة الشأن امثال  
باسكال<sup>(٢)</sup>، وليم لوف، نيومان وكيركجارد لتجلى غير عقلاني بطريقة غريبة وهو

(١) سارتز (جان بول) Sartre (١٩٠٥ - ١٩٨٠). فيلسوف وناقد وكاتب فرنسي. تأثر  
بظواهر هوسرل وهابيدغر وغدا من أبرز رواد الوجودية للشاملة. وهو يقول أن الوجود  
متقدم على الذات وأن الانسان مطلق الحرية في الاختيار. أبرز أعماله «الكائن والعدم»، «طرق  
الحرية»، «الجدارة»، و«الابدي القدر». التحاز فيما بعد الى بعض أفكار ماركس.

(٢) باسكال (بليز) Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢). فيلسوف وأديب ورياضي وفيزيائي  
فرنسي. وضع المخطوط الرئيس لكتاب (الخواطر) في الدفاع عن الدين المسيحي.

(٣) نيومان (جون هنري) Newman (١٨٠١ - ١٩٨٠). قس وبروتستانتي انجليزي. أحد  
زعما حركة الكسفورة للجمعية المسيحية. انضم الى الكنيسة الكاثوليكية واصبح كاردينالاً.

واقعي وموضوعي بطريقة غريبة ايضاً. وهذه مسألة ليس من اليسير على الاوروبي ادراكها لأن راسبوتين اعد من أن يكون غير عقلاني. لقد اعتمد على نفسه على نحو جلي لكنه لم يكن ذلك الاعتقاد العقلاني للذات على نفسها الموجود لدى نيتشه، فهو (راسبوتين) لو زرع اصغر ذرة شك من شكوكية زرادشت في عقله لشاوت شخصيته بكامل بناءها. لقد لقب القيصر راسبوتين بالمحدد- اي الرجل الجديد- لكنه لم يكن بالرجل الجديد بل هو من الناحية الفكرية آخر (المؤمنين القدماء) وسيكون أوفر حظاً لو كان قد مات قبل الثورة البلشفية (ثورة اكتوبر)، وبقي أن نقول هنا كلمة يجب قولها: ان الكتب التي تناولت راسبوتين تشب الى ثلاث صنف:- الموثوق بها بشكل أو بآخر، والموثوق بها ذات المعلومات القليلة، وغير الموثوق بها تماماً. ومن المؤلف حفاً أن نسمي معظم الكتب الى الصنف الأخير.

يعد كتاب (يزنارد بيرس) والموسوم بـ (سقوط المملكة الروسية) أفضل كتاب عالج هذه الحقبة من الزمن بأسرها لكنه اعتم، شأنه في ذلك شأن معظم المؤرخين الذين عالجوا هذه الفترة، بتأثير راسبوتين في بلاط القيصر ولم يبذل جهداً جيداً لينصفه حقاً.

إن المثال النموذجي للوصف المتحاز جداً لحياة البلاط في تلك الفترة قد ورد في كتاب نجعل اسم مؤلفه والموسوم بـ (سقوط القياصرة) الذي يحمل العنوان الشاوي (كيف تسببت الملكة وراسبوتين في قيام الثورة الروسية)، ومن الواضح أن مؤلفه أحد أعضاء البلاط ممن يحملون كرهاً شخصياً للملكة. فهو يصف الملكة بالمستيرية وراسبوتين بالمحتال السوقي. كما يعتبر كتاب فولوب ميللر (الشیطان المقدس) من أهم الكتب التي تناولت راسبوتين وهو الأضخم بلا شك. وقد أوجز بيرس الاخطاء التي وردت فيه فيقول: ورغم ان الكتاب

يتمسك عملاً كادحاً لكن الاسلوب الصحفي قد طغى، ولسوء الحظ، على أغلبه فصحات حوادث القصة الرئيسية في غير مواضعها تماماً بل وتحوّلت حتى بعض أجزاء التاريخ الى معادلات عيالية تقع على الكاتب وحده مسؤولية كتابتها. ويعرض فولوب ميللر ايضاً توارخاً ضئيلة ولا يكثر بذكر المصادر التي اعتمد عليها.

ظهرت العديد من الكتب ألّفها أشخاص عرفوا راسبوتين يأتي في مقدمتها كتاب يوسيفوف عن محاولة الاغتيال، والسيرين الذاتية من تأليف ابنته، وكتاب سيانوفيتش (سكرتير راسبوتين).

وجميع هذه الكتب موثوق بصحتها اذا ما تحدثت عن علاقة المؤلف الشخصية براسبوتين ولكنها فقيرة المعلومة في جميع النواحي الاخرى. فكتاب (سيانوفيتش) يشبه بالتحديد عموداً صحفياً مائلاً يعطي الانطباع بأن غاية المؤلف الوحيدة هي منح القراء قيمة ما دفعوه ثمناً للكتاب. ويوجي كتاب يوسيفوف بالنزاهة لكنه يصب اهتمامه تماماً بتبرير محاولة الاغتيال يعرضه راسبوتين مجرداً من أية خصلة متوازنة.

أما كتابا مازي وراسبوتين القصيران فربما يمثلان الصورة الأكثر واقعية لراسبوتين، بيد أنها لا تحتويان الا على معلومات قليلة جداً من بين عشرات الأمور التي كان مفروضاً أن تكون ابنته حنة الاطلاع عليها. وهما لا يتغلوان عن التناقضات أيضاً، فهي تذكر أن راسبوتين رأى تجلي الذات الالهية لعذراء (كساران) ولما بلغ الثلاثين من عمره لكنها ذكرت قبل ذلك وفي نفس الصفحة بأن ذلك حدث عندما فقد ابنة البكر بعد سنة من زواجه وكان حينها في العشرين من العمر، وهي تقول في غير هذا الموضع انه قد تزوج في التاسعة عشر من

ثم ظهر في السنة التي تلت مقتل راسبوتين كشتيان قصيران عنه، كتب أحدهما في. بي. فوجبل جيورجنسن، وكتب الآخر جورج اوميسا. يعترف فوجبل جيورجنسن بصراحة أنه اتفق معظم معلوماته من الصحف الروسية، وعليه فإن الكتاب يزعم الاخطاء الجمة التي يتوقع أن تعص بها معظم صفحاته يكون قد خط لنا في اقل تقدير صورة واقعية لرد فعل الصحافة الروسية حيال راسبوتين. اما كتاب اوميسا فهو أول دراسة غير دقيقة تصل حد الوقاحة واللااخلاقية تجاه راسبوتين، فهو يبدأ بالادعاء ان الملكة استهلت فترة حكمها بتروطها بعلاقة غرامية ورويداً وويداً يستمر يطلق لخياله العنان فيصل الى ذكر تواريخ محددة ومقتطفات مما نشرته الصحف لاسناد ادعاءاته.

كتب الروائي وليم لوكوكس ثلاث كتب عن راسبوتين غير جديرة بالثقة ستال مني الشرح في الفصل الخامس بملاحمة راسبوتين.

في عام ١٩٥٧ كتب هينس لينان احدث كتاب صدر عن راسبوتين بعنوان (راسبوتين... أفتديس أم شيطان؟) والجزأ نفس الاسلوب الصحفي لغيبوب ميللر وأقل واقعية، يبدأ الكتاب بالقول: «إن هذا العمل ليطل كل ما نشر سابقاً عن راسبوتين باعتباره على مطبوعات مركز الوثائق التاريخي في موسكو»، ويظهر في واقع الأمر أن معظم معلوماته كانت من بنات افكاره. فهو يصف بالتفصيل كيف ضرب فلاحو القرية الثائرون والد راسبوتين حتى الموت وكان حينها راسبوتين في السابعة عشر من العمر، بينما تذكر مازيا راسبوتين بأن جدها زار شارع بطرسبورغ أثناء اقامته والدها هناك اي عندما تجاوز راسبوتين الاربعةين من العمر. وعموماً يجيب وضع كتاب لينان على كلف المساواة مع كتاب اوميسا.

ومع ذلك نراي امششهد به بين الحين والآخر وحيثما تطلب الأمر مقارنة معلوماته بمعلومات مصدر آخر، وأشيراً أشير الى احدى النواذر الأدبية عن راسبوتين والتي هي آنذاك مقالاً عن قدرته في ابداع الاساطير، انه كتاب (جورج سافاس) تحت عنوان (راسبوتين يتحدث) والذي يدعي فيه مؤلفه أن روح راسبوتين قد املت عليه الكتاب من شفاء وسيط روحي وكان ذلك عام ١٩٤٠. وفيه تظهر روح راسبوتين وكأنها قرأت كتاب فولوب ميللر فهو يردد الكثير من القصص حرفياً تقريباً كما يردد أيضاً بعض مغالطاته. وفي الجزء الثاني من كتاب سافا تبرز روح راسبوتين لتتأ على المدى الطويل بمستقبل روسيا (والتي أثبت فيما بعد صحتها الى حد بعيد). وفي الختام يكفي مجرد ذكر عناوين بعض الكتب عن راسبوتين للدلالة على شخصيته:-

راسبوتين... العوبة اليهود، رودلف كومر.

راسبوتين والنساء، رينه فولوب ميللر.

سيد الشيطان- التاريخ السري لحيانة راسبوتين لروسيا، وليم لوكوكس.

الراسبوتينية في لندن، لوكوكس (لم يدعب راسبوتين أبداً الى لندن).

راسبوتين، الراهب والداخر والمجرم، اوكتست ايسكاليه.

راسبوتين والفجر الدموي، برنيس مورات.

راسبوتين، الفروي القوي، اي. سينانوفيتش.

وهكلا سيدرك القاريء ان الكتابة عن راسبوتين ما برحت تجد حيزاً لها برغم هذا الكم الهائل من المطبوعات التي تناولت حياته.

## الفصل الاول

### الامكاني

كتب نيقولا بيرديايف<sup>(١)</sup> قائلاً: «تخفي الأرض الروسية بين تضاريسها شيئاً مما يتوافق مع رحابة وغموض وابتداء أرضها. وسبيريا... تلك الأرض الغافية خلف جبال الاوزال هي الجزء من أرضها التي تكلمت هذه الصفات. فهي ابيض الأهباز العظيمة: اللينا، الأمورا، النيس والأوب، انهار قد تتلاشى أمامك حدود شواطئها ولما تقف في عرضها، وهي طريق ملاحى لصيادي سمك المحيطات. شتاؤها قارس قد تصل درجة الحرارة فيه الى اقل من الثلاثين تحت الصفر، بيد أن هوائه الجاف والسكن يجعل منه شتاءً مطلقاً. وصيفها قاسٍ يهرق الأرض بلهب حرارته حتى تبدو فيه الستيب (سهوب سبيريا) أحياناً صحراء لاقعة لأرض قاحلة.

وشرقها عبارة عن مناطق جبلية أما شمالها- حيث ولد راسبوتين- فسهول مشرحة البقية بنات التندرا ومساحات منبسطة مغطاة بطحلب الرنة ونبات حزاز الصخر.

ليس مؤكداً بعد متى ولد راسبوتين، لكن الآراء تتفق أنه جاء اوآخر عام ١٨٦٠ في بوكروفسكو وهي مدينة صغيرة واقعة في مقاطعة (تيومين) قرب (تولومسك). غدت سبيريا- منذ زمن (بطرس الكبير)- معتقلاً ومنفىً وبؤس أحد الكتاب أن بوكروفسكو قد اسمها المعتقلون ممن أطلق سراحهم في سنة

(١) الفكر الروسي، منشورات جيوفري، باريس للحدود، ١٩١٧.



١٨٢٠ - وإن صح هذا القول فإن المؤسسين قد نجحوا دون ريب في اختيار أرضهم فهي كما وصفها (برنس يوسف) :-

«تمتد قرية بوكروفسكو بموازية ضفتي نهر تورال المرتفعتين العاريتين. ومن القلة الواقعة في قلبها وحيث تسمح كثبتها تنزع طرفاتها في كل اتجاه. انها طرق مستقيمة تقع على حدودها أكواخ الفلاحين الضيعة. كل شيء فيها يشر خيراً، فالطينور تملأ شوارعها وتغص امنية مزارعها بالأبقار والأغنام والخنائير، أما المهور المحلية فتبدو كأنها مسقلت بالفولاد، وشرفات الأكواخ نظيفة تتلألاً شبايكها العريضة بالزهور.

لو غادرت القرية ووقفت برهة على ضفاف التورال فانك ستقف لتواجه رحابة سيريا التي لن تتراهي أمامك رحابة مثلها ما حيت. وهل امتداد البصر تستفلك مروج وسهوب تشخصها بساتين البتولا وتمتد خلقها (الأورمان) وغاية مترامية الأطراف مليئة بأشجار الصوبر والتوب.<sup>(١)</sup>

كان والد راسبوتين فلاحاً أجاد مهته وحزبياً ومالك جيد، وقد اتهموه، كابه، بسرقة الجياد. وهي همة يمكن الأخذ بها لأنه أعضى عاماً في السجن. وقد وصفوه بأنه فلاح كادح وسكير مدمن وكلتا الصفتين تنطبقان عليه كثيراً. وما نأكد لدينا أنه بدأ الاقراط في الشرب بعد زواجه مباشرة عندما كان سائقاً في البريد الامبراطوري الروسي، لكن السنة التي قضاها في السجن - بعد خسارته أحد جياده - جعلته يغير من أسلوب حياته. ففي عام ١٨٦٠ نزح شرقاً ووجد منطقة جميلة في ملتقى نهري (التورال) و (التوبول) حيث يوجد شلال يصل

(١) راسبوتين... تفوهه للامر واغتياله، ص ٢٨.

(٢) هينز لسيان، راسبوتين،... قدس أم شيطان؟

الارتفاعه الى مائة قدم. وهناك أقام يسقيمي راسبوتين منزله بين عدد قليل من الأكواخ كيونت فيها بعد قرية بوكروفسكو. وقد كدح كثيراً في زراعه أرضه حتى عدت جنة معروشة زاهية فلتنخبوه زهياً للقرية وفي هذه الفترة بالذات ولد له ابنه الثاني كريكوري.

أمضى راسبوتين طفولة سعيدة كان فيها محباً للخيل ومولعاً بالسهول الخضراء الواسعة. لم يزل من التعليم الا قليلاً برغم أن والده علمه مبادئ الفراءة فقط لأنه لم يجد في تعليمه الكتابة ضرورة تذكر، فنشأ راسبوتين كارهاً للاضباط مفضلاً السباحة وصيد السمك على الاكساب على قراءة الكتب، وهو لم يدعلم الكتابة بطريقة صحيحة ومحاولاته في كتابة بعض الرسائل لم تكن سوى محاولات طفل عقيمة مترددة، لكن الحرية التي تمتع بها في طفولته ورحابة السهول أمامه قد أرسنا أمامه أسس قوة ظل محتفظاً بها طوال حياته ولم تستطع كل مؤامرات ومكائده حياة البلاط أن تقوضها إلا بتر قليل. كتب (بريخت) شعراً جاء في أحد ابياته: «سأشعر ببرد الغابات ما دمت حياً». انه البرد الذي سكن راسبوتين ابساً بصحبه تفاعول كان خماس طفولة تجردت من الحشونة والفظافة الى حد كبير.

امتلك راسبوتين منذ نعومة أظفاره خصلة سما بها فوق أتراب قريته، انها البصيرة الشاقبة فطرياً وقراسة لا مثيل لها وهنا استشهدت ابته بقول ابنها: «لم أكن أجرو على سرقة أو اختلاس شيئاً ما معها كان صغيراً لاعتقادي أن الجميع سيكتشفون في الحال انني سرقت ذلك الشيء. لأنني أنا نفسي أعرف بالقطرة بأمر السرقة اذا ما قام بها أحد زملائي حتى لو كنت في مكان بعيد عني والشيء المروق هباء، فأنا أستطيع رؤية ذلك الشيء ذاته». ولتأكيد هذه القراسة لديه لذكر ابته حادثة جرت في شارع بطرمبورغ ذات يوم عندما جاءت الى راسبوتين



امرأة مجهولة حامله مؤقفة، انتزع راسبوتين منها الموقفة حال دخولها وقال لها:  
«اربي ذلك» وحل الفور سقط منها مسدس وأغمي على المرأة وهي في حالة  
هستيرية.

ارتبطت إحدى مآثر راسبوتين الخالدة في طفولته بحصان مسروق من  
مخزن حبوب فلاح فقير. اذ اجتمع أهل القرية لمناقشة الامر في بيت زعيمهم  
بيغمي راسبوتين، وكان كريكوري حينها مريضاً بالحصى وثائباً على فراش أو  
أريكة في نفس غرفة المجتمعين. وفجأة نهض من فراشه وأشار الى أحد  
الفلاحين قائلاً: «هذا هو السارق». احتسق الرجل الذي كان أحد أثرياء  
الفلاحين واضطر والد راسبوتين لاسترضائه موضحاً أن الطفل قد غلبته الحمى  
ولا يمكن أن نحمله مسؤولية قوله. لكن الشك ساور اثنين من الفلاحين لرد  
فعل الرجل على اتهام كريكوري له فحملهما الفضول وحب الاستطلاع على  
ملاحقة الرجل حتى منزله فشاهداه من مكانها الخفي المظلم في مخزن الحبوب  
وهو يقود الجواد المسروق خارجاً ليطلق سراحه لكن الفلاحان أمسكا بالسارق  
وضرباه بشدة وأعادوا الجواد لصاحبه.

حلت الرزايا وما بلغ راسبوتين الثانية عشرة من العمر بعائلته فتوفيت  
والدته وأكلت الثيران معظم منزله. وذات يوم خرج راسبوتين برفقة شقيقه  
ليلعبا على ضفة النهر فسقط شقيقه الى النهر وجرفه التيار، عندها غطس  
كريكوري لانقاذهم ونجح في إبقاء رأس أخيه فوق سطح الماء حتى أنقذهما فلاح  
عابر، لكن ميشيل أسلم الروح في اليوم التالي اما بسبب التهاب رئوي او بسبب  
تشم في الجمجمة. تلا ذلك بزمن قصير سقوط شقيقته المصابة بالصرع (كولين)

(1) الموقفة: غطاء التبري طويل مكرس بالفراء لتدفئة اليدين.

راسبوتين لاحقاً) في النهر عندما كانت تغسل الثياب وقرقت هي الأخرى ولم  
يبق في المزرعة إلا راسبوتين وأباه.

حصل كريكوري في تلك الفترة على عمل كسائق عربلة لمتعهد في  
(توبولسك) - من الواضح أن أموال العائلة قد تناقصت كثيراً ولم يعد بيغمي  
راسبوتين مالكاً للجياد. اشتمل عمل راسبوتين على نقل البضائع والمسافرين  
أحياناً في جميع أنحاء سيبيريا. فيما أجبره السفر على البقاء أياماً عديدة بعيداً عن  
المنزل نائماً تحت عريته أو في محطة بريد صغيرة ليلاً. واكتشف آنذاك ولما يبلغ  
السادسة عشر بعد، أنه جذاب للنساء، فقد أجمع كل من كتب عن سيرته الذاتية  
على براعته الجنسية في صباه.

كتب السير برنارد بيرس قائلاً: «من المؤكد أن حبيبة الأمل عمت القرية  
بأسرها للحرية الجنسية التي أجازها راسبوتين لنفسه». لقد اعتاد راسبوتين الا  
يشرح في عمل الا ويكتمله، وفيه محة غرور لازمة طوال حياته وربما أراد  
لسمعه أن تكتسب صفتي القسوة والمجون فالأهم لديه ان يغدو معروفاً يشار  
اليه بالبنان. لكن الشك يشوب نجاحه في أغلب محاولاته تلك ان لم تكن  
جميعها. يضاف لذلك أنه افتقر الى التهذيب في اساليبه كما شهدت على ذلك  
سيدات شارع بطرسبورغ، فحالما يعجب بامرأة ما يبدأ في محاولة الامساك بها  
وتقبيلها ثم يشرح في فتح أزراها. وقد ظل أسلوبه هكذا مشيراً للاشمئزاز  
والشفرة حتى في فترات حياته التي تلت ذلك. كان مدركاً بأن له هيئة قروي  
فيلسوف. وهو لم يكن ضعيف البنية وقد التقى بلا شك بكثير من القرويات في  
محطات بريد بعيدة واللاتي لم يكن ميالات لزوجوه.

لم يكن سعيداً واضيباً برغم أن بوكروفسكو قرية جميلة امتلكت صفات

الجمال التي تمنح لسائحتها السعادة وبرغم إحسانه بالجاذبية لكونه سمكة كبيرة في بركة صغيرة، وهو شعور يعزى لنظرة الآخرين له على أنه شخصية مريبة (تصفه أحد الأراء بأنه كان (رعب القرية))، لكنه كان ابن زعيم القرية فمن غير المعقول أن يكون الرفض الاجتماعي سبباً لشغوره منها. وكان ذا شخصية مزدوجة، فبعضه كان فلاحاً روسياً لديه رغبة غير معقدة في التمتع والطعام، أما الجزء الآخر فمشتمز من حبه للظهور ومن الكره الذي يعانته من أكثر الفلاحين هيبية ووقاراً ويشعر في أحيان أخرى بأنهم ليسوا بذوي شأن حتى يكرهوه، كانت تقوده إرادة المكوث في بركوفسكو.

جالت في رأسه فكرة واحدة مرات ومرات: أن يطلق ساقيه ويطوف العالم ويعيش جوالاً. لقد شاهد في مناسبات عديدة حجاجاً يمررون عبر قرية في طريقهم إلى دير بعيد. لكن طبيعة عمله كسائق عربية وفرت له كماً لا بأس به من الحرية ورياً كان راغباً عن هجر والده الذي بدت عليه تصرفات لا أخلاقية منذ وفاة زوجته وطفليه.

اضطلع راسبوتين في سن السادسة عشرة بتوصيل شاب متصوف يدعى ميليتي سابوروفسكي إلى دير (فيرخوتور) على بعد مئة ميل تقريباً<sup>(١)</sup>. لقد تحدث الشاب إلى راسبوتين وتأثر به، إذ كان راسبوتين متفتحاً بشوشاً ومتحدثاً لبقاً في أيام رخائه العائلي فنيا كان والده متديناً متعمقاً في الدين أمضى سنوات طويلة في قراءة (الكتاب المقدس) على عائلته والذي ابتاعه مع كتب أخرى قليلة مثل (حياة القديسين) ورويا حياة (القس العربي افاكيم)، وهو أول كتاب كلاسيكي

(١) أظن أنه كان في السادسة عشرة حينها رغم أن معظم الكتاب قد أجمعوا على سن أكبر من ذلك بالنسبة لمكوثه في الدير - لأن ابنته قد ذكرت بأنه زار فيرخوتور لأول مرة عندما كان في السادسة عشرة.

من الأدب الروسي كتبه (المعتدون القدامى). كان راسبوتين عارفاً بتلك الكتب لكنه لم يكن يطبعه متديناً. وبرغم ذلك نطل حياة القديسين والشهداء دائماً محط الهام شاب يشعر بالكبت في جوه الاسري. تحدث معه سابوروفسكي عن الدين حينها اتساب راسبوتين اهتمام وجداني تحول إلى إثارة. ودون ريب أنه قص على سابوروفسكي شيئاً عن حياته وعن مغامراته الجنسية وريها عن بعض الاتفاقات السرية التي كان يتمكن بواسطتها من الحصول على دخل أصافي. وعليه حث سابوروفسكي على البقاء بالدير ليقر بخطاياها وليفكر جيداً أن يصبح ناسكاً. وظلاً هكذا حتى وصلا فيرخوتور بعد عدة أيام من المناقشات الحامية التي تأثر بها راسبوتين. يقع الدير على تلة فوق نهر (النورا) وهو عبارة عن بناء أبيض في وسط خضرة الغابات وإلى اسفله تقع القرية المحيطة بالكنيسة التي تضم عظام القديس (سيمون العادل). إن أسطورة القديس سيمون لها تقارب مع قصة القديس (قرانسز). فقد كان سيمون شاباً غنياً تحل عن منصبه ليصبح راهباً، ويعتقد أغلب الناس أن عظام القديس (سيمون) لها قدرة على الشفاء فقصده حجاجاً زواجا زرافات.

رياً يكون النظام الرهباني الصارم قد أثار استهتاز راسبوتين إلا أن دير فيرخوتور كان أشبه في أكثر جوانبه بيت في مزرعة، وحيث أن الكنيسة تقع وسط القرية فقد اختلط القساوسة بحياة العامة اليومية، فهم زرعوا الأرض وساعدوا الناس في الريف المجاور، لقد انقسموا إلى مجتمعين كان أحدهما أقرب إلى السجان للأخر مما حدا براسبوتين العدول عن أن يصبح راهباً. وتلك هي أكثر النقاط التي شددت راسبوتين اليأس. لقد اتضح لديه أن فيرخوتر كانت مستغلاً لأعضاء بعض الطوائف المرطوية التي كانت روسيا مرتعاً لها. وأبرز تلك الطوائف هي الخلبستية والسكوتوتية (الثنان مستحدثت عنها لاحقاً باسمهات).

يعتبر هذا أول تماس لراسبوتين مع تلك الطوائف المرطبية التي حركت مساكنه كثيراً. والتي شكل أتباع الطائفة الخليستية الغالبية العظمى منها في (فيرخوتور) والذين يلقبون أيضاً بالجلادين وهم أناس آمنوا بإمكانية بلوغ ملكوت الرب على الأرض عن طريق الانتخاب. وقد تحدث إليهم راسبوتين ووجد ذاته أقرب إلى دينهم في نواحي عديدة من الكنيسة الأرثوذكسية. فهو قد وجد هناك - في أقل تقدير - العاطفة والايان الحقيقيين.

اتخذ راسبوتين في فيرخوتور صديقاً آخر مع سايبوريفسكي يدعى ماکاري وهو ناسك كبير معروف عاش في كوخ في طرف الغابات. ويعد قراء (الانوة كارامازوف) لدمستوفسكي شخصية شديدة القرب من شخصية ماکاري وهي شخصية الأب (فيراونت) الراهب الذي يعيش معزول عن الآخرين في كوخ متوح والذلي نادراً ما يتحدث إلى أحد، إضافة إلى ذلك هو غير مطالب بتطبيق قواعد الدير. ويضيف ديستوفسكي قائلاً: «اعتبره الكثير من الزوار قديساً عظيماً وذاهداً برغم يقينهم أنه مجنون... بل إن جنونه هو الذي شددهم إليه».

لم يكن الناسك (ماکاري) مجنوناً لكنه كان يتحنع بنفس المكانة التي تمنحها الأب فيراونت. فقد كان أغلب الحجاج الآتين للصلاة على العظام المقدسة للقديس سيمون يطلبون منه البركة. وتأثر الناسك ماکاري هو الآخر بشيء ما في شخصية راسبوتين ونصحه بتعلم الكتابة وتطوير قراءته.

غادر راسبوتين الدير بعد أربعة أشهر مكثها هناك وترك خلالها تأثيره الكبير على كثير من الناس - نستطيع افتراض هذا من مبالغ المسال الكبيرة التي اهدبت إليه بعد مغادرته. وصل راسبوتين، في عاقبة رحلته إلى الدير، إلى الفعاحة التامة أن حياة الدير ليست بالبديل الأمثل لحياته في القرية. لقد كان تواقاً

للحجيرة والتشجير، لذا غادره والاسي بمأوى وصديقه سايبوريفسكي والناسك ماکاري وهاد أذواجه إلى القرية الأم حيث يرقب والده قدموه بشوق وبهفة. ولهذا استأنف راسبوتين عمله القديم كسائق عربة بعد أن جنى بذور بقله في الدير أن أدرك أن لا مكانة للرهبنة في حياته وهاد مطاردته لينات القرية ومزاولة أي نشاط غير قتالي تسمح له به ظروف عمله.

لكن تغييراً ما قد حدث دون أن يدرك راسبوتين ما حدث. فحياة قرينته الأم بوكروفسكو لم تعد تشبع رغباته، فهي قرية صغيرة وأسلوب أقر من أن ينسج لعالمه. ويقدم لنا الأدب الروسي للقرن التاسع عشر آيات لتنعط حياة تلك القرى جسدها (سيميكي) و (تشخوف) و (سخرن) و (تولستوي) ولاحقاً عند كوركي وسولوكب الذي قدم أكثر الصور قوة في كتابه (ميليكي يس) و (شيطان الشفاعة) واللذان يوجزان باسميها أسلوب حياة مثل تلك الأماكن. إن الصفات التي اتفقوا عليها جميعاً هي: - الغباء المطبق المنطوي على الحقد والمكر اللذين يكونان أهم عناصر الطبيعة الانسانية، وتنع من التقاطعة والوحشية وأخيراً حموداً لامعقولاً متعمراً للروح. ولا بد أن ديستوفسكي، الذي ناشد (الموجيك) ليقتل روسيا، نسي أن الفلاحين هم الذين قتلوا أباه بسحق خصيته (لئلا يتكروا آثاراً على جسده) وتركوه ليموت.

ربما أصحح الدين من الوحشية والافتق الضيق لكن الفلاح الروسي ليس مندبناً بظبعه، برغم ما قاله ديستوفسكي فيه. يقول المؤرخ كوستاماروف: «لا نجد في المملكة المسيحية أرضاً أقل من روسيا ميلاً للحركات الدينية وأقل استعداداً لها ذلك أن هذه الحركات لا تتسجم مع الطبع البارد للروسين في

(٧) الموجيك: الفلاح الروسي.

هكذا أمور، وفي تاريخنا شواهد كثيرة على ذلك. فنحن لا نسمع إلا الشكوى من اختلال عقل العاملين في الكنيسة، فضلاً عن لامبالاهم... وآخر ما يتوقعه المرء هو أن تسود اللامبالاة الدينية والانشقاق بين من يملكون زمام القيادة في الكنيسة<sup>(١)</sup>. أشار مشابوف في كتابه عن الانشقاق الروسي أيضاً بقوله: «لقد بلغت اللامبالاة الروسية حيال الدين حداً اضطر معه القيصران (ميثيل) و (اليكسز) على إجبار الناس على الذهاب الى الكنيسة بمرسوم قضائي».

كما شهد كتاب آخرون باللامبالاة الروسية حيال الدين. فلروسيا اديرتها وأماكن حجها ورجالها المقدسين، لكن اهتمام الفلاح الروسي البسيط بالدين لا يعلو بمشغال ذرة مقدار اهتمامه بالرياضيات.

لم يشغل الجو الديني في فيرخوتز حيز الاهتمام لدى راسبوتين، فولده كان قارئاً للكتب المقدسة. بل انها الصراحة والصدقة والذكاء التي لم يكن قد عاشها من قبل وما هي الآن تسرق له.

إن كلمة (اللامتحي) ليست بالمفردة الأمثل لوصف طباع راسبوتين. فسوقها اتيا يصح على ضعيف الشخصية وعلى من هو عاجز عن التعاضد مع الآخرين وكذلك على من يفدو تحت ظروف معينة وهذا لا يقل حقايرة عن السدين يراهم هو وتحت ظروف أخرى أوفاداً. أما راسبوتين فما كان قط انطوائياً، بل ان قدرته على التعبير الذاتي لم تجدها منتفخاً في قريته. وهنا اقترح (روبرت مرسيل) مفردة أخرى تتجلى أكثر ملاءمة لمنطق الرجال أمثال راسبوتين الا وهي «امكاني». فحياة الانسان تقتضي القبول بمسلمات معينة، وحتى أشد الشوار غمرداً سيضع لحياته القبول والتوازن ركنين اساسيين. فإن تعاضمت ثالوته

(١) ذكرت في (المنشقين الروس للمؤلف فريدريك. سي. كوتشيبيرياسات هارفارد النظرية ١٩١٢).

أمسى أكثر حاجة لركيزة صلبة يقوم عليها في هدي عمله. وان تجرد من مثل هكذا دهامة فهو لا يعدو أن يكون سفايحاً. بيد أن بعداً آخر للمسألة لما يزل أمامنا. فكثير من بني البشر قد أحسنوا تكيفاً للمجتمع الذين هم فيه وقبلوا العالم كما وجدوه، ونمط حياتهم ليس بحاجة الا للتر البسيط من ذلك التكيف. وهم لا يجدون في البحث في احتماليات الحياة صلتهم فانتسبوا لذلك لصف الأعياء والمتوحشين من بني الأرض.

لقد ترعرع راسبوتين وسط أمثال ذلك الجمع من الناس ووجد في فيرخوتز وحيماً له، حتى غدا بين عشية وضحاها «امكانياً» ومعه أضفى هذا الرفض المبهم سؤالاً ملحاً كان فاتحة رغبة عارمة لسلخ كامل لشخصيته القديمة.

بيد أن كثيراً من تلك الشخصية ما انفكت تلازمه بعد مكوثه الأول في فيرخوتز. اذ سرعان ما توطد مع الشرطة نتيجة اختفاء أحد جياذ العربة التي يعمل عليها بعد مغادرته الدير بوقت قصير. وأثناء التحقيق وجدت الشرطة لديه بعد التفتيش واحداً وعشرين روبلاً وهو مبلغ كبير لياق في سن السادسة عشرة. لقد أوضح راسبوتين الأمر للشرطة بقوله أن المال الذي بحوزته هو هدية الدير اليه وأن الجواذ قد فلت من طوله ليلاً وانزلق في نهر عميق وغرق. فاعفي من التهمة المنسوبة اليه لعدم كفاية الأدلة.

لكن الحظ غادره في واقعة ثالثة عندما سرقوا من عريته حمل قراء وادعى أن قطاع طرق هاجموه وسرقوا منه القراء، حتى تجل بعد التحقيق أن السرقة تمت عندما ترك راسبوتين عريته في فترة القيلولة. وعليه حكموه بالجلد والحبس فترة قصيرة. كان هذا في مدينة توبولسك في الرابع عشر من شباط عام ١٨٩١.

(١) الطول: حبل يشد الى وتد ويطول للذابة فترعى مقيدة به.

حضر راسبوتين لما بلغ التاسع عشرة احتفالاً دينياً في دير (ابالاسك) قرب بوكروفسكو. فهو ممن يستمعون بالاحتفالات الدينية وأمضى طيلة حياته محباً للرقص والغناء. وقد روى زواره في شارع بطرسبورغ أنهم تفوهه أنه كان يشرح أثناء حديثه في الدين وحقاً يطلق بالغناء وبعدها بالرقص. وربما التقى راسبوتين (براسكوفي فيلوروفسنا دوبروفين) عندما كان يرقص في دير (ابالاسك). وبراسكوفي فتاة من القرية المجاورة شغراء ونجيفة القوام وكانت تكبره بربع سنوات. ويرى أحد الكتاب أن راسبوتين قرر الزواج منها لأنها رفضت أن تنبه نفسها وهذا رأي لا ينجم وشخصية راسبوتين. أما الاحتمال الأوفر حظاً فهو أن شخصية الفتاة كانت نقيضاً تماماً لشخصيته فوجد فيها الزوجة المثالية. وعلى العموم، تصف فتيات الريف الرومي بالبدانة والسمنة، أما هي فكانت شغراء ونجيفة القوام وشديدة الإعجاب بزوجها وذات شخصية طيبة. وسواء أكانت قد بعثت نفسها له - وعلى الأغلب أنها فعلت ذلك - أم لا، فقد أحس راسبوتين أنها ليست من اللاتي يسهل هجرهن فتزوجها عام 1890 - لي أرجع تقدير -

لم يصف الزوج بانيء الأمر شيئاً جديداً على شخصية راسبوتين فيما أتاح له عمله كسائق عربة الائتواء بكثير من فتيات القرية. كما بدأ يمضي وقتاً أطول في شرب الخمر يصبحية اثنين من أقرب أصدقائه وهما (بجركين) وآخر يستأجر يدعى (بارتالي) الذي أصبح فيما بعد ويفضل نفوذ راسبوتين اسقفاً لتوبولسك. لم يكن راسبوتين مدمناً على الخمر، لكن حيويته المفرطة كانت بحاجة لنوع من التعمير الذاتي. لقد نقلت زوجته مغامراته التالفة باستسلام وطواعية وهو يقول قد يعزى سبه يقينها العميق أنه لن يهجرها لامرأة أخرى. فهي سبعة بيت رائعة استطاعت، بزمن قياسي، إدارة شؤون المزرعة بمساعدة والده الذي سر ناظره

وجود امرأة في المنزل مرة أخرى سبباً وأنه عجل في الشيب والقرط في الشرب.

شهدت أواخر عام 1890 حدثاً غير مجرى حياة راسبوتين. فقد أصبح أباً لطفل سلب له ووجهه حثائه الابوي التي استطاع ذلك. غير أن الرضيع مات بعد شهره السادس تاركاً الأب مكر الجوانح وعظم القلب. لقد عاش راسبوتين مأساة القرافي مسبقاً، لكنه لم يتدقق آنذاك المرارة التي تلذوها مع تحيل نجله لأنها جاءت وببساطة في حياقة طفولة سعيدة. كان وقع هذه الرزية أثقل وطأه أرواحه أن يتخبط في مصير قد يكون مجهولاً كمصير والده، وراح يتساءل إن كان الحدث إيحاء الهية (وما يجعلنا نقول هكذا أنه قرر الذهاب فوراً إلى التاسك صاكاري ليسأله عن معنى الموت) فأهداه الكاهن الطمأنينة وأعادته إلى بيته. بيد أن الفلق ما برح يلازمه وأمضى ذلك الشتاء ببرد مكثراً على قراءة المخطوطات الهندسة وشرح بصللي واكعباً على ركبته ساعات طوال. ها هنا أدرك القرويون شخصيته الجديدة وغالباً ما تحدثوا إليه حول زيارته للدير. من هنا نال سمعة (الباحث عن الرب) وهو ما أثار حفيظة قس القرية (الاب بيتر) سبباً وأن الناس قد أخذوا يسمعون حول بيته وشرح يتلوا عليهم المخطوطات المقدسة فقال له النفس أنه يستفح سببلاً جديدة للمخطبة. لقد خبر القس راسبوتين منذ سنوات عديدة كان يراه فيها ناقماً وماجناً وأي شيء سيقعله ذكر (فبرخونور) ليغير من شكوكية القس حياله، فهي ليست سوى معقلاً للمخيلبة التي لا تحلو شعائرها لها كان شائعاً آنذاك، من اللهو والعريضة الجنسية. وهذا شك يعني أن راسبوتين لن يتخذ الدين إلا مسلكاً لاغواء بنات القرية. غير أن الأب بيتر لم يجرى برغم ذلك - سائتاً. ثم حدث في ربيع تلك السنة شيء عجيب، لقد رأى راسبوتين وهو يجرث أرضه صورة العذارى معلقة في السماء وتومي إليه بيدها، فوضع صليباً حيث رآها ورجع يغير أهله بما رأى، وقال لها لم تكن تزودي للملابس

التي اعتاد أن يراها عليها في الايقونات واحس أنها كانت تحاول الحديث اليه .  
لقد ترك الحديث في زوجته أثراً فنياً لم يكن له وقع على أبيه الذي قال (ان  
غريغوري بات رسالاً في سبيل الله بفضل كسله) ، فقرر راسبوتين الذهاب  
واستشارة ماكارى ثابيه .

لم يكن جوهر الموضوع تلك الرويا التي قد تكون مجرد هلوسة ، فهو قد  
قضى الشتاء بطوله يصلي وينهل من الدين ثقافة وهو رجل قوي الاحصاب  
عظيم العاطفة وذو قدرة على أن يخلق المتعة لمن أراد أو أن يحيل الجو حزناً متى  
شاء . لقد أخطاه نهجه في الحياة ف شعر بالحاجة للانقلاب الجذري وهكذا بدأ  
يبحث عن حجة ليهاجر بيته . كما آمن أيضاً أن الرويا ، برغم شكوكنا حول  
صحتها أو انها حيلة اصطناعه فيها عقله اللاواعي ، هي ايامة من السماء . ويبدو  
أن الكاهن ماسكارى شاطره الرأي اذ أخبره «أن الرب قد اختارك لخدف جليل  
فأذهب وصلي للمعذراء في دير (أفون) لتشد من عزم قواك الروحية» . عاد  
راسبوتين ليخبر زوجته أنه قرر السفر في حج .

هكذا بدأ راسبوتين في يوم ما من عام ١٨٩١ بمعية صديقه (بيجرين)  
رحلة الالقي من ميل صوب اليونان ، وفيها ارتدى كلالهما ملابس الحج وكاتا  
بطرقان أبواب أنواخ الفلاحين ليلاً يسألان عن ركن في فناء الكوخ يسلمخا الليل  
نبيه وظلا هكلما لثلاثة أشهر في أقل تقدير- وهي فترة الرحلة- . كان انطباع  
راسبوتين الاول عن جبل (أثوس) باعثاً للأمل وكانت المجموعة التي تقطن دير  
(أفون) من أقدم المجاميع الزهدية في أوروبا وقتونها شديد القسوة وهذا ما حدا  
بصديقه بيجرلين أن يغدو متصوفاً في الحال . فيما أسعفت راسبوتين تجربته في  
دير فيرخوتور فكان أكثر حيلة من رقيقه . لقد خدمه حذوه ، إذ سرعان ما  
اكتشف فضيحة أخلاقية داخل الدير قلبت واقع الحال لديه عاليه سافله كانت

لدهلق- في أغلب العن- بعلاقات لوطية بين الرهبان طالما أن النساء محرم عليهن  
الوصول جيبيل أثوس . وعليه قرر راسبوتين وقد قطع صوب الجنوب دحراً أن  
يشجه الى الأرض المقدسة التي ينطوي الوصول اليها ركوب رحلة لا تقل  
مسافتها عن الف ميل عبر الاراضي التركية .

لم تقع بين ايدينا لشديد الامف تفاصيل اول زيارته لسوريا والأردن .  
لكن زيارة لاحقة له عام ١٩١٢ تركت لنا العديد من الملاحظات تتجلى من  
علاقتها بصيات زيارة الحج عليه . لقد كتب راسبوتين :-

يا لوقع كالكوثا . في معبد القيامة تشمخ ملكة التعيم وثمة صرح أجوف  
تطلعت منه والدة الرب صوب تل كلكوثا تذرّف الدموع حين سمروا ملكنا  
على الصليب . واتك اذا نظرت الى الموقع لأمرت عينك دموعاً وكان المشهد  
أهد يدور أمام ناظريك تارة أخرى .

يا رب! اي صنع قد اقترفوا! لقد هبوا جسده وألقوه أرضاً . أي حزن  
تستشعر وأي عويل تسمع وأنت في المكان الذي أنزلوا عليه الجسد . يا  
الهي . . . لم حدث الذي حدث؟ لقد كان في عذابك خلاصاً لنا فهل جئنا من  
الائم المزيد!

كتب راسبوتين تلك الملاحظات وهو يدرك منا كتب وقد عثر عليها بعد  
رحيله . وهي ملاحظات واقعية تماماً لا يشوبها اي تزويق وهي دلالة ايضاً أن  
راسبوتين برغم حدة ذكائه وقوة أعصابه ليس الاقروياً عادياً مؤمناً بالخرافات  
وذا قدرة على التعبير (لقد حبطت الرحمة الالهية على عمود قدوم اليه تركي وبعث  
عليه وعرضه بأسنانه فنادا به لاصقاً على العمود فجعل منه الرب آية للعالمين أن  
هذا عاقبة الكافرين) .



عاد راسبوتين أدراجة لقرينته ومباراً في طريق العودة به ( كازان ) حيث شاهد في كاتدرائيتها صورة العذراء مرتدة الملابس ذاتها التي رآها فيها في الرواية فظن بها أن الحج كانت مطلب السماء منه . (لقد أهدته زوجة القيصر فيها بعد إبشونة لعذراء كازان ليحتفي دوماً بذكرى الرواية).

استغرقت رحلة راسبوتين أكثر من ستين تغيرت فيها ملامحه كثيراً لدرجة أن فشلت حتى زوجته في التعرف اليه أول وهلة . كما قرر راسبوتين أن يفاجأها بأن تظاهر أنه تاجر جوال، غير أن عينييه وصوته فضحا سره . عم خير وصوله القرية فخرج أهليها للحديث الى ( الحجاج ) الذي بدأ أن رحلاته في الأرض المقدسة قد أكسبته ثلثى القدامة . إذ قطع في غضون ستين أكثر من عشرة الاف ميل وهو أمر لم يعشده سكان القرية الذين ما غادروا حدود قرينتهم قط . انهم لمسوا فيه تغييره هذا . لقد كان دوماً مسوعاً في حديثه وفاهية أن يجعل في أداته صدى . أما الآن فقد كسب عيناه نظرة ثاقبة زرعت في الناس الريبة أنه انها يقرأ دواخلهم . وقد أكد تلك الحقيقة كل من التقاه ، فيما ذكرت ابنة أن أباهما كان قادراً أن يسمع الحزن أو الغبطة عند المقابل أتى شاء ذلك . ليس هذا فحسب بل انه اكتشف في ذاته قدرة على التنويم المغناطيسي بجانب القدرة على القراءة وهما خصلتان مضافتان حدثتا ، مع باقي خصاله الاخرى ، بفلامي فربته أن يكونوا أول تابعيه لاهـ - أولاً وقبل كل شيء - قد نشأ وترعرع بينهم وهم الأدرى بمغامراته الجنسية وفترة التي أمضاها في السجن .

لم يزالوا راسبوتين الزراعة بعد عودته الثانية وأقام له بدلاً من ذلك مصل وأخذ يضي على ركبته لساعات طوال يومياً ، لكنه لم يصبح راهباً بمعنى الراهبة الحقيقي . وأثناء غيابها ، أنجبت له زوجته طفلاً (عائى من توبات صرع) وهي حامل الآن بابنته الكبرى (ماريا) ثم أنجبت له بعد ستين ابنة اخرى .

شرح راسبوتين بعدد جلسات الصلاة في منزله عما ان يجيم الظلام وقد سمع الأب بيتر بهذا الأمر فتنامت شكوته حول علينية راسبوتين . فهو لم يجد لحراس القرويين مبرراً . بيد أن حضور جلسائه ضم الرجال والنساء وهو ما قطع دابر الشك أن راسبوتين كان يستوظف سمته كرجل دين لاغواء النساء . إلا أن حضور الرجال كان يعني أيضاً أن الجميع قد اشترك في شعائر اللهو والعريضة سراً على المذهب الخليستي ، وعليه تقدم الاب بيتر بشكوى لأقف توبولسك مدعياً فيها أن راسبوتين هو أحد أعضاء الخليستية .

#### الاشفاق الرومي :-

التقى راسبوتين خلال ترحاله في ربوع روسيا بطوائف هرطقية (بدعية) ذات أصول روسية . وعليه فإن من الأهمية بمكان الحديث عنها لفهم روسيا راسبوتين وكذلك روسيا آخر القياصرة .

كنت قد ذكرت في غير هذا الموضع أن الفلاح الرومي لم يكن بالفطرة دينياً غير أنه لحديث ديستوشكي عن (علاقة الوب بالانسان الرومي) الذي هو مجرد تكبير تأملي . كان هذا واقع الحمال حتى القرن السابع عشر حين أشعل البطريرك (نيكون) فتيل التنعصب النائم في الشخصية الروسية ومفتحاً بذلك بداية تاريخ الاشفاق الرومي الذي لم تكن تسبجته حركة دينية كحركتي (الكويكرز او الصحابيون) و (البيديون او المنهجيون) ، بل انه أسفر عن حركة أدت في مقارنتها الى حركة جمهورية ايرلندا التي تراكمت في سني اراقة الدماء والعوس في عشرينات هذا القرن .

كان (نيكون موروفوف) فلاحاً كنساسبوتين تحول الى رجل دين عقب وفاة اولاده الثلاثة وتعرف الى القصر (الكسيز) أثناء زيارته لموسكو عام ١٦٤٥ ، ثم

بات الرجل الأول والأقوى في الدولة الروسية. وعين بطريكاً عام ١٦٥٢ وعمل أثناء انشغال القيصر بحروب خارجية كوصي على العرش وحكم روسيا.

تميز نيكولون بتعصبه وجبروته وقرر اجراء اصلاحات عديدة بالقوة على الكنيسة الروسية التي عانت آنذاك من الازمة والتي كان لقبها بين الجموع مكاناً متردياً أعطى لسكان القرية الحق أن يأمره بما شاءوا. وعليه عامل نيكولون القسوة بقلب غليظ وطلب منهم التجيل له وطاعته واذا ما ظن أنهم أهملوا في واجباتهم أمر بتعذيبهم وسجنهم. كما قرر إعادة النظر في خدمة الكنيسة الروسية وفي كتاب صلاتها وكان هذا مجرد سقافة. نذكر منها أنه أمر بتغيير طقيف في نهجة (المسيح) وأصدر مرسوماً يقضي بإشارة المؤمنين بالصليب على صدورهم بثلاثة أصابع بدلاً من أصبعين، بالإضافة الى تغييرات عشوائية اخرى في كتب الصلاة بأن غير كلمة (المعبد) الى (كنيسة) والعكس صحيح.

لم تكن التغييرات التي اقترحها مسبباً لولادة المقاومة الكبرى ضده، بل لأنهم مقتنوا أن يتأسد عليهم من كان يوماً ضحية. وقد أطلق المعارضون له على أنفسهم لقب (المؤمنون القدامى). وبعد اثني عشر عاماً، فقد نيكولون وبسبب سلطوته تلك تقدير القيصر له والذي استدعى (افاكيموف) - ألد أعداءه نيكولون - من منفاه في سيبيريا ليأخذ مكانه. إلا أن مكسباً لم يصب المؤمنون القدامى من هذا التغيير فاستمر الصراع تتفاقم مآسيه بقية سنوات القرن وانتشر كثير من المؤمنين القدامى كان انتحار بعضهم في أحيان معينة جماعياً برمي أنفسهم في أتون نار سميرة (وبمثل هذا المشهد تنتهي أوبرا «ميسورجسكي» المسماة «فانتاشينا»).

تمحض عن هذا الصراع الدامي نزوات عنيفة لم تكن بالضرورة نزوات دينية. لقد تداخل حابل الدين بتأويل السياسة في روسيا، فبات أقرب الى

انحلترا تلك الحقية. ومع هذا ما زال الموت والاعداد الجماعيين والقسوة الشديدة جائزة على صدر روسيا ولدت معها معتقدات لم تكن موجودة في سابق عهدها. من هنا باتت الأرض الروسية بلاداً يشكل فيها الدين قضية أساسية وذات شكل واحد من المسيحية في الوقت عينه الذي كانت فيه الارثوذكسية اليونانية القديمة هي الشائعة. واذاً، فقد ولد الاثتقاق في الكنيسة الروسية أثرأ لا يقل بشيء عن أثر الاصلاح في اوروپا، وظهرت بين عشية وضحاها طوائف كانت من بينها طائفتان شديدتي الارتباط ببعضهما البعض وهما الخليلية والسكرتيزية أو (التسوطون) و (المشوهون).

لقد شيع أن الخليلية قد نشأت قبل عام ١٣٦٣ بوقت طويل، وهذا احتمال قائم. لكن الاثتقاق الكنسي الجديد قد أعطاها زهماً شديداً. وثمة نقاط شبه بينها وبين الطائفة المانوية القديمة التي تقسم العالم الى قسمين هما الروح والجسد، وتؤمن أن الروح هي الخير وأن الجسد يمثل منبع الشر. إلا أن أكثر خصائصها أهمية اعتقادها أن المسيح يبقى يعود الى الأرض كاتسان وهي تفهم (بعث المسيح) أن يبقى جسد المسيح في لحده بينما تسكن روحه جسداً آخر وتظل تنقل من جسد لآخر على مدى القرون. وكان (افيرزهان) واحداً من اولئك (المسيح) الذين عادوا للأرض وقد صلبه (ديميتري دوفسكوي) في ساحة معركة كوليكوفو<sup>(١)</sup> عام ١٣٨٠. أما (المسيح) الآخر فكان (يملجان) الذي قاسى العذاب تحت سيطرة (افغان المرعي) استناداً الى ما جاء في كتاب (كارل جراس) الموسوم بـ (الطوائف الروسية). لكن أهم (مسيح) جاء هو (دانيال فيليوف) الذي كان لدة نيكولون، فهو فلاح من قرية كوستوموزا، ترك الجيش وساند قضية (المؤمنون

(١) المانوية: طائفة دينية أسسها (مان) الفارسي (٢٢١٦ - ٢٢٧٦ م) وهي تدعو الى الأيمان بعقيدة وثنية قوامها الصراع بين النور والظلام.

(٢) معركة كوليكوفو: هي معركة هاستنجر والتي حزم فيها ديميتري المنغوليون.



القدامى). وعظت عليه أحد الأيام «روح الله» عندما كان واقفاً على تل  
(كنولودينا) في (قولوست سثاروديوب) في (فلاديمير) على هيئة الآله (زيانوث)  
ففة موكب ملائكي ودخل جسد فيلويوف. تطلق الخليستية على ذلك يد  
(الخلول الثاني) وتؤرخه بعام ١٦٤٥ (وهذا، استناداً الى فردريك كوينبير)،  
بتناقض والاعتقاد أن دانيال كان أحد (المؤمنون القدامى)).

استهل دانيال دعواته التبشيرية في قرية (ستارايا) التي لها في الموروث  
الخليستي أهمية لا تقل عن منزلة (المدينة) في الدين المحمدي<sup>(١)</sup>. ثم انتقل الى  
كوستروما التي هي (مكة) الخليستية. وهناك أخرج اتجيلة الموسم بلاكتاب  
دوف) الذي يوعظ فيه أن الزواج وشرب الخمر والقسم محرمان على الرجال  
وأن عليهم البحث ويزاه الشهادة. فإذا كان من بين أتباعه متزوجاً فعليه أن يهجر  
زوجته وأن يسمي أطفاله (ذنوياً) وأحل له أن يتخذ بدلاً عنها (زوجة روحية)  
عضواً في الطائفة الخليستية أي زوجة ينم معها على نفس فراش زوجته السابقة  
دون أن تكون بينها علاقة جنسية.

يبدو واضحاً التشابه الموجود بين هذه الطائفة مع الطائفتين الهندوسية  
والمناوية. فهي تؤمن كالمناوية بالتجسيد المستمر للرب أو في (افانانس)  
تؤمن كالمناوية أن الجسد منبع الشر (بعد المناويون جرائم القتل أو الانتحار غير  
قانونية، لكنهم يعتبرون أيضاً من أصابه منهم مريض محظوظاً فيحاولوا عندئذ  
مساعدته بالتجويد والاممال).

إن أكثر القصص تردداً عند الخليستية هي تلك المتعلقة بطرائقهم في

(١) الدين المحمدي: هكذا أوردها المؤلف برغم معرفته أن ليس في الإسلام عبارة (الدين  
المحمدي).

التعبيد. فهي تقام بسرية تامة وفيها يرثدي المحفلون ملابس بيضاء ويرقصون  
حول شعلة نار أو حوض ماء مشغنين بترانيلهم. وقد قال بوسيفوف في  
سعاترهم:-

«يلغ اقتراد هذه الطائفة التجمع الالهي عبر أكثر الطقوس وحشية. فهي  
ليست سوى مزيج غير سوي من مبادئ الدين المسيحي مع الشعائر الوثنية  
والخرافات البدائية. وتجتمع جماعة المؤمنين منهم ليلاً في كوخ أو في غابة خالية  
الاشجار تضاه بمئات الشموع. أما هدف هذه (الراديني) أو المناسك فهو خلق  
نشوة دينية واحتياج جنسي. ثم تشكل جماعة المؤمنين بعد الانتهاء من قراءة  
الاشغال الديني والترانيل حلقة ما يأخذون بالثأيل وفق ايقاع معين ثم يدورون  
ويدهورون بسرعة متزايدة. ويحق لسيد هذه المراسيم جلد كل راقص يضعف  
لمشاعله من أجل (خلق حالة من الشعور بالدوار الضروري لحدوث (التدفق  
الالهي). وتنتهي (الراديني) بطقوس عديدة شبيحة... فالجميع يتلوى على  
الأرض في حالة نشوة أو تشنج مبشرين أن من تملكه الروح لا يملك نفسه بل  
هو يتسبب الى تلك الروح المهيمنة عليه والمسؤولة عن كل صنيع فعله أو اثم  
الفره. وأخيراً يحنتم المجتمعون شعائرهم باطفاء الشموع ويتجامع العباد بطريقة  
عالمياً ما تكون نتيجتها- وفق لما أورده أحد الكتاب- سفاح القربى».

لا يجب لنا الأخل بهذا التعليق برغم المتعة التي يجملها، فذلك أمور تحدث  
استثناء لكنها ليست بالعاغدة. أما وصف (كوينبير) فأقل إثارة من سابقه:-

«يرقص المحفلون حول حوض ماء ( يبدأ بالغليان ويتصاعد منه بخار  
دهي)، ويملك المحفلون بعضهم بعضاً بينما يرددون ترانيمهم ويطلق أغلبهم  
لرعات يقرضونها (الروح المقدسة). ويهلوس بعضهم ليعلم أن عذاباً غريباً

اسوته) أو أمأً ومطلقاً سيتصاعدان من بخار الحوض. وأخيراً ينهار الجمع بعد أن يستنزف أفراداه طاقاتهم ثم يخلدوا للنوم ساعات طوال. وهذه الطقوس غالباً ما تنفيضي إلى اللهو المعريد بحلول الظلام. وهكذا تستذكر (وليام سرجنت) ويشرح في كتابه (معركة من أجل العقل) بطقوس للطوائف الحديثة الخاصة بمعالجة الأفعى في أمريكا الجنوبية حين قال:

«يتجلى هبوط الشبح المقدس في تلك الاجتماعات المحظورة على البيض حضورها بحدوث الاثارة المسمورة والارتعاشات الجسدية ثم الازهاق النهائي فالانبياء. وتستحث مثل هذه الحالات الهستيرية عن طريق الغناء الايقاعي والتصفيق اليدوي والامساك بتعابرين سامية حقيقة... ويبلغ العديد من الزوار على نحو غير متوقع - حالة الانبياء والاضطراب الداخلي. ويحضر بين الجمع شاب ياقع له هدف مبيت هو اغواء فتيات تم (اتفاذهن) نواً. والحقيقة هي أن الكتب المتحفظ يفضي إلى انكسار في الشخصية السوية تاركاً العقل عرضة لأثرهاط جديدة في السلوكية. وتحوي الطائفة الخليستية دون ريب كماً هائلاً من مثل هذه الاشياء».

لو اتفقنا الرأي أن الخليستية ترجع في نشأتها إلى بواكير القرن الرابع عشر فهي إذاً فرع من صوفية قنوصوية تطورت في المانيا خلال النصف الأخير من القرون الوسطى، والتي هي في الأساس ثورة ضد عقلانية وزهد الكنيسة. ويطلق أتباعها على أنفسهم اسم (اخوان الروح الحرة) ويشيرون أن كل إنسان هو (الله) وأن كل حافز عنيف هو (وحي). فإذا ما تجامع رجل وامرأة في مذبح فيها ساجدان لله كما لو أنهما يصليان أو يأخذان (القربان المقدس). لقد أكلت روما قرنين من الزمن لقمع هذه العقيدة أن لجأت إلى القتل والتعذيب لأتباعها ودمها رشحت أصولها عندئذ إلى البلاد الروسية لأن في الشخصية الروسية حافزاً

صوفياً عنيفاً.

أما (الكوبتزية) فهي تطور عن الخليستية وجرى بنا الحديث عنها الآن لاكتحال خلقية صورة الاشمقاق الديني الروسي. لقد حكمت الخليستية على (مسيحية) الانسان على أساس قدرته على تحمل الألم الجسدي. فقد صلب دانيال فيلبسوف مرتين (استاداً إلى موروثها التقليدي)، فيما صلبوا ابنه وتخليفته (ايفان سوسلوف) ثلاث مرات (سواء بأمر اليكسز أو بأمر بطرس الكبير). وعذبوه بالحديد الحار حتى سلخوا منه جلده (نجحت هذه المرة عذراء في حمل جلده وسلمت اياه بعد قيامه من صلبه المرة الثالثة). توفي فيلوييوف سنة ١٧٠٠ وصعد جسده نحو السماء. أما سوسلوف الذي حمل لواء دعوة سلفه إلى موسكو وأقام حقه هناك بأن رفض البقاء ميتاً، فقد توفي بعد ثلاثة أعوام.

عرفت الخليستية بعد سبعين سنة سيدة جلييلة تدهى (اكولينا ايفانوفنا) والمعروفة باسم (أم الاله). أدركت هذه السيدة أن (المسيحية) تنوسم في رجل اسمه (ايفانوف) ويحمل باسم (كوندراكي سيليفانوف) وبنات هو مؤسس السكوبتزية. لقد ذهب سيليفانوف في تنسكه أبعد من الخليستية كثيراً معلناً أن على الرجال تخضية أنفسهم وعلى النساء قطع تهودهن (ان استطعن تحمل ذلك) وتشويه أعضاهن التناسلية. فأخصى نفسه بالحديد الحار في بواكير عقده الخامس أي بعد وقت قصير من اعتراف (أم الاله) به (ابنها الروحي). ثم ادعى أنه قد أخصى نفسه وعمره اربعة عشر عاماً وهو ادعاء وفضه حتى أتباعه... في ذلك الوقت كان من يتربع على عرش روسيا (كاترين العظيمة) التي قتلت أو تأمرت على قتل زوجها (بيتر الثالث) وهذا ما أوقعها في مأزق كبير. إذ ادعى سيليفانوف انه بيتر الثالث تلاء (يوكاشيف) ولم يفصله عن النجاح في تمرده إلا عريظاً رقيباً أوقعه في الأسر واقتادوه إلى موسكو حيث نفذوا فيه حكم الاعدام

بوحشية بالغة بعد أن قطعوا أطرافه الأربعة وقسموا جسده جياً<sup>١٤</sup> وأخيراً تجح  
مغامر صربي سنة ١٧٦٨ في أن يجعل من نفسه بيتر الثالث وتولى حكم الامارة  
(مونتغرو) المعروفة الآن باسم يوغسلافيا.

لا يبدو أن ادعاء سيليفانوف انه بيتر الثالث قد آلت الى ارتداد عفيف  
فاكتفوا به سجيناً ووضعوه في مصحة عقلية حتى أطلق (الكنتنر الاول) بترعه  
العرش سراحه عام ١٨٠١ بعد أن كون (أي سيليفانوف) لفضه من رجال المال  
والثروة جمعاً غفيراً أحضروه أن يعلن دينة جهاراً. كما ألف سيليفانوف كتابه  
(الرقية) الذي تلقفه القراء دون آناة، وأخصى بيديه مئات البالغين وهنا وفي  
هذا الوقت تحديداً غير اسمه من (ايفانوف) الى (سيليفانوف). واصل بعدها  
ادعاءه أنه بيتر الثالث وحمل أتباعه عملة نقش عليها صورة الملك (قد تشبه  
صورة سيليفانوف) واحتفظ الكثيرون بصورة الأمير لظنهم اياها ابقوة فالقوا  
صلاهم امامها. توفي سيليفانوف سنة ١٨٣٠ عن عمر تجاوز المائة عام وبعد أن  
قضى سنواته العشر الأخيرة معتقلاً في دير (سوزداك) دون أن يجد ذلك من  
أتباعه الذين اتخذوا من البير مكاناً يمجون اليه. لقد آمن أتباعه الذين بقي منهم  
الالاف بمسحي. ثورة اكتوبر أنه سبقوم ثانياً بجوار (ايركسك) حيث بلغ عدد  
تابعيه نحواً من (١٤٤٠٠٠) شخص ليفتح بقيامه يوم القيامة. هذا العدد يتول  
يجمعه نساء ورجال أما العطل الذي ولد لهذه الطائفة فينشا وهو يعلم مسبقاً أنه  
سيخصى ببلوغه سن الرشد وأن مصير من يحاول الهرب هو القتل. وقطع  
العضو التناسلي للنساء ليس اجباراً - كما ورد ذلك على لسان (كوبنر) - وقد  
يكتفون بإزالة الحلمة فقط.

(١٤) روى (بوشكين) قصة هذا التمرد ووصفها أيضاً في روايته القصيرة (بنية الكاترين) عمل فيها  
بريرة العقاب لشامة ووحشية يوكاشيف وتلاميذه الذين كثيراً ما عذبوا عوائل مالكي الأرض  
حتى الموت.

أورد (ساشفول) في روايته (وهلة روسانية) حديثاً مثالياً عن السكوبتزية  
وقع في العام ١٨٦٨ في مدينة نومسوف ويشعلن بتاجر ثري من مدينة  
(مورشانسك) اسمه (بلوتستين). (كان الاعقاد السائد آنذاك لدى الأغلبية أن  
سيليفانوف ما زال حياً برغم مرور (٣٨) سنة على وفاته). ألفت الشرطة القبض  
على بعض خدم بلوتستين لعدم دفعهم الضرائب. لكن مبيدهم لم يألوا جهداً  
لاطلاق سراحهم وهو ما أثار شكوكية الشرطة التي طلبت تفشيش منزله. وفيه  
وجدوا مستعمرة ضمت ما يربو على أربعين سكوبتزية وصفت معظمهم بـ  
(الفتيات القانتات). فيما غلبت الليونة الرجال الذين بنوا لاجسادهم وركأ  
كورك النساء. ولا تتميز تساهم اللواتي أجريهن العملية عن رجالهم. لقد  
حاكمت الشرطة الجميع وأرسلتهم معتقلين الى سيريا.

قد يستشف القاريء أول وهلة أن السكوبتزية طاهرة الذليل من هم  
العزيدات الجنسية التي أخذت عليها. بيد أن الحقيقة ليست فيما يشاع من قول.  
قباالنساء شوهن أعضاءهن التناسلية بشكل ظاهري جعل منهن يعتقد بانعامات  
هوئى يحصلن مقابل هذا الكثر المشاع على المال الوفير. وأجرى كثير من الرجال  
عملية التخضية بأنفسهم على أنفسهم وأوقفوا قبل تمامها. ويعترف أعضاء هذه  
الجموعة باسم (الحتم الادنى) تمييزاً لهم عن أعضاء الفئة الأخرى من  
السكوبتزية التامة الجنسي والمعروفين باسم (الحتم الأعظم). وهكذا أمسى  
الاحتمال قائماً بصلوع السكوبتزية في العريضة الجنسية<sup>١٥</sup>.

ليست الخليلية والسكوبتزية بالطائفتين الوحيدتين الغريبتين اللتين اتفاهما  
واسبوتين خلال رحلاته في ربوع روسيا. فثمة طائفة أخرى هي (المداعبون او

(١٥) جاء هذا في كتاب (النار المقدسة) مؤلفه (ب. ز. كولديبرج) - مطبوعات الكتب الجامعية:  
نيويورك.

النكلو) وفيها يدغدغ الرجال النساء بهدف أحداث نشوة دينية قد تسبب أحياناً حالة إجهاد قصوى تنتهي بالموت. ويعد من مات في حال كهذا عظوظاً لأنه بلغ (الخلاص). وهنا يذكر (ب. ز. كولديبيرج) العديد من الطوائف التي تنفست فيها حالات الانتحار والتي يبدو أنها ذات صلة بالسكوبتزية. فقد أسس - إيان حكم الكسندر الثاني - (شروكين) فرقة مماثلة وقاد أتباعه إلى كهف حيث بدأوا عملية التشويه. فأصاب الدهر امرأتين وانهارتا قبل إتمام العملية، بعدها نادى شوذين على أتباعه أن يقتل أحدهما الآخر قبل وصول الشرطة. بدأوا بقتل الاطفال أولاً ثم النساء ولم تعمد الشرطة حين وصولها سوى شوذين واثنين من أتباعه أحياء. قد تبدو هذه الأفاصيص متناقضة والرأي المزعوم أن الروسي غير مستدين بالفطرة. لكنها في واقع الأمر ليست سوى واحدة من المفارقات التي تزخر بها الشخصية الروسية.

ولا يبدو أن الفلاح الروسي الذي جسده (تشيخوف وكوركي وسولوكيب) بقادر على الإيمان العميق - شأنه في هذا شأن الفلاح النورمندي<sup>(1)</sup> الذي جسده (موباسان)<sup>(2)</sup> حتى ليشاء المرء أن جميع دوافعهم قد ملكتها المادة. وهذا هو السبب الذي يكمن وراء تصديقهم بالمذاهب المتطرفة. فروحيتههم

(1) نورمان Normands : أهل الشمال. اسم أطلق على غزاة الفايكنغ القادمين بالبحر من سكاتدينانيا والذين تدفقوا على أوروبا منذ القرن الثامن. احتل منهم السويدون وادي دنيبر وسمولوك وكيف. بلغوا القسطنطينية في القرن التاسع. استعمر النرومجيون شمال اسكتلندا وأيرلندا. واستقر الدانماركيون في شمال شرق إنجلترا. ثم انتظموا على شكل عصابات من الغرامسة وشكلوا اساطيل مبعثرة من زوارق كثيرة. نسلوا من مداخل الأنهر إلى مملكة الأفرنج. وبموجب معاهدة ٩١١ نقل لهم (شارل الثالث) من المقاطعة التي حملت اسمهم (نورمانديا) في شمال غربي فرنسا على الأطلاق. اعتنقوا المسيحية واهتفوا بسلطة شارل الثالث ثم فتحوا إنجلترا في القرن الحادي عشر.

(2) موباسان (غي دو) Maupassant : (١٨٥٠ - ١٨٩٣). أديب فرنسي له روايات واقعية تصف حياة الفرويين منها (كرة اللحم) و (الامة فيني).

ليست سوى رد فعل عنيف لضيق أفق حياتهم.

وراسبوتين واحد من هذه المفارقات. فاعتقاده الديني كان كاملاً ومخلصاً ومع هذا نجد روحيته تتناقض مع الروحية الروسية التقليدية. فهي لا تملك النشوة للاستسلام ولا الرغبة الجارفة للاستشهاد والتي كانت آنذاك الفكرة السائدة لدى القديس الروسي بدءاً من نيودوسوز. لقد آمن بمملكة الروح تمام الايمان لكنه لم يهجر العالم وهذا أمر يصعب على الغربي فهمه لأنه يضع العالم والروح في مقصورتين مختلفتين. فهنا يقف (روبرت بيرنر) بينما يقف على الجانب الآخر القديس فرانسز من «اميس» (في ايطاليا) يتوسطهما الغربي غير مصدق ان الاثنين سيحتلان جسداً واحداً. أما فهم راسبوتين فيستند شرطاً على الاعتراف انه يملك عناصر كلا الطرفين ولن يجد صعوبة في الجمع بينهما.

### تعليق:-

قد تؤكد الملاحظات التالية التي اوردها (جوهانز تول) في كتابه (الموت الاسود) الافتراض ان الخليستية ربما نشأت عن « اخوان الروح الحرة »:-

تمثل الراحة النفسية الوضيعة، في الكنائس الفرنسية، المشاهد الجنسية. فمشهد لوحة جصية في كاتدرائية (البي) تصور لوطيين في حالة اتصال جنسي. اذ كانت اللواطة منتشرة في أجزاء من ألمانيا أيضاً استناداً إلى سجلات محاكمات (البيكرواديين والبيكيتين) في القرن الرابع عشر لا سيما في اعترافات اخوان (جوهانز واليوت) من (بون) والمحفوظة في مخطوطات كريفسوالد. تشير هذه الاعترافات بالدليل القاطع الى أن طائفة (اخوان العقل الحر) لم تعتبر اللواطة أمراً

يهاقب عليه بتاتاً. فإذا ما رغب أحد الاخوان بممارسة اللواطه مع رجل آخر فلا حرج عليه من ذلك، بل هو لن يكون (اخاً) حقيقياً ان لم يفعل ذلك.

وتقرأ في مخطوطة (منشئة) (نسبة الى عاصمة) :-

« عندما يذهب أفراد هذه الطائفة للاعتراف وسياح المواظ، فان الواظ سيختار من بينهم أجهل فتاة ويفعل فيها ما يشاء ثم تطلق الأتوار ويقع بعضهم على بعض، رجل يختار رجلاً وامرأة تختار امرأة وكيفما اتفقوا. وتؤمن هذه الطائفة أن على الرجال أجمعين رؤية كيف تغتصب زوجته وابنته بأمر عينه لظنها أن لا أحد قادر على ارتكاب الاثم قبل أن يراه في خاصته.

وثمة مذاهب أخرى تبيح سفاح القرى حتى لو حدث ذلك في المذبح، وليس من حق أحد الاعتراض على حقيقة أن المسيح مارس الجنس، عندما قام من الموت، مع سرور الجدلية... وكل ذلك أدلة على فساد وانحلال الأفكار والخلق الناجم عن البلايا العظيمة سيما تلك التي حدثت عام ١٣٤٨. (يؤكد التراث الروسي ان اول ظهور لطائفة الخليستية في روسيا كان في ذلك العام البيض).

## الفصل الثاني

### «الجوال»

كانت دعوة (راسبوتين) ان الاثم ضروري للخلاص من أكثر القصص تداوله بين الكتب. هذه الدعوة نقلها ايضا (جورج سافنا) في كتابه (راسبوتين والحديث) الذي يقول فيه: «ان ما احدتكم به اتيا هو نقل صادق لكلمات غتمها شرح راسبوتين :-

اعظم من محمد في المسيح من اتباع الطائفة الخليستية هو (راديف) الذي اعترف قائلًا :- «كنت مدركًا تمامًا انني احرق شريعة الإنسان بيد التي اعلم ما اوحىني به الاله، وعليه فإن من رتت معي من النساء لأشد إرضاء للرب من سواهن اللاتي قاومن اغترائي. لقد تجمل الرب في واخذ جسدي وهو الذي ارتكب عطيئة الجسد فهو إذن من سيغفر الذنب. وسيقبل الرب توبة من حط من شأنه عبر خطيئته وانا اذلت اذنك النسوة اللاتي ضحين بظهارتهن من اجلي حتى لا يتعاليين بتفاهة عفتهن واي شيء يأتيك به الاثم سيجعل من العزة ذلة ومهانة».

التخذ راسبوتين امتدادا الى قول سافنا من هذا المبدأ مذهبا له :-

«قال القساوسة والرهبان تدفعهم غيرهم على سلطانهم انني تدوت

بالعبادة الإلهية لأقيم العريضة الشيطانية في الغابات. لقد أكدوا ان الفتيات (وهن شقيقاتي) قد استسلمن لمغازلي فأضرمن النيران من اغصان الأشجار ووقسن حولها مشغيات بالترتيل. انه وقد بلغت في قولي هذا الحد اصابوا الحفيظة، بيد انهم تناسوا صرختي في الجمع من فوق السن النيران :- «لتحظ خطاياكم من شأنكم اولم تجربوا اجسادكم وتقتلوا تباهيكم بما سببكم من خزي؟».

ويبدو ان روح راسبوتين قد نست أن له شقيقة واحدة وانها غرقت قبل بلوغه سن الرشد.

ان الإنجيل الذي بشر به راسبوتين في قريته بوكروفسو كان وبلا ريب، اقل اثاره من هذا. فليس هناك من مصدر واقعي موثوق به يذكر ان راسبوتين ايد انقاذ الروح من خلال الخطيئة. ومن الواضح ان مخترع حكاية العريذات الجنسية هو قس القرية الأب بيتر الذي قدم شكوى لأسقف توبولسك وطلب من الشرطة التحقيق في اجتماعات راسبوتين للصلاة. وتأكد بعض عملي الأسقف، الذي اعجب بشقوى راسبوتين، من صحة الشكوى ووجدوا مباديء ملعبه أحسن من أن يعلوها الشك. وشنت الشرطة ايضا غارتين مفاجتين على اجتماعاته تلك ساعة الى مياغة شعائر خليستية لكنها عادت خائبة الظن - ربما لان رجل الشرطة الخاص بالقرية كان احد المعجبين براسبوتين وكان يندره قبل ساعة الصفر.

لم يمكث راسبوتين في بوكروفسو اكثر من شهر قليلة في كل مرة يأتيها. وربما قضى فيها الشتاء بطوله ليحزم حقائبه ويشد ترعاله بحلول الربيع. لكننا لا نملك اية معلومات تفصيلية عما حدث في الأعوام بين سنة ١٨٩٤ (عندما قدم الأب بيتر شكواه) وسنة ١٩٠٠ - سوى ولادة ابنه ديمتري في عام ١٨٩٥

وابنته ماريا عام ١٨٩٨ وابنته الأخرى فافارا عام ١٩٠٠. استمر راسبوتين في طوافه ودعوته، وطرقت حكايات شهرته المتزايدة مسامع اهل بوكروفسو. كما بزغ نجمه بملكته في التنبؤ وقراسة نأى بها من محاولات الآخرين لخداعه وقدرة على شفاء الناس من عظمهم بوضع يديه على موطن الداء فحسب (سوف لتعرض قدرته هذه في فصل قادم). وعرف ايضا بكرمه فقد اهداه الكثيرون من اتباعه هدايا او نقودا او تحفا كان يمتحها في الحال للمحتاجين وكان يعث بهال لأهل بيته في قترات متظلمة. لقد استعد الكثيرون لإعتباره قدسيا، لكن الإشاعات ما انفكت تدور حول قابلية (الستارتيز) على اغواء اتباعه من النساء. فلو طرقت بابه لسباع مواظبه لأصابهن الازتيك أحيانا حين يضمهن الميثر لصدوره او يقترح عليهن نزع بعض ثيابهن. وتارة أخرى يعجز المرء أن يفقه قط بها سيحدث مع راسبوتين، فسلكه يتغير بين الفين والأخر لذا نراه يكبح شهوته ويصيح واعظا روحيا اذا ما بدا على بعض من يقابلهن يوازر عصبية. وهنا علفت امرأة أدركت كلا الجانبين من شخصية راسبوتين انها لا تدري ان كان راسبوتين قدسيا ام شيطانا.

وأرجح جواب لكلا الوصفين هو النبي، فطبيعة راسبوتين على طرفي الغيبيس مع طبيعة غيره من «الرجال المقدسين» الآخرين آنذاك أمثال الأسقف ليهوفان والراهب (ابليسودور) او الأب (جون) في «الكرونتادت». ان خصلة القديس الروسي هي الزهد، وعليه لا يتجلى راسبوتين في هذا الأمر روسياً قلباً وقالباً. فبرغم انه كان باعتراف الجميع نباتيا وغالبا ما صام وتجنب شرب الفودكا، إلا أن طبيعته كانت أقرب من ناحية اخرى لطبيعة القديس الهندوسي راماكريشنا او الشاعر الأمريكي (وايتمان) حيث نلاحظ جوانب وايتمانية في بوصيات سفره كوصف البحر لديه مثلا:-



أمر لي ان اصف هذا السكون الجليل؟ لقد تغطيت «أوديسا» على البحر  
الأسود وتلمست البحر وديعاً... وقاسته الحديث روحي وغفت بين موجاته  
الهادئة... فأدركت حينها ان للروح كما للبحر، قوة متلاشية الجلود...»

تأتي الصفحات التالية، لهذا الوصف، لعقل القاري، كتاب وايتان  
«الدفء البحر» او بعض صفحات نبثه في «هكذا تكلم زرادشت». اذ وقع  
راسبوتين في شباك قصور عقل الإنسان فهو يقول: «استيقظت روحي من  
خسرتها عندما بدأت امواج البحر تتلاطم... ها هنا يفقد الإنسان سبب صوابه  
ويعتني في جادة الضباب. ان للبر دواراً اشد من دوار البحر». وثمة نضجة وثنية  
جليه في يوميات سفره لكن من كتبها ليس دجالاً فهو قد ينحدر الى توافه  
الأمر لئلا يسهل من طراز الرجال الذين يحتفظون بيريقيهم في عيون الناس  
دوماً. هو أقدر على العيش وحيداً بل انه يطوف في زوايا نفسه اكثر وهو في  
خلوته. وسيطلق شعور صادق لنا امام شاعر حقيقي. وسيجلى ايضاً انه  
ويرغم من عمق تأثره بالإيقونات المسيحية والرمزية وثنيا او بتعبير أبسط انسان  
استغرق في الذات الإلهية فبات أشبه بالقديس الهندوسي (راماكريشنا) الذي  
نشكركه لئى قراءة ما ورد من تعليقات عن راسبوتين كتالين ابته هنا: «...»  
يفرق أمر بين الدين والمنفعة، فهو يبلغ ذروة نشاطه وحيوته النفسية في الملذات  
الوقفية واذا خاله الآخرون احرقوا او سخيلاً تسلل لروحه ابتهاج عفيف... لا  
يجوز بينه وبين وقد الصلاة في «روحه». وحتى (يوسوبوف) يصف، وهو الشاهد  
المعادى لراسبوتين، الحماسة والروح والإشهاج الذي يتأب راسبوتين وهو  
يتحدث عن «الملاحظات الدينية البسيطة»: ملك راسبوتين الغلة والظفرولية  
احياناً كثيرة، وكان موقفه من الآخرين وثقاً وموثراً، وقد عبر عن حماسه  
الدينية بالفناء والرقص وهو في هذا شبيهاً بلاماكريشنا). كتبت ابته قاتلة:

«كان مولعاً بالرقص كأغلب الروسيين... فهو سيناق معها لشعوره باليقظة  
مع أنغام الموسيقى ولا تنفصل الى حد بعيد نشوة الإيقاع في روحه عن الطرب  
الدهشي الذي كان قادراً على الإحساس به في الماضي». لقد كان مثبناً لأن فعاليتيه  
عبرت عن نفسها حياً وثقة لا لحاجته للإيقاع، لراماكريشنا وراماكريشنا كلاهما  
ان جمع المؤمنين سواسية وما اختلافهم إلا في طرائق عبادتهم للرب.

ان من الصعب علينا، ونحن نقراً عن الفترة التي امضاهما في شارع  
«راسبوتين»، التصديق انه لم يكن إلا ندلاً غمراً. فقد شهد شاهد أنه كان  
يستقبل طوابير المتضرعين، ويقدم اليه ذات مرة رجل ثري طالباً مساعدته في  
الحصول على امتياز لإنشاء عط سكة حديد وعارضها عليه رزمة ثقيلة من المال  
ففسها راسبوتين في جيبه دون حتى النظر اليها واعدا الرجل بالمعونة. ثم جاءت  
بعد ذلك الرجل امرأة فقدت حبلتها للعيش فسلمها راسبوتين الرزمة دون ان  
يخصها ايضاً والنقل الى المحتاج الآخر.

وان بلغ الحديث الجنس أصبح راسبوتين اقرب لوايتان منه الى  
راماكريشنا. فهو يراه كالرقص تعبيراً صحيحاً فعلاً. وهو يعكس معاصره  
الدراف، مؤلف مسرحية اتانيا التي حرمها راسبوتين، لا تستهويه من الجنس  
مطامره القلوة، فيوت الدعارة تثير اشتزاز حتى يذكر أنه قاطع صديقاً ثرياً له  
عدة أيام بعد أن اصطحبه وصحبه في عربة الى أحد تلك البيوت. إلا ان موقفه  
من الجنس وثقياً لئلا يفسد أن ممارسة الجنس مع بعض تابعاته المحجبات عطية  
بماسب عليها الرب. ومن ذلك نخرج بالتالي من الاستنتاج:-

كان الجنس نقطة ضعف راسبوتين فوجب به لأعدائه، للألف الشديد،

سيغفهم عليه . وهو لم يكن ساتيرا<sup>(١١)</sup> وما كان الجنس بأعمق حاجة في طبيعته الإنسانية . وربما اغفل الكتاب الذين تناولوا هو واسوتين<sup>(١٢)</sup> الدايونيسي<sup>(١٣)</sup> المعربد مع شابعاته أنه اقرب في ذلك الى زرادشت<sup>(١٤)</sup> نيشته من قومه الى معظم القديسين المسيحيين .

ما اطل عام ١٩٠٠ حتى تردت اصداه شهرة واسوتين في انحاء سيبيريا . كان قد أوشك أن يبلع متعصف ثلاثينات عمره . . . رجل نحيف متوسط الطول ذو اكتشاف عريضة ، وحية خفيفة بنية اللون يمكن من خلالها رؤية حدود ذقنه بوضوح . كانت يداه برغم خشونتها وصلابتها طريقتان أخذتا شكلاً مقبولاً ، وعيانه تكحلتا بلون أزرق مزوج بلون وادي تسلكتا بظرفهما لأعناق المقابل . . . لكن التعبير العام لوجهه طيبا يشوشا عون من حديثها . وكانت له صلعة خفيفة في اطل جبينه عليها ما يشبه الثلبة ، زعم يوسوف انها نتجت عن لكمة تعرض لها عندما اتم بسرقة الخيول . ربما كان على حق فيها زعم ، برغم ان واسوتين اودع في السجن بتهمة الحث باليمين فقط . اما شعره الطويل البني فكان مقسوما بخط وسطي . كان سلوكه دمثاً مفعماً بالحيوية الكريمة ويغدو وجهه راضيا باسما كالطفل عندما يرى احدا يجبه مما اكسبه شعبية بين القرويين الذين عت قسوة الحياة التي يعيشونها التعبير الطبيعي الحميم عن وجوههم . لقد طمقت شهرته الواسعة كعمالج للمرضى من خلال قدرته على التنويم المغناطيسي ، ومن نزعت له عمل الخير ، والتي شكلت في حقيقة الأمر الجزء الأهم من قدرته على التنويم المغناطيسي لما لها من سحر على مقاومة المريض

(١١) ساتيرا: نسبة الى ساتير الذي هو اله من الهة الغابات عند الاغريق ، كان يتميز بلونه الشديد بالصف المرعب واتعانه في اللذات .

(١٢) دايونيسي : نسبة الى دايونيس اله الخمر عند الاغريق .

(١٣) لم يكن طويلًا وضخم الجثة كما أكد أغلب كتاب سيرته اللاتينية .

ودرع شعور الشقة فيه . ولا يبدو عليه مسحة الخطر البتة بل هو النقيض التام لنوع الرجل الذي وصفه كتاب سيرته الأولين في كتاباتهم . ذلك النوع الخفيف ، الناعم البصر ، المهيب الجانب من الرجال . إن من ضمير له الحقد والكراهة من الرجال هم اولئك الذين آثروا تبجحهم وليس سواء أو من اولوا اهتمامهم امسارات الاعجاب اليهم والذين وجدوا في طرازه تحديا وفي سحره مكرًا وانفأ . لقد شعروا فيه محلاً تطلعوا الى قابليته على تغيير نبرة صوته ابعدوا مقنا فادرا على احضار الآخرين لأفكاره برغم طعته السيريرة الضيلة وكيف أنه تفادى ذوق الاطباع أنه سلس البيان بترده في الكلام بل وتلغته قليلا .

حاول واسوتين جاهدا البقاء بمنأى عن الشرطة بعد «تحوله» لكنه تورط من جديد في ايلول سنة ١٩٠٠ مع قسم شرطة حي فيركشا في توبولسك حين ادعت راقصة متجولة تدعى «ليزافيرا نيكولايفنا» أن واسوتين اراد قتلها عندما رأته صدفه ، وهي على جادة طريق بين «فاكاست» و «كازان» في الحادي والثلاثين من آب ، وهو يحاول اغتصاب طفلتين في مزرعة قريبة فلاحظها عبر الحسول لكنه عذف في النهاية عن مطاردتها عندما حل الظلام . لقد كانت واقفة امام الشقة بانته كان يتوي قتلها ، وتحملت مشقة السفر ثلاثة ايام لتصل لتوبولسك في الثاني من ايلول .

خامس الشك الشرطة . فإمرأة تعمل راقصة جواله مع فرق سيرك وفرق مسرحية تطوف بين المدن . وربما استحوذتها الشرطة عن سب قطعها سحابة . حصل عن مسرح الحوادث لتصل توبولسك بينما كانت «كازان» على بعد اربعين ميلا ، وعن كيفية قطعها كل تلك الأميال في ثلاثة ايام فقط .

وعلى اية حال لم يتم الوصول الى واسوتين ، ولا معرفة في ذلك ، ولم تثبت



أدائه بالجرم المزعوم. وعندما امكن لاحقاً مقابلة راسبوتين لم تستطع الشرطة إيجاد المرأة التي كانت ربياً ترقص في الجناح الآخر من سيبريا، فهاجرت الشكوى في إرشيف «اوكرانا». كانت الشرطة بلا شك محقة في شكوكها حول سحرة وقوم الحوادث حيث لم تردها أية تقارير عن حوادث اختصاب اطفال وانحصرت القضية بين شكوى المرأة ودفاع راسبوتين. فلأن كان هدف الإدعاء تشويه سمعة راسبوتين المتصاعدة كرجل مقدس لضعيفة تضمنها المرأة فحسب (لظنها أن التهمة منغلل عاقلة به ولو برئت ساحة) فإن الهدف لم يحقق غايته.

ظل راسبوتين طيلة عشر سنوات سائحاً جوالاً لا يأوي بيته الا في قترات متباعدة. ولا تملك أية معلومات عن أحواله في تلك الأعوام أو أسماء الأماكن التي زارها، إلا أن الواضح انه ترك أحسن الأثر في مدينة «كازان» التي كانت عاصمة «التكولند» والتي كانت اقرب للطابع الشرقي منها للطابع الروسي. يستهل احد كتاب سيرته حديثه بوصف مقعم بالحياة لـ «كازان» ولراسبوتين محاطاً بجمع من التوسلين ومعظمهم من المرضى الذين قدموا للعلاج. وهناك مشاهد يشفي فيه راسبوتين مشلولاً أن أوعز له بالتهوؤس والمشى فقط. وهذه الواقعة أساس من الصحة فهي تؤكد في أقل تقدير شهرة راسبوتين كطبيب في «كازان»، حيث أقام هناك صداقة مع عائلة كانتوف التي مكنت معها ابته ماريا سنة ١٩٠٨.

تحكي ماريا اولى ذكرياتها عن ابيها حين شاهدت ومعها شقيقها ديمتري رجلاً غريباً طويل القامة ذو لحية بنية طويلة وعينين غريبتين باصرتين مودعتين في وجه رسم عليه الاجتهاد ملامحه... وحاملاً حقبة وكان يمشي منهكاً. كان

(١) القبلة الذهبية.

(٢) كتاب هينز ليسان: راسبوتين... تقسيم جديد.

يبدو كأحد السواح الرحالين أو المغنين الذين يقصدون قرية بوكروفسكو عند هبوط الغلام لبييتو الليل عند الفلاحين. . . . لقد فشلت حتى زوجته في التعرف عليه حينها وسألته: «ماذا تريد ايها الرجل الطيب؟» وتلك دلالة ان سفراته سلخت من الزمن دهنراً طويلاً لم تتوقع فيه زوجته أن تراه ثانية.

نصف ماريا راسبوتين انهم دخلوا بعدها كوخهم، ولكن الصورة التي بصورتنا عن منزل راسبوتين في بوكروفسكو تظهر لنا بناءً مستداعياً لا يمكن وصفه بالكوخ وهذا ما يدعو الى القول أن شهرة راسبوتين كطبيب لم تأت عليه بالوفير من المساك. ثم انتقلت العائلة بعد عام ١٩٠٣ بوقت قصير الى البيت الواسع ذي الحديقة والغناء في شارع بوكروفسكو الرئيسي، وهو قول يعني ان عام ١٩٠٣ كان نقطة تحول في حياة راسبوتين فقيه بلغت شهرته طبقة النبلاء بعد أن كانت متحصرة على الفلاحين فقط.

لا تعرف تحديداً من المسؤول عن قدوم راسبوتين شارع بطرسبورغ، بيد أن ادعاء بعض كتاب سيرته يقول ان املة ثرية من كازان تدعى «باشيا كوف» اكرمه واتت به بطرسبورغ دون أن يعرف أحد عنها شيئاً.

يبدو محتملاً ان الفضل في «اكتشاف» راسبوتين يعود الى الفراندةقة (ميايشا) وهي احدى أختين والدهما الملك (نيكيتا) ملك (مونتكرو) (الواقعة في بولسلافيا الآن) (تدعى البيت الأخرى انستازيا). وقد اقرتنا بفراندةقين (هما بيتر نيكولايفتش ونيكولا نيكولايفتش). كانتا تعتبران نفسيهما، شأنهما في ذلك شأن جميع نساء الطبقة الراقية في شارع بطرسبورغ، «متصفوات» حيث كانتا مهتمتين بالدين، بالسحر، بالروحانيات وبالثنوهم المغناطيسي. وقد كان ليايشا

(١) الفراندةوق أو الفراندةقة لقب يعطى لأشقاء وشقيقات وأبناء وأحفاد القبر.

عظيم الأثر على زوجة القيصر التي دأبت على حضور جلسات تحضير الأرواح لفترة من الزمن لكنها اقلعت عن ذلك بعد أن قال لها مستشاروها الروحيين أن هذا من عمل الشيطان، وقطعت بذلك علاقتها «بالمونتكرينات». ويذكر أن ميليتسا هي للسؤولة عن تعريف مشعوذ غريب اسمه فيليب تيزير - فالتوت بزوجة القيصر (والذي ستحدث عنه لاحقاً).

يقول السير برنارد بيرس المطلع على أسرار «الغرواندوق» أن ميليتسا هي التي اكتشفت راسبوتين في «كليف» حينما كان ينشر الخشب في فناء دير على الأطلب. ودعته لزيارته في شارع بطرسبورغ<sup>(1)</sup> ومن هنا، حسباً تذكر ابنته مازيا، بدأت شهرته بالازدياد وغدا يحبه ليوكوفسكو نادراً جداً.

من المؤكد أيضاً أن أول زيارة لراسبوتين لشارع بطرسبورغ جاءت في عام ١٩٠٣. وفيه التقاه المخط حين أثار إعجاب الأب جون من «كرونستادت» وهو المستشار الروحي لزوجة القيصر.

كان الأب جون سرجيف قديماً عبقرياً مشهوراً بقدرته على التنبؤ، عين فسا لكرونستادت سنة ١٨٥٥ وأصبحت كنيسته خلال عقد من السنوات تقريباً مكان حج مقصود، ثم غدا القصر الخاص باعتراقات اليكسندر الثالث قبل أن يصبح الرجل الأثوم للقيصر نيقولا. امتلك الأب جون جميع سمات الدليل الروحي للقيصر فهو من الناحية السياسية رجعي من الدرجة الأولى.

(١) يقدم هينز ليبان رواية تختلف عن هذه، فهو يدعي أن البوليس السري اكتشف راسبوتين في بداية عام ١٩٠٢ وأن الأمير بيراكوف، أحد قادة اتحاد روسيا المخلصين) وجد فيه إمكانية الانتفاع بأبطال تأثير مختلف المشعوذين و (مخزني المعجزات) في البلاط القيصري. لكن ليبان لم يشرح لنا كيفية التي التي بها الأمير بيراكوف راسبوتين في كازان.  
(٢) كرونستادت: مدينة صغيرة محصنة قريبة من بطرسبورغ.

لأنه يطلق عليه الحكم الإمبراطوري، وهو ميبال من الناحية الاجتماعية لأراء الفرون الوسطى لكنه كان روحانياً حيث توجهت كتاباته كأحدى تقاليد الروحانية الروسية وما زال الكثير من الورع في روسيا يمدونه في قائمة القديسين. اشتهر الأب جون بقوة وحشاشته صلواته وقد حقق نجاحاً كبيراً في شفاء المرضى بفضل صلواته الطويلة الملحة قرب أيرتهم. واقام الأب جون أيضاً نظاماً مدعماً في الاعتراف الجماعي حيث اقترح وجوب اعتراف المعطي بدنونه بصوت عالٍ بين جمع المعترفين طالباً العفو (بسبب اكتظاظ كنيسته بحشود المعترفين المتظنين بوعده تناول القربان)، فيما درجت العادة في روسيا على وجوب اعتراف للمسيح قبل تناول القربان. انه لمشهد عظيم الأثر ان ترى امامك مئات، بل آلاف الناس احياناً، يعترفون بآثامهم بصوت مدوي وهم يحشون بالبكاء ويتهالون على حذوهم بالضريرات.

بلغ الأب جون في عام ١٩٠٣ من الرابعة والسبعين عاش بعدها خمسة اعوام اخرى قضاهاء، وحين استطاع لذلك سيلا، في كرونستادت لكنه قصد أيضاً كاتدرائية في شارع بطرسبورغ للإحتفال بقداس حيث التقى براسبوتين اول مرة.

نصف الرواية المتداولة طريقة لقاء الأب جون براسبوتين. ان حمل الأب جون القربان المقدسة وردد: «اقترب يدفك ابناك بالرب وخشيتك منه» وصرخ فجأة قائلاً «قف» مشيراً الى حاج ملتح رث الثياب واقف في مؤخرة الكنيسة - وقد كان راسبوتين - وأمره بالاقتراب منه. ثم ياركه وطلب منه، وسط «هشة الجميع، ان يبادل التبريك.

لم تكن هذه القصة حدثاً مطلقاً، لكنها لم تكن - وفق افتراض فولوب

ميلر - دليلاً على تبصر الأب جون الروحاني. وحقيقة الأمر هي ان راسبوتين كان قد التقى القس في اليوم السابق ليوم القداس وربما زار الأب جون وزوجته في منزلها في كرونستادت. وربما لم يعتمد تقييم القس لراسبوتين على ادراكه الحسي بروحية راسبوتين. لقد كان راسبوتين آنذاك رجعيًا متزوّجاً كالأب جون الذي لقبه معجبهوه بـ«العراف». فقد تطابقت وجهات نظرهما بالابيان بالسلطة المطلقة للملك ووقاحة الليبراليين (التحرريين) والتأثير المسموم لليهود. ان لراسبوتين العذر في افكاره هذه فهو، على النقيض من الأب جون، جاهل بالسياسة، وان من دواعي الفخر انه اصبح، بعد خوضه التجارب، خصياً لمناهضة السامية<sup>(11)</sup> ومتعاطفاً مع الليبراليين لكن وجهة نظره لم تتغير من ناحية القيصر ومطلقية حكمه.

استغرقت زيارة راسبوتين لشارع بطرسبورغ سنة ١٩٠٣ خمسة اشهر في أقل تقدير اي حتى اواخر شهر كانون الأول حسباً بذكر الناسك المليودور، ومن المعلوم ايضاً انه زار مدينة «ساروف» قرب «نيبي نوفكورد» اثناء مجيئه الى بطرسبورغ في اواخر شهر تموز، وقد فرز القيصر، في ذلك الحين، ضم ناسك يدعى «سيراقيم» لقائمة القديسين على امل ان يتشفع هذا الأخير الرب لولادة نجل للقيصر يكون وريثاً للعرش. وتعليقاً على ذلك يقول مؤلف «سقوط الرومانوفيين» المعادي لراسبوتين:-

حضر راسبوتين، النبي «السبعة والمجهول» الهوية لقادة الكنيسة، والذي بات فيما بعد محط اعجاب العامة، مراسم اعلان القداسة بيته حاج رجال او (سنتاريز). لقد صلى طويلاً امام المزار القضي الذي يقسم رفاتاً، وكان ورعه في

(11) ويعود له الفضل لاحقاً لراسيم صدرت من القيصر لصالح اليهود.

السجود مقرونًا بنشوة ما. ثم اعلن امام الجمع الحاشد بنبوته التي تبشر بصمجة جديدة قريباً وان السنة لن تنقضي إلا ويولد وريث العرش الرومي الذي انتظرت البلاد كثيراً باعنا الفرح في قلوب الناس.

وصدقت نبوءة راسبوتين. فقد ولد الوريث، الذي سيلعب راسبوتين دوراً كبيراً في حياته، في الثاني عشر من آب سنة ١٩٠٤. لكن الصبي ولد، واسوه حظه، وهو يعاني من الميوفيليا الوراثية.

أنفنى لقاء راسبوتين بالأب جون الى قطع خطوة اخري قريت راسبوتين أكثر نحو العرش. فقد ارسله الأب جون الى الأرشمنديت تيوفان -مفتش الأكاديمية اللاهوتية في شارع بطرسبورغ. كان تيوفان شخصاً مقرباً لزوجات القيصر، وهو روحاني الى ابعده الحدود ورجعي من الناحية السياسية، وهرسد فولوب ميلر قصة هي من بنات افكاره تحكي ان القروي راسبوتين، الذي كان يقيم في مصيف الزوار في الأكاديمية، استمع الى نقاش دائر بين طلبة علم اللاهوت الذين دعوه للمشاركة في النقاش بقصد السخرية من منطقه والذين ادركوا، ما إن بدأ الحديث، ان بصيرته البسيطة والناقلة في المخطوطات الفدسة لأعمق مما درسوه في الكتب، فسرخوا يجوبون في افكاره وغاب عنهم «خول الأرشمنديت تيرقان رئيس الأكاديمية الذي كان عجزوا صغير البنية ذا عينين زرقاوين حاليتين. استمع الأرشمنديت لنقاشهم لفترة وجيزة ثم بدأ يسأل راسبوتين بعض الأسئلة لا سيما تلك المتعلقة بمعنى الخطيئة، فاجابه الموجيك فائلا: «لقد شجب متقدنا والآباء المقدسون الخطيئة لانها من عمل الشيطان... لكن كيف يتسنى لك طرد الشيطان، ايها الأب، دون التوبة الصادقة النصوح؟

(11) الأرشمنديت: كاهن في الكنيسة الشرقية يلي الاسقف بالرتبة.

وانى لك ان تسوب ثوبة خالصة دون ان تأثم؟ ثم نوم راسبوتين الأرشمنديت  
تونييا مغناطيسيا عندما حاول الأخير الإجابة. . . فلم تكن إلا «عيون راسبوتين  
المشرقة المشالاة تصع النفاط على الحروف». امضى الرجل العجوز الليل مفكرا  
بما قاله راسبوتين وما ان اتلج الصبح إلا وتبلورت لديه الفكرة ان راسبوتين  
حق فيما ذهب اليه واقترح أن يقابل راسبوتين الأسقف (هيرموجين) أسقف  
«ساراتوف» (والذي وصفته ماريا انه الرجل الأكثر شعبية في روسيا). ثم ارتأى  
كلا الأرشمنديين انضمام راسبوتين «إلى اتحاد الروسيين المخلصين» وتقديم يد  
العون لهم في طرد المشعوذين والدجالين خارج البلاط القيصري.

لقد ابتدع فولوب ميلر مسألة التويم المغناطيسي لايضاح كيف بلغت  
القناعة بهذه اللامنطقية العيشية رجلاً له خصال تيوفان، (ولأجاب اي رجل  
كنيسة ارتدوكسي: كلنا نأثم طوال الوقت فلماذا نغالط انفسنا وننعم في الاثم  
فنقول نحن لا نأثم؟) لكن ميلر لم يشرح لنا سر انخداع تيوفان براسبوتين حتى  
بعد انحلاء اثر التويم المغناطيسي ولا الصدمة التي تعرض لها تيوفان، في  
سنوات لاحقة، عندما وصلته انباء نشاطات راسبوتين الجنسية المرعبة.

يسود لنا برنارد بيرس رواية انحرى هي الأذى على الأغلب قائلا:-

ظهر راسبوتين في اكاديمية بطرسبورغ الدينية في التاسع والعشرين من  
كانون الأول سنة ١٩٠٣ وكان قرويا يمتلي الجسم متوسط القامة، ذا شعر قدر  
طويل يندلى على كتفيه وطيبة متشابكة وعينين رماديتين ثابتتين غامضتين تحت  
حواجب كثة تغرقان في نور مميز لو أطال النظر على شيء، تميزه رائحة قوية  
ناقذة. بزغ أول الأمر رجلاً عظيم الأثام وأمسى الآن عظيم التوبة والندم قادراً  
على استبطان قوة جيازة من التجارب التي يمر بها وعلى هذا الحال قابل تيوفان.

ضمت الأكاديمية الدينية آنذاك شاباً فريداً الحاصل كان يتدرب على  
الرهانية وعرف لها بعد بالناسك ايليدور وهو الذي نقل لنا هذه التفاصيل عن  
قدوم راسبوتين للأكاديمية. كان مثميراً كراسبوتين لكنه اصغر منا وهو يستحق  
منا عناية ودراسة أكثر. كان قروي الأصل واسمه الحقيقي سيرجي تروفانوف.  
اصح قسا لتسارتين بعد سنتي دراسته في الأكاديمية تحت اشراف تيوفان.  
وسرعان ما ذاع صيته بفضل بلاغة وقوة موعظه ثم اطلق على نفسه لقب  
سافانارولا. وتظهر لنا عبورة التقطت له مع راسبوتين والأسقف هيرموجين  
وجلا هزيبا ذا وجه منغولي الملامح، ووجنتين عاليتي العظام وشفتين رقيقتين  
تعبران عن الحزم وعينين تنهان عن التعرف.

تميز ايليدور أيضاً بموقفه السياسي. فهو رجعي حد العظم، مقت اليهود  
والمفكرين، آمن بمطلقية سلطة القيصر من جهة وصب جام غضبه على طبقة  
البلاء، ونادى بشيوعية فلاحية يكون القيصر الفائل الأعلى لها من جهة اخرى.  
تناولت معظم موعظه مسألة فساد الأخلاق وانحطاطها -وذلك كان صحيحا الى  
حد بعيد- او قضية شجب المذهب الروحاني، وهاجم ايضا الإدارة واللاكفاءة  
التي تحلت بها الجهات الرسمية. كان شديد اللهجة في حديثه وغالباً ما ترجوه  
أن يكون معتدلاً لكنه كان في موقع الأقوى. اذ أحبه القيصر وهما تيوفان  
وهيرموجن وأعجب به، بل تعيده، أغلب اتباعه. ودعا، متأثراً بدستوفسكي  
على الأغلب، الى تأييد الإتحاد السلافي واعتقد ايضاً بان للشعب الروسي «صلة  
الرب» وعليهم تحجب الغرب الفاسد.

وفكر بمشروع انشاء دير يسميه «ساوت تابورا» ويكون مرفأ للنساء

(١) مدينة سوفيانية تقع على نهر الفولغا.

(٢) من سلافيا وهي مقاطعة في شمال بوسغلافيا.

الخالص. لقد درت عليه مواظبه المتقدة ارباحا طائلة لكنها لم تكن تكفي لإقامة الدير لذا دعا الجميع للتبرع بالعمل والمواد وشرع ببنائه بنفسه. يتميز هذا الدير ببرج مرتفع على تل كي يطرقت صوته الواعظ الجميع التغيير. وواشك على تحقيق حلمه هذا لولا خلافه الأخير مع راسيونين ولكنه آمن، مثل تيوفان، بطهارة راسيونين فقد التفت فلسفة راسيونين المتعلقة «بالندم من خلال الخطيئة» مع رفضه المثالي والفاسي لكل مساويء عصره. كانت بيوريتانيته باغية فهو يزور المراقص وصالات القمار ويبوت الدعارة ثم يعتلي المنبر شاجيا لما ذاكرا ووادها الأتئين بالأسماء، وكان يرفض المشول امام المجمع الكسي المقدس لثلا يضطر للإجابة على استنهم حول افعاله المتناقضة تلك، علاوة على ذلك كانت مشاعر العامة لصالحه لدرجة يصعب على السلطات معها اتخاذ اي اجراء قمعي ضده.

بروي فولوب ميلر قصة طريفة لا تملك وكيرة من الصحة حول اول لقاء بجمع راسيونين وإيليدودور. فهو يقول ان تيوفان وهيرموجن اصطحبا راسيونين للقاء إيليدودور الذي كان ساجدا على ركبته يصلي فانتظر ضيوفه الثلاثة فراه من الصلاة احتراماً له لكنه استغرق في صلواته طويلا حتى ضاق راسيونين ذرعا بالانتظار فقاطعه قائلا له بلهجة حنيئة «انك تحسن في الصلاة ولكن كف عن مضايقة الرب بصلواتك فحتى هو يحتاج للراحة احيانا، هيا امهش فهذان الرجلان لديهما شيئا يقولانه لك». ذهل إيليدودور ولم يعرف ماذا عساه أن يرد عليه. واستنادا لتحليل فولوب ميلر فقد اختلعت مشاعر الكاهن نحو راسيونين بين الغضب والإمتعاض والعجز والخوف والإعجاب وظلت كذلك.

ان من الصعب تصديق هذه الرواية لأن إيليدودور لم يكن حينها إلا طالبا أكاديمياً موهوباً باللاهوت فليس من المعقول ان يحدث مثل هذا التضارب بين

(١) البيوريتانية: التطهر، التزمت.

الشخصيتين.

والحقيقة الأرجح هي أن الإعجاب بشخص راسيونين لا سببا بفكرته بالمجتمع الزاهد كان مستهلاً لعلاقة إيليدور به وبات من طالعها نصيره الأشد حماساً، لكنه اصبح بعد ذلك عدوه اللدود وتآمر على قتله ثم اعتنق الشيوعية وكتب كتابا شجبت فيه راسيونين وشوه سمعة العائلة الإمبراطورية.

قدم تيوفان وإيليدودور راسيونين الى من هو أكثر نفوذا من كليهما وهو اسقف ساراتوف (هيرموجن) الذي وصفته ماديا بكونه «الرجل الأكثر شعبية في روسيا». كان هيرموجن لولب الحركة في «اتحاد الروسيين المخلصين» وهي حركة مزودة للإتحاد السلافي وتوعظ بتناهضة السامية والغربية وتؤيد السلطة المطلقة للقيصر وقد كان لها ايضا مناصرة قوية في البلاط الإمبراطوري - (من الملاحظ ان روسيا كانت دائما مهدا لحركات مناهضة السامية وشهدت مذابح منتظمة ضد أنصار السامية في كل حكم وربما تقوق القياصرة على هتلر بعدد اليهود الذين قتلوهم).

بصم راسيونين بقوته وصدقه تأثيره على الأتئين. فقد كان قرويا يحمل بعض نسوة دوستويفسكي التي تبشر بروحية متجددة نبعث من الموجيك الروسي. وشاطرهما اراءهما السياسية حول اليهود والقيصر وحول الرسالة الإلهية التي يحملها الشعب الروسي. لم يكن كلامهما فطناً ليذكر طموح راسيونين وان صدقه مقرون بدهائه القروي فهو لها ليس بالرجل الموعد سيبدو ان زيارته «لساروف» ونسوته حول ولادة ولي العهد ما هي إلا محاولة مبكرة لجذب انتباه القيصر وزوجته.

لم يكن راسيونين طموحاً بمعنى الطموح... فهو لا يهت للمال ولا

يطمح نفوذاً سياسياً. كان متسلقاً اجتماعياً نشد الشهادة له بالعظمة من مجتمعه. وهو شخص أرحم الحبال لرغبته أن تقوده للسلطة وأدق منها للنفوذ الشخصي. فقد كان يدرك جيداً أنه أقوى من خصومه أجمعين وأراد أن تشهد له روسيا بذلك، ولم تكن محاولاته الجاهدة في التقرب من السلطة إلا لأنه يرى أن قوته الشخصية يجب أن تقترن بقوة تماثلها وليس من قوة في روسيا أكبر من قوة القيصر السايبة. هذه الرغبة في السلطة هي سر بقاءه في شارع بطرسبورغ حتى عندما أدرك أن السلالة الحاكمة تنهار وأنه سيتهيئ بنهايتها. لقد شعر أن بومسه تغيير مجرى التاريخ ولم يشكك في هذه القدرة قط، حتى عندما لاح جليبا منذ التاسع والعشرين من حزيران عام ١٩١٤ أن المستقبل لا يتوي أن يغير مجرى أحداثه.

كان لدى راسبوتين الاستعداد. بدءاً من عام ١٩٠٣، للمفوض في مجرى التاريخ الروسي. وضروري لفهم ما سيلي من أحداث ان نلقي نظرة على القرى الفلاحية التي واجهها آنذاك.

## الفصل الثالث

### "تاريخ كالكابوس"

سقط من على صدر نيقولا الثاني ولما توج على عرش روسيا وسام رهبنة القديس أندرو، وهو أحد أوسمته العليا فظن به القيصر نذير شؤم سيحوم على حكمه. وما عمق شعور النشازم لديه سقوط بعض الألواح الخشبية المغطية لخنادق أعدت لأغراض التدريبات العسكرية في ساحة هودينكا، تحت وطأة ثقل الجمهور المحتشد الذي جاء لاستلام هدايا القيصر في يوم تنويجه، وهو ما تسبب في مصرع أكثر من ألفي مواطن سحقاً تحت الأقدام. لم يعلم القيصر بهذه الحادثة باديه الأمر وطلب من أحد موظفي البلاط أن يواصل المحتفلون استقبالهم، لكن الذعر ملكه حين علم بالفاجعة فقرر الذهاب الى الدير للصلاة على أرواح مواطنيه الأبرياء، لكن مستشاريه ثبوه عن عزمه وأرشده أن يحضر بدلاً من ذلك حفلة راقصة أقامها السفير الفرنسي بمناسبة التنويج. فلا غرابة إذن وتحت ظروف كهذه أن يخال لأغلب المؤرخين أن نهاية مأساوية لحكم نيقولا قد أمتت أمراً مقضياً.

يبين أن تلك المأساة، سواء أكانت قدرا أم حادثاً ما كان لها أن تقع لولا وجود راسبوتين وزوجة القيصر، فلولا وجود راسبوتين لربما ما كانت هناك ثورة أكتوبر، ولولا مزاج زوجة القيصر وأهواؤها لما كان راسبوتين الحاكم الفعلي لروسيا.



قد يتفرد هذا الحدث التاريخي بالدقة التي تم فيها وصف مسيئته، غير أن تفهم أسباب سقوط الملكية الروسية يتطلب تبعا لمسيئته عبر قرون عديدة قد تمتد الى ما قبل إستلام سلالة رومانوف الحكم .

إن تاريخ القيصرية لمأساة البلايشتية تمتد لثلاثة قرون . فجوهرها القسوة . .  
أو هي قسوة بربرية لا حد لها كانت وما تزال سمة بين دول الشرق والتي لم تظهر في أوروبا إلا حديثا إبان عهد هتلر . كان حكم «إيفان الرهيب» الذي عاصر الملكة إليزابيث باكورة تلك القسوة . فهو قد أسس فكرة (التزار)، وهي مفردة مشتقة من -سيزار- أي القيصر، بصفته السيد المطلق الذي لا طاقة لرعيته على نفوذه ولا حول . حين إعتلى «إيفان الرابع» العرش تيد البويار (وهم طبقة النبلاء) مقاليد السلطة في روسيا شأنهم في ذلك شأن نبلاء إنجلترا في عهد الملك «جورج»، فيما كانت عائلة «الشويسكيين» هم الأقوى بينهم . تميز أغلب البويار بالغطرمة وغلاظة القلب للدرجة التي أغتت فيها القساوة شباهم وهم يرون كلابهم المسجورة تطارد رجال العامة في لعبتهم المفضلة (مطاردة الرجال) وتقطعهم إربا إربا . لذا إكتست طفولة إيفان بمرارة التفرغ والإهانات من رجال كهؤلاء وقتلت أمه وهو في السابعة من عمره فأطلق العنان لرحمته كسي تشامى في الستة أعوام اللاحقة . ثم حدث في أحد الأيام أن أمسك الشوسكيون بصديقه الحميم «فرونوستوف» وأذوه ضربا حتى كاد أن يلفظ أنفاسه بين أيديهم لولا توسلات إيفان، وبعدها نفي صديقه «فرونوستوف» . وبعد ثلاثة أشهر أمسك رفاقه الأشداء بالأمير «أندروشويسكي»، ألد أعداء إيفان، ورموه طمعا لكلاب الصيد ليغدو إيفان مذ حينها السيد المطاع .

لم تكن الأعوام الأربع التالية من حياة إيفان إلا مسلسلا مروعا، فقد أطلق العنان لحقده وقسوته ومزاجيته وخاصة في هواية صيد الرجال حيث كان

معظم ضحاياهم من التجار وزوجاتهم وبناتهم اللاتي كن حريم إيفان الخاص . أعلن إيفان نفسه (تزارا) أي قيصرا في السابعة عشر من عمره فكان أول قيصر في روسيا بعد أن خشي جميع أسلافه أن يطلقوا على أنفسهم هذا اللقب . واختار إيفان لنفسه زوجة تسمى «أنستازيا رومانوف» من بين الفتي فئاته جعمن للمعانة . وهو قد جهد في الأعوام العشرة التالية كي يغدو القائد المثالي، فقد أحاط نفسه بأكفياهم المستشارين يتحدر أغلبهم من الطبقة الوضيعة وشرع بإجراء مختلف الإصلاحات . كما إفتتح عهد الغزوات أيضا حين طرد التتار أو المنغوليين الذين أهلبت بهم روسيا لقرون عديدة، من كازان ثم تبعها بغزوات أخرى . لكن عسفة حياته تعكر وانقلبت شخصيته عندما أخذ القدر منه زوجته لدرجة أن بات من الإحسان عليه القول أنه أصيب بالجنون في سن السابعة والعشرين فمذ حينها وحتى وفاته أرخى الحبال لوحشيته لتفتاده حيث تشاء وساوره الشك بجميع من حوله وجرد جميع من في البلاط من حق إيداء رأي لا يتفق وقرار القيصر ومن تراءت عليه أي نزعة من هذا القبيل كان مصيره العقاب لظنهم به خائنا . وخلع إثنين من أفضل مستشاريه فيما هرب معظم معاونيه لبلدان أخرى بعد أن خالفهم أن الحياة أمست غير آمنة بين يدي هذا المستوه . لكن فرار كرسكي، صديق طفولته، غرس جرحا عميقا في نفسه لدرجة أن شل قدمي الرسول الحامل لرسالة وداع صديقه وعذبه بعد أن أتم قراءتها .

أقدم إيفان في منتصف الثلاثينات من عمره على فعل غريب لا يتسجم إلا والطبيعة الروسية، حيث هام خارج العاصمة موسكو دون أن يحدد مقصده حتى حط به المقام في قرية «اليكاستدروف» الواقعة على بعد مائة ميل من موسكو . وبعد أن أمضى عدة أسابيع إكتنفها القلق والحيرة على مستقبل البلاط القيصري، أعلن إيفان تخليه عن العرش . لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك بعد

أن أرسلت العاصمة وقد ينتابته العودة لبلاطه. وبدا كأن الخوف والخلد قد شاع بعد إختفائه عن البلاط. فهم قد أعدوه رغم قسوته شخصاً صورياً لا غنى لروسيا عنه. وهنا وضع إيفان شرطاً لعودته ينص على وجوب تغاضي الكنيسة والبيوار (طليقة النبلاء) عن جميع أفعاله وقبل الجميع ذلك وعليه بدأ دون أن يتهاون لحظة باستغلال هذه الصلاحية بحملات سرقة وقتل واسعة النطاق، ليس هذا فحسب بل قسم روسيا الى قسمين: ملكيته الشخصية والتي سماها (أوبرسبينا أي إرث الأرملة) و (زيمشينا) التي هي ملك النبلاء. وأسس لإدارة «الأوبرسبينا» قوى أمنية وسياسية تولت مهمة التجسس على أعدائه والقضاء عليهم. وعليه يصح إعتبار إيفان مخترع نظام الشرطة في روسيا. لقد طاف هؤلاء بلباسهم الأسود أرجاء البلاد شبرا شبرا متفذين إنتقام القيصر الذي ما كان يعني سوى الحرق والتعذيب حسبما يشتهون.

لكن جنون عظمته بلغ الذروة عندما هدم أركان مدينة «توفوكورد» حين جالت في رأسه فكرة مجنونة مفادها أن «توفوكورد» تنوي الخيانة فسار إليها بجيش جرار حارقاً ومغتصباً ونهاها على طول الطريق إليها حتى وصلها في أوائل عام ١٥٧٠ وبني حولها سوراً عالياً من الخشب ليمنع هروب أي من سكانها. ثم وعلى مدى خمسة أسابيع أعقد في القرية تعذيباً أهلك فيه يومياً آلاف من أهالي «توفوكورد» أمام ناظره وناظره وولد المنحرف إيفان وهو قد نفن وجنوده في أشكال التعذيب إذ أجبر الأزواج والزوجات أن يرى أحدهم الآخر يجر من شدة الألم صريعاً وأجبر الأمهات أن يشاهدن أطفالهن يرقصون الما قبل أن يجرمن أنفسهن أحياء أو يقربن حتى الموت. كانت نتيجة تلك المجازر مقتل أكثر من ستين ألف نسمة.

توجه القيصر بعدها الى «سكوف» بغية إستكمال إستعراضه التعديبي لكنه

عدل عن رأيه لسبب ما عندما وصلها. فاستقبله سكانها راكعين مؤكداين له أن عطفه ورحمته لأعظم من أن تصدق.

آنذاك، أنزل الرب لعنته على روسيا بأن أحل فيها الأوبئة والمجاعات فأكل الفلاحين لحاء الأشجار، والنهسوا الأطفال الصغار أتى أمسكوا بهم. ومع ذلك، منع إيفان الناس من الترحال وعاقب العصي بحرقه حياً، وأحرق موسكو عن بكرة أبيها.

لم يكن ما تبقى من حياة إيفان مختلفاً عن شطرها الأول فقد إستمر على منواله في القتل والتعذيب ولم تفت شهرته الجنسية البتة (وقد كان جنونه موضع شك أنه ناجم عن إصابته بمرض السفلس)، وعين كادراً لإرهابيا، وغالبا ما كان يقتل على الحمازوق<sup>(١)</sup> السامرة الذين كانوا يثيرون حفيظته. وحدث في أحد الأيام أن قتل في ثورة من ثورات غضبه إبنه الصغير وما كان ذلك بخسارة كبرى لروسيا فهذا الشبل من ذلك الأسد. بعدها تحدث إيفان بين الحين والآخر عن رغبته في أن يصبح راهباً، ووضع في أحد المرات تاجه على رأس أمير تتري من حاشيته مخاطباً إياه أنه أمسى قيصراً وحكم هذا الأمر لسنة كاملة. لقد فضل المئات من أهالي مدينة «وندن» في ليفونيا حرق أنفسهم في قلعة عالية بدلا من الموت على يد إيفان بعد أن اعنوا تحديهم له. وكثيرا ما كان مستشاروه ومقربوه أول ضحاياها، لكن إحدى أكبر جرائمه وأبشعها حدثت حين علّق الأمير إيفان فسكوفاتي ورأسه الى الأسفل وقطعه لشرائح حتى الموت ثم ذهب هو وابنه منزل فسكوفاتي واغتصب إيفان الأرملة الحزينة المبستلة بينما اغتصب إبنه الإبنه الكبرى.

(١) كتب ريكسي كورسكوف اوبرا عن هذا الموضوع.

(٢) الحمازوق: عمود طويل محدد الرأس يدخل في دبر المجرم فيموت عليه.



كان موت إيفان في عمر الرابعة والخمسين من عمره موتاً نموذجياً. فقد أصابه العجز الجنسي وشعر بالإرهاق والتعب والمرضى، واستدعى عدداً من المرافقين ليلامه فتنابوا بموته يوم الثامن عشر من آذار سنة ١٥٨٤ ولا بد أن إيفان قد أبلخهم بحرقهم أحياء إذا ما بقي حياً بعد ذلك اليوم، جرماً على عاداته. وعشية اليوم الموعد أعاد اليهم وعده بحرقهم لو لم يمض صباح اليوم التالي فأشاروا إليه أن اليوم لا ينتهي إلا بغروب شمس يوم الثامن عشر. وفي اليوم التالي لعب إيفان الشطرنج مع بوريس كودنوف، أحد مساعديه، لكنه ظل يقصر ثم سقط إلى الخلف ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى فارق الدنيا.

كان إيفان أول القيصرية اللين وطردوا منهجاً لم يتغير حتى سقوط آخر السلالات الحاكمة بعد أربعة قرون. . . . منهجاً قائماً على الفردية المطلقة والإضطهاد. ولا تذكر بعد لم لا يقتال أحد هذا الطاغية خلال سني حكمه الأولى، فمن المستحيل تصور صبر روما على «كاليغولا»<sup>(١)</sup> أو «تيتاريوس»<sup>(٢)</sup> لأربعين سنة. والأغرب من ذلك أن حداً أعلى واقعياً أقسم على رحيله. لكن هذه الملاحظات الغربية تلقي الضوء على بعض جوانب الشخصية الروسية. . . فهي فدرية، كسولة، فوضوية، عاجزة أشد العجز فيما يخص المثالية، طفولية وغير مسؤولة. ولم يقصد دوستوفسكي في كتابه «الباحث العظيم» بقوله على لسان الباحث أن الناس آثروا العبودية على الحرية، سوى الشخصية الروسية هذه. . . فالحرية عبء ثقيل جداً.

(١) كاليغولا: Caligula : امبراطور روماني (٣٧-٤١). ابن المريخينا وحفيد تيتاريوس بالتبني. اشتهر بجنونه واستبداده. ثم القتل.

(٢) تيتاريوس Tiberius : امبراطور روماني (١٤-٣٧). خلف الوغسطس اباه بالتبني اشتهر بحكمته السياسية وتنظيمه الإداري. تحول في آخر عهده إلى السلط والأيام.

ولو صح الافتراض الفائق أن الأمة السعيدة هي الأمة التي لا تملك التاريخاً لأصحت روسيا أتتس أمة بين الأمم لأنها عاشت تاريخاً مضطرباً دوماً وحكم «إيفان الرهيب» مثال على ذلك .

ترك إيفان روسيا منهكة القوى مشتتة الأروام وأعقب حكمه فترة من الاضطرابات والمشاكل أشبه بالسنين التالية لثورة أكتوبر سنة ١٩١٧. تولى الحكم بعده إينه (فيودور) المختل عقلياً واستمر حكمه سنوات قليلة، أمسك بعدها «بوريس كودنوف» زمام الحكم والمشيئة به في مقتل الأمير ديمتري -الوريث الشرعي للمرش- وقد لا يكون هذا سوى محض إقتراء فمن الظاهر أن بوريس كان رجلاً مهذباً حفص الرأي هادي الطبع ويتمتع بريادة جأش وقوة شخصية فرضت إحترامها حتى على «إيفان الرهيب»، لكنه توفي بعد خمس سنوات وارتقى العرش بعده فوراً رجل زعم أنه الأمير المفقود ديمتري. هويته الحقيقية مجهولة دوماً وربما كان مأجوراً للروماتوفيين، أعنى منقسي بوريس على العرش. لم يمكث في الحكم إلا فترة وجيزة إذ قتله بعض الزعاع الذين أرسلهم أمير شويكي أصبح قيصراً قور مقتل الأول والذي سرعان ما غلبته البلاد التي غطت في حالة قورس عامة وعدم رضا. ظهر بعده اثنان زعم كلاهما أنه الأمير المفقود ديمتري- كان أحدهما عبداً شارداً اسمه «إيفان بولوتيكوف». لقد قاد بولوتيكوف تمرداً فلاحياً لكن قسوته الشديدة مع مالكي الأراضي وعوائلهم المنقذته منعون انتصاره العسكريين. ولا تعلم على وجه الدقة ماذا حل به وهو أول فلاح قاد «حرباً طبقية» وأقام منهج التمرد الذي أصبح شائعاً في روسيا من بعده. فيما لُقّب الآخر «بالسارق» وقد حاصر «شويكي» في موسكو سنة ١٦٠٨ ثم قتله أحد أتباعه. حينها اعتل العرش نجل ملك بولندي عهد الطريق أن يجتث البولنديون العاصمة موسكو وأغلب مدن روسيا

الجنوبية بينما احتل السويديون الذين دهاهم شويكي لمساعدته ضد «السارق» مدينة (نوفوكورد). ولم يمض زمن طويل حتى ظهر مدح آخر في مدينة «سكوف» غير أن الروس ملكوا الآن زمام الأمور وطردهوا البولنديين من موسكو وشرعوا يبحشون عن قيصر جديد وجدوه في (ميشيل رومانوف)، وهو أحد أعضاء عائلة زوجة «إيفان» الأولى التي إختارها إيفان من بين ألفي عائلة مرشحة تقريبا، لذا فإن أربعة قرون من تاريخ روسيا قد اعتمدت على اختيار إيفان. لقد بدأ تاريخ الرومانوفيين بـ «أناستازيا» وانتهى بـ «أناستازيا» وهي الفتاة التي نجحت في الإفلات من رصاص الشوار في زنازة «ريكاتيرنيرج». وبين كلا الأنستازياتين كان هناك قتل واغتيالات ومؤامرات لا حصر لها وكثير من التمرد والعصيان كتمرد بولوتنيكوف. وظل شبح «إيفان الرهيب» جاثما على صدر التاريخ الروسي ليشتيع القسوة وسفك الدماء إبد الدهر فيها.

غير مجدية محاولة إيجاز التاريخ الروسي للعقود الثلاثة التالية فهو تاريخ إضطهاد وتعذيب شمل أكبر قطاعات الشعب الروسي، بيد أن الميزة التي سيكون مستحيا تحجيم أهميتها هي القناعة منذ هيمنة المغوليين و ٩٥٪ من الشعب الروسي عبيدا في واقع الحال. فقد سن بوريس كودنوف عدة قوانين تربط الفلاح بالآرض على أساس أنها قوانين طارئة أمدها خمسة أعوام يعنى بعدها الفلاح العبد. ثم مدد أول قيصرين رومانوفيين - وكان كلاهما واهنا- هذه المدة، حتى أبطلها اليكسيز سنة ١٦٤٩. وقد شهد العام الذي أعدم فيه شارل الأول في إنكلترا إحتضار الحرية في روسيا برغم المحاولة الواهنة والحاجية لإقامة حكومة نيابية في ظل حكم ميشيل.

(١) عبودية الأرض.

كان الرومانوفيون، عموماً، سلالة واهنة ما خلا بعض الاستثناءات أهمها «بطرس الكبير» إبن اليكسز. فقد أدخل بيتر النظام الأوروبي لروسيا وبنى شارع بطرسبورغ وأجرى كثيرا من الإصلاحات لكن الشيء الوحيد الذي لم يفعله هو ضمان قدر أكبر من الحرية للعبيد، وربما تذكر التمرد الشديد القسوة والعنف الذي قاده (ستينكا رازين) والذي كان قاب قوسين أو أدنى من الاطاحة بعرش أيبه. ومع ذلك، يقول (را. د. شارك) ان «بطرس الكبير» حكم روسيا «بعصا من حديد». لقد تعاطف العفل الغربي مع أجزاء من أسطورة «بطرس الكبير» الخاصة بحيويته وحماسه واهتمامه بالتكنولوجيا وتطوعه بالمشاركة في أي عمل بدوي. غير أنه إمتلك صفاتاً شرقية كصفات إيفان الرهيب. اذ قمع عصياناً عسكرياً بطريقة إيفان وقاتل إبنه اليكسز، كما فعل إيفان بإبنه، ولكن ليس بغورة غضب بل بتعذيب مهد لمصره.

كان سبتولى العرش بعد «بطرس الكبير» إبن اليكسز «بيتر» لكنه توفي بالجندي في صباه، فأمسى العرش لـ «آنا»، إبنه أخ «بطرس الكبير» والتي لم تسوان أن تكن نفسها بلقب «آنا الدعوية». ولم تكن قسوتها فجائية وعنيفة كقسوة إيفان بل قسوة مسبوقة بحقد وغل طويل العهد.

أصبح بعدها «بيتر الثالث» (أحد أحفاد «بطرس الكبير») قيصرا على روسيا. لقد كان جلفا، وحشيا وربما كان معتلاً عقلياً وعامل زوجته البافعة -وهي فتاة المانية إسمها كاتزين الذكية والمثالية- معاملة الخادمة فاتخذت لها عشاقاً كان أولهم (سالبتيكوف) الذي قد يكون الأب الحقيقي لإبنها «بول». وهو ما يقود الى الافتراض أن أغلب القيصرية كانوا مد حينها رومانوفيين بالإسم فقط. أما

(١) رازين: أحد أبطال الاسطورة السوفياتية- خاتمه في النهاية أحد اتباعه وعذب ذهاباً شديداً حتى الموت.

جورج اورلوف، وهو عشيق آخر، فقد أقدم على قتل زوجها في محاولة انقلاب لتصبح كاترين إمبراطورة روسيا. جلب حكمها الطويل الأمد كثيرا من المنفعة والإصلاحات لروسيا دون أن يتألم منها الفلاحون بعضاً من الاعتناق. لقد حتى فيها ثمره بوكاشيف (الذي سبق ذكره) المليء بالقسوة جميع ميولها الديموقراطية وزرع فيها انطباعاً أن الفلاح الروسي وحش بري لا يجب أن يخرج من قصصه الخديدي. فيما عمقت فيها الثورة الفرنسية هذا الاعتقاد وأغلقت حكمها في جور من الإضطهاد.

أصبحت كاترين في الحكم مجنون آخر هو ابنها «بول» الذي لم تكن أهواها حكمه الأربعة إلا كابوسا أعاد لأذهان الشعب الروسي حكم «إيفان الرابع». اتخذ جنونه طابعاً عسكرياً نذكر منه أنه أرسل ضابطاً إلى منفى سيبيريا لإرتداته قبضته في زاوية خاطئة. لم تنو «كاترين العظيمة» أن يتولى «بول» العرش بل أدت أن تسخطاه لصالح حفيدها اليكسندر الذي تولى الحكم بعد أن قتل بول في عام 1801 واستهلاً بذلك «قرن الإصلاح»... القرن الذي شهد ذنو عهد آخر الروماتوفين.

بدأ حكم «اليكسندر الأول» ميمونا للفلاح الروسي. فقد حلم باقامة نوع من الحكومة النيابية وطلب من إبن قس قرية لامع إسمه سيراتسكي وضع دستور لها. لكن حرب نابليون قلبت الأمر. حاله سافله وفقد سيراتسكي مكانته فسيا غدا اليكسندر مستبدا لا يقل عن بيتر أو كاترين ونادما على «ضلال عقله» أيام شبابه. كما أثقل كاهل الفلاحين بعبء جديد إذ فتح مستعمرات عسكرية يقوم نظامها على أساس عقوبات بربرية، ولم يته حكمه إلا وأكثر من نصف مليون فلاح في تلك المستعمرات.

تحدث اليكسندر كثيراً عن ليه التغلي عن العرش ليصبح راهبا أو مواطناً بلا منصب في سويسرا. ويبدو أنه قرر تنفيذ ذلك في سن الثامنة والأربعين حيث ذهب إلى ناكاتروج وهناك أعلن أنه يعاني من مرض الملاريا. وقد ذكر طبيب يدعى «لي» أن جللته كان يرفض بشدة أية مساعدة طبية. واستدعى قساً لإقامة «العشاء الرباني» لمرة واحدة فقط برغم أن اليكسندر «توفي» بعد أربعة أيام. وقد أجرى عشرة أطباء فحصاً عاماً هل جثته وكتب طبيب البلاط الملكي (نارازوف) تقرير الوفاة. وجاء في مذكراته أنه إمتنع عن توقيع التقرير برغم أنه يعمل توقيعهم، وهذا ما يدعو للاستنتاج أن نارازوف قد نسي أن يوقعه أو أن أحداً زور توقيعهم. لقد بقي التقرير موضع شك فحالة الأعضاء الرئيسية لجسد اليكسندر لا تتطابق وحالة مريض مات بالملاريا فليس هناك تضخم في الطحال هل سبيل المثال. تم دفن جسد اليكسندر باكفانه والغليل اللين أتحت لهم مشاهدته فقالوا أن شكل القبر تغير إلى حد بعيد. إذ كان لون ظهوه وخصرته أحمر أرجوانياً وهو شيء غريب لغير ايض البشرية.

ينغترض الرأي العام أن اليكسندر وضع جثة على جسده لينسى له الاختفاء. وبعد مضي أحد عشر عاماً، ظهر في سيبيريا راهب يدعى فيدور كشمش ظنه الناس قلبياً وتوفي في سنة 1864 عن عمر يناهز السابعة والثلاثين وهو نفس عمر اليكسندر لو بقي حياً. لقد شيع في آخر سنة من حياة هذا الرجل الغامض أنه اليكسندر الأول بعينه وهي اشاعة قبلها المؤرخ (شيلدر) الذي كتب عن حكم اليكسندر. كما كتب (تولستوي) قصة عن الراهب «فيدور كشمش» أيد فيها فكرة أن مبدأ «الإختفاء» طريق عقل اليكسندر وهو يرقب مشهداً في ناكاتروج تجلّد فيه رجل حتى الموت. وكان في الرجل شبه كبير والفحص، ومن الجدير بالذكر أن اليكسندر هو الذي سن قانون عقوبة الجلد

حتى الموت بواسطة تموير جزءه من الدرع على الجسد المحكوم في مستعمراته العسكرية. وهذا يفسر الكدمات التي على الجثة لكنه لا يفسر سر ذهاب القيصر الى ميناء منعزل مني مثل تاكاتروج، مما يرجح القول أن القيصر خطط لإخفائه مبكراً.

تم في عام ١٨٦٥ ومرة أخرى خلال عشرينات هذا القرن فتح كنف اليكسندر فكان خالياً من جثة الرجل المكدم الذي كان يعاني من مرض السلس (ومعروف أن اليكسندر كان معافى من هذا المرض) وربما حدث ذلك نتيجة تواطؤ الدكتور تاراخوف.

يرى (موريس باليولوج)، الذي كتب سيرة حياة اليكسندر الأول، في فيدور كشمش ليس بالقيصر ويؤكد أن اليكسندر مات في دير في فلسطين. من هنا تنصل الى نتيجة مفادها أن «القيصر الغامض» - ناهيك عما حدث له - لم يمت في تاكاتروج سنة ١٨٢٥.

لا تغدو قصة نهاية اليكسندر الأول أن تكون غير نموذج روسي اعتيادي، فذلك (ايضاً الرهيب) مثلاً قد مات واهباً برغم أن مراسيم تحوله لراهب جرت وهو يحترق في غيبوبة الموت. إن الروسي وليس سواه قادر أن يبدأ حياته كمصلح فرجعي تميزه قسوته ثم ينهيها كـ «ستاريتز» مجهول الهوية، ويبدو أيضاً أن الروس يشمون دائماً ما يبدأون. جاء العرش بعده نيقولا، شقيق اليكسندر الأصغر وكانت أول مهامه قمع تمساح انتفاضة ديسمبر. وتولى بنفسه، كباقي القياصرة الرومانوفيين، استجابات قادة التأمير بلطف مبالغ به أوقع بهم جميعاً وأدانهم بقولهم وأمر يشق حسة من قاداتهم. إن هذا اللطف والتعاطف على المراوغة إحدى الصفات التي تميز بها العديد من القياصرة الرومانوفيين بها في

ذلك آخرهم.

يبدو أن سخرية القدر راقت التاريخ الروسي فحسباً تظهر بوادر إصلاح من جانب حاكم ما يظهر ثمرد ما لوأدها وأعاد خلقت عقارب الساعة وهذا هو ما حدث مع نيقولا الأول. فلم يأت عصيان ديسمبر إلا بمزيد من القسوة والبربرية الى روسيا. ووراء هذه الواجهة القمعية تكمن اللاكفاءة والكل الروسي - (وقد عبر عن ذلك (غوغول) أحسن تعبير في روايته «النفوس المائتة» و «مفتش الدولة»). لقد كتبت الرقابة الآمال الحرة وربما وقف هذا القمع وراء ولادة العصر الذهبي للأدب الروسي. إذ كان اليكسندر طاغية مهزوراً فيما كان يهذول عسكرياً أمحفاً من نفس طراز القيصر المقشول (بول). إنها الحماقة التي وهبت روسيا أعمالاً رائعة لـ (بوشكين) و (غوغول) ومسرحيات لـ (أوستروفسكي) و (أوبرا لـ غلينكا).

خلف نيقولا الأول اليكسندر الثاني الذي كان عسكرياً أيضاً ولكن بأقل عنادية. أن تاريخ الرومانوفيين هو سلسلة متصلة من القياصرة فيهم من هو ماضي العزم وفيهم من هو واهي العزيمة. ويبدو أن نهاية اليكسندر الثاني ليست أقل مأساوية عن نهاية حفيده نيقولا. فقد استهل حكمه بالرغبة في الإصلاح واتخذ في هذا الشأن خطوة جسيمة ألغى فيها نظام القنانة، بيد أنه

(١) غوغول (نيكولا) Gogol : (١٨٠٩ - ١٨٥٢).

كاتب روسي له العديد من المزيات والروايات.

(٢) بوشكين (اليكسندر) Pouchkine : (١٧٩٩ - ١٨٣٧).

شاعر روسي من رواد الأدب الحديث. نفي ليهو السياسية. له قصة (أوجين أونيجين) صور فيها الحياة الروسية مطلع القرن التاسع عشر.

(٣) أوستروفسكي (اليكسندر) Oustrovski : (١٨٢٣ - ١٨٨٦).

مؤلف مسرحي روسي.

العشاق لم يكن إلا وجهها آسر للمعبودية. فهو أجاز الفلاح شراء الأرض التي يعمل عليها ومهد لملكها رفع سعر الأرض ليحرموا الفلاح من نعمة ملكيتها فحدث أن حصل الفلاح على نصف الأرض بدلا من أن يزرع كل الأرض لسيدته ويأخذ منها قوته للعيش. ولم يدرك الفلاح أن هذا «التحرير» ليس سوى شكلا من أشكال الإستغلال فهو يزرع نصف الأرض ليأخذ محصوله منها مع إضافة عبي. مالي عليه .

تعرض ألكسندر لأولى محاولات اغتياله بعد صدور قانون تحرير العبيد سنة ١٨٦١ مباشرة، عندما حاول شخص ما إطلاق النار عليه وهو في عربته عائدا من «الكرية». كما شهدت الستان الثالثتان محاولتي اغتيال واوشكت محاولة اغتيال أخرى قام بها طالب في ذكرى اغتيال لنكولن على التجاح حين إقترب من القيصرة الذي كان يقوم بتجواله اليومي، مصوبا عليه مسلحه لكن هاجر سبيل أفضل المحاولة.

وحدثت محاولة اغتيال أخرى سنة ١٨٦٧ عندما صوب شخص مسلحه على القيصرة وهو في موكبه في باريس بمعوية ناهليون الثالث وملكوي بروسيا وبلجيكا، لكن الرصاصات الأولى أصابت أحد الجنود ثم انفجر المدس في يد المهاجم وهشما.

شرح المتآمرون على حياة القيصرة باستخدام الديناميت بعد أن جرىوا الرصاص فكان أولهم في ذلك إرهابي يدعى «زليابوف» الذي وضع حوالة من النتروكليسرين على خط سكة حديد ليحطم القطار شذرا مدرا، لكن حربة مرت وقطعت سلك الإتصال فلم يحدث شيء عندما ضغط زليابوف على زر التفجير. ثم حاول ذات الإرهابي محاولة أخرى فحفر نفسه ملجأ بعمق ثمانين

باردة ووضع المتفجرات تحت خط سكة الحديد. ففجر القطار الذي لم يكن يحمل الأمتعة سوى مشاع القيصرة الذي غير موعد سفره ووصل موسكو قبل حدوث الانفجار. وبعد مرور شهرين وتحديدا في شباط ١٨٨٠ حدث إنفجار هائل هدم فيها من القصر الشترى للقيصرة الذي كان القيصرة سيتناول فيه عشاءه لولا تأخر وصول أحد الصيوف. ثم أدخل تجار بالسر حوالة ديناميت يصل وزنها ستة كيلوغرام الى القصر الملكي واخفها في موقد صالة الطعام والتي زرعت بانفجارها لدى أهل شارع بطرسبورغ الذعر، لا حرصاً على سلامة القيصرة بل على سلامتهم ومنذ حينها تجنبوا الذهاب للأوبرا إلا إذا تبينوا أن القيصرة لن يحضرها ..

عززت محاولات الاغتيال تلك تحفظية القيصرة وتعاطف معها تشدد الشرطة وصرامة الرقابة. لكن القيصرة كان يعمل يوم مقتله في الأول من آذار سنة ١٨٨١ خطة إمبراطورية مقترحة كخطوة أولى على طريق إقامة حكومة نيابية. لقد ألفت الشرطة في اليوم السابق لمقتله، القبض على الإرهابي زليابوف مما اشاع السكينة في نفس القيصرة. لكنه سلك عند عودته لقصره من جولة تفتيشية لاحدى الفرق العسكرية، طريقا غير الذي تعود المرور فيه، فيها قام أعوان زليابوف، من باب الإحتياط أيضاً، بزرع عملاصهم في جميع الطرق المؤدية الى القصر. واذ مرت حربة القيصرة التي أحدهم بقتلة حطمت باب العربة وأصابت مرافقه الحامض وغلاما معه فخرج القيصرة جزءا من العربة لبري حارسه الجريح، فانتفجرت قنبلة أخرى وراه. صرعت المغتال وقطعت ساقى القيصرة. وبعد مرور ساعة تقريبا أسلم القيصرة الروح في قصره بين أفراد عائلته .

ليس من الغريب أن يشرب مشهد موت كهذا الصغينة في نفس إبه ألكسندر الثالث رفض معها أية فكرة إصلاحية. وكل ما نجح فيه المتآمرون

تعميق القسوة عليهم فشق القيصر للتأميرين وكلف رئيس الشرطة (ف. ك. فون بيلهف) - الذي أعتيل لاحقا بقنبلة - بمشيط البلاد والقضاء على جميع التنظيمات الإرهابية في روسيا. وأعلن اليكسندر إيمانه العميق بعباديء الاستبداد المطلق في مذكرة كتبها الديني الرجعي (بوييد ونوستيف) والذي أضحق الكردينال الأسيب<sup>(١)</sup> للقيصر. واتخذ نظام جديد للرقابة ثلاثى معه أدنى بصيص أمل للإصلاح. كان التزارفيتش<sup>(٢)</sup> اليكسندر رجلا جبارا قوي الشكيمة، كما يصفه بيرس، جمد الفكر العام بيد أنه عاش مسكونا برهاب الإحتجاج<sup>(٣)</sup> فقد إعتل أبوه السلطة وهو في الثالثة عشر من عمره كما يعتل الجندي جبلا متصدعا ورأى آية طيلة الثلاثة عشر اللاحقة وهو يحكم بمصا من حديد، لكنه عاش دوماً شبح الحروف على حياته فامضى حياته مسجين قصره. أتاح اليكسندر الثاني لأعدائه فرصة النيل منه بتجواله منفردا بين صفوف العامة وعدم تشدده في إقامة نظام أمني صارم، لذا عقد إنه العزم على أن يكون محصنا فعاش محاطا برجال شرطته الذين كانوا أشداءا يتمتعون بسلطة قمع وكبح أي بادرة تمرد. وأمس قوة أسماها «قبطان الأرض» في المناطق الريفية والتي لم تكن، في الواقع، إلا تشكيلات شرطة لها قوة بطش ولديها صلاحية قمع أي عصيان، مهما كان ضيلا، بقسوة بالغة. ومع ذلك لم توقف هذه الإجراءات محاولات إعتيالي القيصر في فترة حكمه. فقد خرج القطار الإمبراطوري، سنة ١٨٨٨، عن خط سكة الحديد في ظروف غامضة. وبرغم إعتقاد الكثير من المؤرخين أن هذا الحادث تسببه رداءة العوارض الخشبية للسكة الحديدية، «فان جاولس لوه يسجل في كتاب عن اليكسندر الثالث قائلا:-

(١) منصب رفيع المقام في البلاط الروسي.

(٢) التزارفيتش: هو وريث العرش.

(٣) الحوف المرضي من الاماكن المغلقة او الضيقة.

تفاوت عربة القيصر أشلاءا مبعثرة وترامى خدمه المخلصين على الأرض بين ميت ومحتضر وعندما طافت عيناه باحثة عن أطفاله وفي نفسه خشية عظيمة على حياتهم... طوقته إيتته الصغرى بلذاعيتها وهي مذعورة قائلة: «آه يا أباه، سيأتون الآن ليقتلوننا جميعا».

ليس من المعقول أن دمارا مأساويا كهذا نجم عن رداءة عوارض خشية. لقد حبس القيصر نفسه في القصر الذي قتل فيه بول الأول خائفا من تناول أي الغمة لم يطبخها طباشخوه الفرنسيون، محروما من ممارسة أي نوع من أنواع الرياضة ومدعنا بالمقابل على تناول الوجبات الشغيلة لذا فليس من الغريب أن يموت قبل أوامه سنة ١٨٩٤ وقد حطمته محاولته اليائسة للهروب من التاريخ والقدر المحتوم.

كان ابن القرية كريكوري راسبوتين ولما مات اليكسندر الثالث جوالا في سبيريا بيته «ستارتيز». وقد حضر نيقولا الثاني ذو الوجه المصفر والخلق الدمث والمتذبذب مراسيم الجنائز مع فتاة جميلة حزينة العينين مستزوجهها لاحقا، وكانت خجولة، عصبية، متديبة وعبء لزوجهها بنفس الإخلاص في الحب الذي يجعله هو الآخر لها.

استعد آخر مشهد للمأساة أن يبدأ قريبا. ومن الأجدى لـ «ر. د. شارك» أن يسمي هذا الفصل عن تاريخ روسيا «حصار الرياح».

## الفصل الرابع

### كان الله في عون روسيا

كانت مدينة بطرسبورغ - عندما قدمها راسبوتين سنة ١٩٠٥ - مدينة الغموض الموحش والغاطة باشباح الماضي باغتيالاته واضطهاده ووحشته. وها هو تولستوي يطل علينا في روايته «أوربيل» مجسدا صورة نابضة بالحياة عن هذه المدينة فيقول: - مر قرنان من الزمان مرور الحلم . . . وبيطرسبورغ واقفة على حافة الهاوية غارقة في مستقع الوحشية تحلم بقوة لا يكبحها حد ويجد لا يزول . . . فتمردات البلاط القيصري والإغتيالات والإنتصارات والإعدامات الدموية انقضت وكأنها لم تكن إلا إتعملا وقتيا عفا عليه الدهر .

لقد إشغلت ضعاف النساء قابليامين شبه الالهية في سير أمور الحياة. وتصور مصير أمم بأكملها في المخادع الساخنة المشبوبة بالعتق والغرام. وسار بحساسة واقدم شباب تشحذهم مهمهم بعد ان ترك الحراث والكدح على ابدسهم آثارا لا تنحفي ليرتقوا سلم العرش ويقاسموا السلطة . . . ويتشثروا في مخدع الملكات والشقلب في ترفهن البيزنطي . . .

عاشت بطرسبورغ حياة قلقة، باردة، متخمة بكآبة موحشة تعج بلبالي الصيف الضيعة، الشهوانية، للمجنونة وليبالي الشتاء الأرق بين طاولات القمار

(١) بطرسبورغ هي مدينة لستفرد ثم استعادت اسمها في عام ١٩٩١. وسأنت مدينة القفيس بطرسبورغ.



الخضراء وحشخشة الذهب والموسيقى التي يدور معها الراقصون من خلف النوافذ وعربات التريوكة<sup>(١)</sup> والتعرج الوافدين والمبارزات التي تجري مع إنبلج الصباح . . . . .

تأسست في الأعوام العشرة الأخيرة شركات ومؤسسات كبرى اخرجت في وقت قياسي رؤوس أموال بملايين الروبلات، واقامت مصارف وصلات موسيقى وساحات تزلج ومساكن عمومية من الكونكريت والزجاج وفيها يستغل الناس أنفسهم مع الموسيقى والنساء العاريات والظباء والشبياتيا . . . . . وسرى في المدينة وباء الإنتحار فعجت المحاكم بنسوة مصابات بالهستيريا يستمعن بلهفة الى التفاصيل الدامية البشعة للجرائم، وغدا كل شيء سهل المثال . . . . . النساء والأغنياء . . . . . فشاعت الفاحشة والرذيلة في كل مكان.

هنا وصل فلاح امي ذو عينين ساهيتين وقوة رجولية هائلة الى أعلى مراتب الخطوة لدى القيصر . . . . . مقتربا من العرش الإمبراطوري، ساخرا ومستهزئا وشارعا في حيله الشائنة على روسيا بأكملها وكأنها لعبة في يديه . . . . .

لم يبالغ تولستوي في قوله إلا قليلا. فهي قد تغيرت حتى ليجد من شيدها (بطرس الكبير) صعوبة في التعرف عليها لو بقي حيا وربنا صحت طرفة كليمنصو في أمريكا على مدينة بطرسبورغ فهو يقول أنها الامة الوحيدة التي اجتازت مرحلة البربرية الى مرحلة الإتحطاط دون المرور بمرحلة التحضر.

ادركت بطرسبورغ نشاطاً فنياً مفعماً، وبلغ فيها الأدب والموسيقى

(١) عربة روسية تجرها ثلاث جراد متزامنة.

(٢) كليمنصو (جورج) Clemenceau (١٨٤١-١٩٢٩) صحفي وسياسي فرنسي. شغل منصب رئيس الوزراء سنة ١٩١٧ - واحد مهتمني التصار عام ١٩١٨. لقب بابي التصار. وقع معاهدة فرساي سنة ١٩١٩.

الروسيين أوج عظمتها لكن هانتها ألمرت إزاهير غربية وملموسة، فأغلب أعلام الفن الروسي قد غادروا الدنيا أمثال دويستويفسكي، تشيخوف، تورجينييف، تشايكوفسكي، ميورجيسكي، ويورودين ولم يبق من الأفلاذ إلا اثنان هما: تولستوي وريمسكي كورساكوف وكلاهما شجع الليل الصوقي والواقعي لأهل الفكر في بطرسبورغ، فتولستوي قد شهر فلسفته التي تعتمد اللاعنف، فيما ساند ريمسكي كورساكوف هذا الميل بطبيعة اوبراه الأخيرة المساة «مدينة كيتش اللامرئية» التي بلغ فيها ذروة التصوف معبرا فيها عن أسدق الحلجات الروسية .

من جهة أخرى يرتع جيل الشباب من الكتاب مثل كودكي انفلابيون احتشاعيون، برغم ان اغلبهم ظنوا بانفسهم انفلابيين في الفن فانعمسوا لهذا السبب في رمزية مبهمة ونشأوية حاملة خيالية. ولعل اليكسندر سكريبابين كان الأكثر جدلا في عصره والذي آمن أن الموسيقى مستحده يوما ما مع مختلف الأشكال الفنية الأخرى لتخلق تجربة فنية عظيمة القدرة، يصبح الناس يفضلها أمة أو أشباه الأمة بمجرد الإنصات إليها - لكن موسيقاه في الواقع لم تصل الى هذا الحد من الإبداع وعناوينها دليل على ذلك : قصيدة نشوة، قصيدة الهبة، قصيدة النار. فهي موسيقى تخلق نشوة حالة مستمرة أشبه بالرغبة الجنسية المحمومة التي لن تصل الذروة أبداً . . . . . موسيقى شهوانية، موهنة للأعصاب والقوى الحسية. وسكريبابين نفسه كان شخصا أنانيا متساهلا الى حد بعيد وتخليعا لم يمر بنائبة وانتهت حياته في ١٩١٥ بسبب بثرة على شفتيه .

كان أندرييف وارتيشاشيف من بين أكثر الكتاب شعبية في روسيا وطبع أدب كليهما بحسبة تشاؤمية معينة. لكن الأخير افتتح سجله الأدبي بتفأولية أشبه ما تكون بتفأولية بطل نبشته في رواية «سانين» الذي يزودي الأخلاقية

كان لهذا الكتاب المطبوع سنة ١٩٠٦ أثر كبير على الشباب الروسي الذي كان توافقا لوضع أفكاره موضع التنفيذ. وهو الكتاب لا غيره الذي تقع عليه المسؤولية الأكبر في شيوع الفاحشة والزيف. لكن ارتشيبيشف نفسه كان نموذجاً للإنسان الروسي الذي سحره «ساتين»، فيما ساد الإنتحار والحياة الكئيبة في ثانيا روايتيه الإثنتين الياقيتين، أن ارتشيبيشف لشخصية غريبة الأطوار تستحق اهتماما أكبر مما أولته إليها البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية<sup>(١١)</sup>.

أما ليونيد أندريف فكان أكثر نشاطاً وأشد تعبيراً عن الروسي النموذجي من ارتشيبيشف. وفي ذلك اسهب غوركي في الحديث عن جدل أندريف الشهير وولعه بفكرة الإنتحار، ونوبات المرض التي كانت تتشابه لأيام عديدة والناجحة عن إفراده في شرب الخمر، وغريداته مع المومسات والتي لم يكن يعتبرها الا نوعاً من عقاب الذات. لقد تطلع اندريف الى الحياة فوجدتها مجرد سراب وهزيمة... فما هي إلا لعبة باللغة السرية صاغتها المعمورة منذ غابر العهود وكان على الإنسان الصادق مع ذاته الإنسانية الثابت الخطى قتل نفسه منكرًا للتعبير عن امتعاضه ورقضه هذه الخديعة.

يطلق أفضل وصف لبطرسبورغ عندما جاءها راسبوتين لدى (أندريه بولي) في روايته «مدينة القديس بطرسبورغ»، الصادرة سنة ١٩١٣، والتي تعالج قضية صراع بين اب بيروقراطي وابن إرهابي: حيث يتلقى الإبن أوامر بقتل ابيه ثم تسير أحداث الرواية في جو من الغموض أقرب الى الكابوس... تنتهي بتبليد موقوفه موضوعه في علبه سردين. لقد استعان الكاتب كثيرا بالمعصر

(١١) اقرأ أيضاً (قوة للاسلام) و (اصول الدفاع الجنسي).

الأمسيوي العنيف واللاعنفاني المظموور داخل الشخصية الروسية حين منح الى البسدار الأب والإبن من سلالة النشار وإيؤكد في هذا قول نابليون: «ماخذش روسياً وسوف يظهر لك بشخصيته التارية». أن خلف بطرسبورغ راسبوتين فبلة أخرى توشك على الانفجار في أية لحظة...

ليس من الغريب، تحت ظروف كهذه، أن تكون بطرسبورغ يقولوا الشاهي مدينة الإتحلال الخلفي والجنسية المباحة برغم وجود قدر كبير من الصوفية الدينية التي عجلت بدورها في هذا الإتحطاط. فهي تضم عنصر اللاأخلاقية ومثالنا لذلك الفكر الديني الأكثر تأثراً حيثل (ف. ف. روراثوف) والذي كان صحفياً سياسياً ايضاً فهو قد اعدّ السيامة ليست بلدي شأن قتره يكتب لصحيفة «هافطة مسقلا بإسمه الحقيقي ثم يكتب مقالا ثوريا تحت إسم مستعار... نتيجة لذلك غدا الخلق القويم ضرورة حياتيه يمكن الإستغناء عنها بسهولة ويسر.

لقد تحولت بطرسبورغ، في نصف قرن، من مدينة البيروقراطية والنظام العسكري الصارم الى مدينة الفن والتشدهور الخلفي، فزخرت بالأثرياء الذين يمتلكون حيا فيها كالمليونير بيلايف الذي مول الموسيقار سكريابين، ومانسوتوف الصير المتحمس للأوبرا والذي روج لفيودور شاليابين، أعظم مغني أوبرا في العصر الحديث، وكان هناك أيضا سيرجي دياكليف الذي بدأ مشواره الفني بطباعة جريدة فنية باهظة الثمن والذي يعود الفضل لباليته في إضفاء سحر فني جديد لروسيا. إكتشف دياكليف موهبة تلميذ لريمسكي كوساكوف يدعى سترافيكي وأولى يعدها اهتماما وتشجيعا أكثر لسيرجي بروكوفيف، وهو المسؤول عن تقديم الراقص البسديع فاسلاف نيجينسكي الى بلدان العالم الأخرى.

إن قصة حياة نيجينسكي توضح بشكل دقيق أهم ميزة لبطرسبورغ في العقد الأول من القرن الحادي: ينحدر نيجينسكي من عائلة فقيرة لكنه حصل على زمالة دراسية في المدرسة الإمبراطورية للرقص، فوجد نفسه في أواخر سني صباه مندجماً بالحياة الاجتماعية الصاخبة للعاصمة. وفي ليلة ما، زار نيجينسكي وصديقه انتاتول بورمان قصر الأمير يوسيف (والد الرجل الذي قتل راسبوتين في النهاية) والذي حوله الأمير إلى صالة قمار وناد للفنانيين - ويبدو أن الحكومة أبدت قيام مثل هذه المؤسسات الخاصة بدافع توفير وسائل الربح السريع لشهدة الوضع الشعبي القلق - ربح بورمان ونيجينسكي خمسة روبلا واقترح الأخير إنفاقها في دعوة بعض الغنائيات للعشاء، فالتفت ست مومسات قذرات وذهباً إلى مطعم متواضع حتى لا تشعر النسوة بأن المكان أرفع من مستواهن. طلب بعدها نيجينسكي عشاءً فاخراً من خارج المطعم. إنقضت النسوة على الطعام بنهم بالغ سبب عشيانا لنيجينسكي وبورمان فامتعا عن الأكل. وما أن اكملن طعامهن حتى بدأن الأغواء وعندما رد بورمان إحداهن حاولت ضربه بزجاجة الحمر لكن نيجينسكي إلتزعهما من يدها. ثم وزعا ما بقي لديهما من المال وهربا. سأل بورمان صديقه عن سبب إصراره على دعوة هؤلاء المومسات فأجابته برغبته في مشاركة ثروته الجديدة مع يؤساء الناس الذين كثيراً ما كان يشفق على حالهم وهو في طريقه للمسرح، لكنه قال في النهاية بأن الأمر كان فظيماً وأنه لن يعيد الكرة مطلقاً.

تجمل عدم تماس غريب بين الطبقتين العليا والدنيا في المجتمع الروسي لم تراب صدعه حتى النوايا الطيبة، وهذا هو السبب الأكبر وراء إندلاع الثورة في روسيا. فربما أحب الروس قيصرهم وربما عبدهو لكنه لم يكن اليهم قريباً كحالة بعض ملوك إنجلترا.

لم يلق نيقولا الثاني - وأسوء الطالع - حياً من غير أفراد عائلته، بل تحول ضده حتى لطفه ووقته وسحر جماله والتي غلب فيها غيره من القيصرية. كان أبوه مستبداً عصيباً لكن وزراؤه عرفوا في أقل تقدير على أية أرضية يتعاملون فيها لم يكن نيقولا قويا ولا ضعيفاً بل امتسلاً مع شيء من الصلابة والعناد. كتب بيرس قائلا:-

لقد زرع في وزرائه حين يستقبلهم انطباع رضاه التام عما يفعلون، وهو انطباع جعل منه سحر شخصه الفريد قناعة لديهم. ولم ينطق مرة وهم بمعبه بيت شفة قد تعكر صفوهم ثم تأتي المفاجأة الكبرى حيث يتلقون رسائل إقالتهم من مناصبهم عن طريق البريد بعد هذا اللقاء مباشرة . . . . .

ثمة حكاية تمجد تذبذب شخصية القيصر: كانت روسيا تحاول تسديد قروض فرنسي. وهنا زار مصرفي فرنسي يدعى (نيتزين) القيصر وأوضح له أهمية إجراء بعض التنازلات للشعب ليتجنب ثورة مستتلع بلا ريب. لقد سر نيتزين باستقبال القيصر له واللطف الذي احتضنه به فظن انه نجح فيما فشل فيه الآخرون. لكنه فوجيء بسن القيصر قانوناً يؤكد فيه سلطته المطلقة بدل إحداث إصلاحات شعبية. ولم يفاجأ وزرائه بذلك فهم لا يتوقعون منه غير هذا.

وقع نيقولا وهو يافع في غرام (اليس) أميرة هيس وحفيدة الملكة فكتوريا. كانت فتاة رقيقة خجولة وفيها مسحة حزن. وقد تزوج الإثنان رغم المعارضة العائلية الشديدة فأصبحت الأميرة اليس، التي نشأت كإمرأة إنكليزية، التتارينا اليكسندرا. لكنها لم تتوافق تماماً مع حياة البلاط: فهي أقل ثقة بنفسها من قلة ثقة القيصر بنفسه، مزاجية وعصبية ويتحول خجلها أحياناً إلى هستيريا.

(١) التتارينا: لفظة مشتقة من (التتار) وتعني زوجة القيصر.

كانت تكبره الأحاديث العابرة وغالباً ما تركت لدى زوارها إنطباعاً أنها راقية عن وجودهم. كما لاحظت سيدات البلاط جنبها وتردها. ويروى أن زومة أوراق سقطت من يدي تانيف رئيس المحكمة الإمبراطورية العظمى وهو في حفرة التزارينا فانحنى على الفور لإلتقاطها ثم تتهبت لفعالها فاحترت حجلها.

كانت والددة القيصر أشد المعارضين لهذا الزواج ولم توافق عليه إلا وزوجها على قراش الموت. لكن حباً لزوجة ابنها لم يدخل قلبها وباتت للملك خصمها في البلاط القيصري وجعلت من انتقادها محور أحاديثها مع سيدات البلاط. لقد تجتبت اليكسندرا الظهور الإجتماعي قدر الإمكان مما حرمها من وجود دعم كبير لها. من جانب آخر لم يعد البلاط مركز الحياة الإجتماعية في بطرسبورغ بل اتخذت مكانه صالونات سياسية قليلة الأهمية مما عمق إنتشار المكر والحديعة والغموض. وبالتالي شعر نيقولا وزوجه بأنها محاطان بالأعداء من كل صوب فأمضيا جل وقتها في «تزاريسكو ميلو» حيث يسبحان في جو من الشاعرية يمنحها سعادة لا حد لها. لقد كفل التجاح زواجهما من وجهة نظرهما في أقل تقدير - فيها لم يكف عن الحب والمودة والوصال أما روسيا فقد رأت في هذا الزواج كارثة عظمى: فالقيصر رجل متذبذب ولا مسؤول وما يؤكد هذا القول كارثة هودينكا التي وقعت يوم تنويجه. فلو ملك قدرأ أكبر من الإحساس لما تردد في إيقاف سير الاحتفالات فوراً. وعندما وصلته أنباء اندحار لأسطول الروسي في «سوشسبا» حلق قائلاً «يا لها من كارثة رهيبة» ثم واصل لعب التنس. وهذا دليل أنه قد أطر إحساسه ليدرك هواجس وخلجات عائلته فقط... وظل يعيش في عالم أحلام اليقظة.

لم يكن هذا الأمر ليناأ أهمية تذكر لو تزوج نيقولا امرأة أخرى. فالتزارينا كانت تدور في فلك ذاتها أكثر من القيصر وهي لم تكف عن طلب حماية واهتمام

الأخرون بها وحينما أخذت مشاغل الدور القيصر في بداية زواجها وصرفته عن دراهجيات زوجته، شرعت في الشكوى المستمرة من وحدتها وتنجحت أن تزوج في نفس القيصر شعوراً جعله يصب جم طاقاته لمصلحة عائلته لا لمصلحة البلاط. فعندما يقولوا منذ ذلك الحين ربيع حياتها الدائم وقد كانت شديدة الحول عمل منصبه لذا كانت ترفض أي إقتراح سيحجم ملكه بدستور معين ويحد من حريته المطلقة. كان نيكولا «نيقولاه» الذي يجب أن يظل شامخاً للأبد. إن امرأة أخرى سوية إنسائياً مكانها كانت ستترك الوضع وحرجه لكن الكسندرا كانت كالدجاجة الراقدة على بيضها.

تكمن المشكلة في أن نيقولا كان بمزاج يتوافق ورغبته في إقامة ملكية دستورية - كما أشار لذلك سير برنارد بيرس. فهو يعرف كيف يقيم المواقف ويتخذ القراره لكنه سيخبر من رأيه في غضون خمس دقائق. ولو نيسر له رئيس وزراء قوي الشخصية كما كان صديق ابيه «وت»، لأضحى قيصرًا عظيمًا. إلا أنه أرضى الحيل لمزاجيه لتفوقه حيث تشاء.

باتت النتيجة المحتسبة لتلك السلوكية أن يكون النصف الأول من فترة حكمه مشوشاً وقاصراً... بدأه بسحق الطموحات التحررية الرامية الى تشريع دستور للحكم معلناً بأنه سوف يسير على نهج أبيه في تطبيق مبدأ السلطة المطلقة واصفاً الطموحات الشعبية في إقامة دستور بالأحكام اللامنطقية».

يكمن أهم اسباب معارضة زواجه في كاثوليكية الأميرة (اليس). لكنها وبرغم ذلك اعتنقت المذهب الأرثوذكسي واصبحت له أشد المتعصبين في زمن

(١) الإيساطي: شخص يتوجه باتباعه وإشراقه الجماعاً كلياً أو شبه كلي نحو ما هو خارج عن الذات.

قياسي، وربما عمقت خيبة أملها في أول سني زواجها ميلها الصوفي هذا لكن  
الحماسة الدينية تسري في عائلتها إذ أوجدت أختها اليزابت، المتزوجة من  
الروحاني نصف المجنون الغراندوق سيرجيوس، نظاماً أصبحت بموجبه رئيسة  
دير للراهبات عقب إغتيال زوجها. ولم يمض وقت طويل حتى إمتد إهتمام  
التزارينا بالمذهب الروحاني وبجلسات تحضير الأرواح بفضل تشجيع صديقتها  
ميليتا واناستازيا. لكن جذوة الرغبة هذه سرعان ما تبددت لظننها فيها إنما لا  
يرضي الرب بينما زاد إهتمامها بالجانب الصوفي الخاص بالسحر والتنجيم.

أنجبت التزارينا بحلول عام 1901 أربعة إناث، دون أن تلد وليداً ذكراً  
للعرش القيصري، وبات هذا الموضوع للقيصر وزوجته الشاغل الأكبر  
لتفكيرهما. وظنت التزارينا أن أعداءها قد اتخذوها لهذا الأمر مدعاة للسخرية.  
وهنا دعت الغراندوقة ميليتا «صانع معجزات» فرنسي يدعى فيليب نيزه  
فاكوت وهو ابن قصاب قرية التفتة ميليتا عندما كانت في «كومين» وتأثرت  
بقدرته الفائقة على الترويم المغناطيسي فاقنعتة بالقدوم الى روسيا. وهي قد عرفت  
على أثر عيجه لروسيا للقيصر وزوجه بصفته «الرجل المقدس المخلص». لم يكن  
فيليب طبيباً بالمعنى الفعلي لكن ميليتا أفنعت القيصرة أن يمنحه لقب الطبيب  
المسكري ومستشار الدولة لتكتب ممارسته الطب في روسيا صفة شرعية.  
قالت له التزارينا أن يكون لي غلام فأخبرها أن لها أن تنشئ ذلك وسببها إياه  
باستخدام قواه السحرية الغامضة. كان يملك في الإياه قوة حملت معها التزارينا  
حملاً وهمياً فانتفخت بطنها وارتدت لأجل ذلك أبواب الحمل. بيد أنها لم تر  
وليدها الموعود ثم أخبرها طبيب البلاط بعد أن فحصها بأنها لم تكن حاملاً  
أساساً. لم يخدم هذا الإخفاق سمعة التزارينا في روسيا واتخذها أعداؤها مبرراً  
للتزعم بأنها هستيرية تماماً. وانتهى الأمر بإعادة فيليب الى قريته ليون عملاً

بالمدايا - فالقيصر وزوجته كانا على جانب كبير من اللطف والعلية يجعلها لا  
يحملان أي ضغينة له - ثم توفي بعد ذلك بقليل.

غص بلاط القيصر بصانعي المعجزات والعرافين فظهرت امرأة معتوهة  
إسمها (داريا أو سيبوفا) خالوا في ثورتها وهذرها من وحي الله، وكان هناك  
أيضا رجلا «مبروكا» آخر، أعرجاً مبتور الذراعين وذا حنك مشوه اسمه (ميتيا  
كوليايين)، جاء من منطقة دير (اويتيا بوستين) والتي وصفها دوستوفسكي في  
رائعته (الأخوة كارامازوف). وقد لاحظ قسمة الدير أن هذره يأتيه (وهو في  
نوبة صرع) أشبه بالتنويمات تولى ترجمتها فتدلفت اسمه (ايغوروف) أصبح فيما  
بعد رفيق كوليايين<sup>(1)</sup>.

وصل كوليايين البلاط وطلب إليه أن يتبأ نصيب التزارينا من إنجاب  
ورثت للعرش فغاب متشياً في عالم آخر ثم شرع بصراخ سبب هلعا للتزارينا.  
لكن ايغوروف أوضح الأمر قائلًا بأن الوقت لم يحن بعد للتنبؤ بموضوع كهذا.  
ومع ذلك استمرت التزارينا في لقاءها بكاليايين وسجلت آخر مقابلة بينهما في  
عام 1906.

شقاق الأسقفان ميرموجن وتيوفان ذرعاً بطوفان الشعوذة الذي بدأ يخمر  
السلطان القيصري وادركا أن الوقت قد أوف لبدء محاولات إعادة التزارينا  
لإحلاسها القديم للكنيسة الأرثوذكسية. لكن الأمر يستدعي وجود قديس  
روسي يخلق معجزة. فاقترحا واحدا يدعى (سيراقيم) من (ساوف) سبق وأن  
تنبأ في بواكير القرن التاسع عشر بأحداث نالت إعجاب الرومانوفيين. ثم اقترح

(1) فتدلفت: رجل وظيفته العناية بالكنايس وأرضها وبالجنائز...

انضمام سيرافيم الى قائمة القديسين وحدث ذلك فعلا فتحول، برغم معارضة الكنيسة الشديدة، من الناسك سيرافيم الى القديس سيرافيم من ساروف. حملت التزارينا بعد ذلك وانجبت ولدا فتعززت مكانة القديس لدى القيصر وهذا الأخير من حينها أشد المخلصين له والمعتقدين بقدراته. ومن الأدلة على ذلك إرسال القيصر ميداليات تحمل صورة القديس سيرافيم لجنوده إبان الحرب مع اليابان مما حدا بأحد الظرفاء لئن يقول: لدى اليابانيين رصاص ولدى جنودنا ايقونات. نستشف من ذلك أن القيصر قد فقد الملكة الواقعية التي كانت ستجعل منه قائداً قديراً.

بروي «وت» قصة تجمد القبول أعلاه. اذ اقترح سفير روسي أمحق في القسطنطينية أن تحتل روسيا مضيق (البيفور) بعد أن نسج لذلك عدة حوادث كذريعة، ثم ترسل اتباء هذه الحوادث لا للقيصر أو لحكومته بل لممثلي روسيا الإقتصاديين في لندن لتسويقها بشكل ما وأن يعثروا بركات مستحقة (لأوديسا وسيقاستبول) حيث تتطرق منها اساطيل صغيرة لاحتلال المضيق. لقد جهد (وت) حتى أقنع القيصر أن عاقبة فعل كهذا حرب اوروية لا محالة، وعندما تحدث «وت» الى (بوييدونستوف) - ذلك الرجعي القديم - علق قائلاً: «ليكن الرب يعون روسيا».

طغى التخبط واللاكفاءة على السنوات العشر الأولى من حكم نيقولا دون أن يتمخضا عن نتائج خطيرة. لكن الغضب الشوري كان آخذاً بالفوران، واستند من فضيحة عام 1897 أي بعد تتويج القيصر بعام واحد مدأ له. نمت بذور الفضيحة حين اعتقلت الشرطة برئاسة (بيليهف) فتاة جميلة قطفت من عمرها العام الثامن عشر تدعى (ماري فيتروف) بتهمة اقتناء بعض الكتب «المنوعة». وتلك ليست بالتهمة الخطيرة ولا تستدعي، في الحالات العادية،

أكثر من نفيها مؤقتاً عن بطرسبورغ وترقيين قيدها في الجامعة. لكن الشرطة سجنت ماري فيتروف في حصن بيتربول لشهرين كاملين دون أن يعرف أحد شيئاً عن مصيرها سوى ما شاع من قول حول إغتصابها وتعذيبها على يد قوات الشرطة. ثم نجحت أخيراً وساطات أصدقائها في الحصول على إذن بإطلاق سراحها، لكن ماري إنتحرت قبيل إطلاق سراحها برش بارافين أخذته من قنديل الإضاءة في غرفة حجرتها على حاقيات فراشها ثم أشعلت ودمت بنفسها بين أحضان السنة الثيران الملتهبة. وعاشت بعد هذه الحادثة يومين فقط لم يتم علاجها لإبلاغ والدتها بالحريق حتى توفيت في الثاني عشر من شباط سنة 1897.

لم يدع الشوار تلك الفضيحة تمر سدى، فأحسنوا استغلالها فيما كان الظرف المحيط بها جد مفرغ احتاج منهم لتأججه قليلاً من الترويج. فالفتاة عاشت ليومين بعد محاولة الإنتحار ورغم ذلك لم يتم إعلام أهلها. فلم هذا التكنم الشديد؟ إنها الخشية أن يفقه والدتها بما جرى خلال شهري سجنها. ثم ما الذي دعا فتاة جميلة موهوبة للإنتحار قبل إطلاق سراحها بقليل؟ قامت الحركة الشورية بتوزيع آلاف الكراسيات إنهمت فيها الحكومة بالإرهابية ولم تغلغ كل محاولات الشرطة في إيقاف انتشارها. وقد قال الكونت (بول فاسلي) معلقاً على مجريات الأمور قبل إندلاع ثورة أكتوبر 1917: «إنها بداية الإحصار الذي سيوشك على الإطاحة بعرش الرماثيين».

بدأت بعد ذلك فرقة إرهابية صغيرة بإغتيال رجال شرطة ورجال دولة آخرين عشوائياً. ثم اندلع قتيل الحرب الروسية - اليابانية في عام 1904.

كانت روسيا تنجرف نحو أوار الحرب مع اليابان لعدة أعوام خلت ولم يألو (سيرجيوس وت)، أحد أبرز رجال نيقولا، جهداً في تحذير القيصر من



مغنية الوقوع في حرب مع اليابان. لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. كان الصراع دائرا بين روسيا واليابان حول كوريا منشوريا، فبعد تمرد «بوكسر» سنة ١٩٠٠ استغلت عدة دول ضعف الصين فاحتلت روسيا منشوريا في محاولتها السيطرة على الشرق الأقصى بعد إنشاء سكة حديد ترانس - سيبريان وهنا طفق نزاع بينها وبين اليابان حول كوريا الشمالية والذي لم يكن فيه الروس على حق ومع ذلك رفضوا العدول عن مواقفهم. وعليه قدم بطرسبورغ رجل الدولة اليابانية الكبير (إيتو) وفي جعبته حلاً للنزاع سلمياً، لكنه لم يلق من الروس إلا الاهانة والتوبيخ. لذلك شرع اليابانيون بالتقدم نحو كوريا الشمالية وأعلن الروس الحرب التي إنعدمت فيها الكفاءة لجنرالات روسيا فتنازلوا سريعا أمام ضغط الجيش الياباني عن ميناء (أوتو) ثم (ساكدين) فيما صدرت الأوامر للأسطول الروسي بتدمير الأسطول الياباني والاتصاف على نصف العالم. وقد أوشك الأسطول الروسي على إشعال حرب مع إنكلترا بفتحته النار على أسطول سيد بريطاني قرب صفاق «دوجر» ظانا أنه أسطول تابع للبحرية اليابانية. ثم وصل الأسطول الروسي أخيرا إلى المياه اليابانية لكنه سحق وأبهد في توشيا على يد القوات اليابانية. بعدها أرسل القيصر «وت» لعقد هدنة مع اليابان فنجحت مساعيه برغم توقعات الكثيرين بالفشل. . . ولم تحصل روسيا على موطن قدم لها في الشرق الأقصى.

(١) وردت عن (ادجار والأرس)، الذي أرسله (البريد الروسي) للتحقيق في حادثة سفينة دوجر إحدى المعلومات العرضية عن ماعية نظام الحرية الروسية ذاكراً أنه وجد في (فيكو) في اسبانيا اثنين من الضباط الروس الحمقى اللذين كانا حاضرا في الحادثة وقد شرحا له كيفية حدوث الاشتباه بين الأسطول الياباني والأسطول الصيد الانجليزي بسبب القصاب. ابرق (والأرس) حكاية الضباطين بسرعة لروسيا لصدورت له الأوامر بمواصلته رحلته إلى (تاتيكين) الميناء التالي (فيكو) والذي تتوقف فيه البحرية الروسية - لأجل الحصول على تفاصيل أكثر عن الحادثة وهناك اكتشف بأن الضباط اللذين أخبراه عن الحادثة قد أعدوا وألقوا طعماً لجنان البحر.

إن من بين من تقع على عاتقهم مسؤولية نشوب الحرب رئيس الشرطة (يلهف) الذي قمع الحركات الثورية المناهضة لحكم الكسندر الثالث وربما كان أكثر رجالات الدولة بغضا في روسيا. فقد اعتقد أن «حرباً ناجحة قصيرة الأمد» ستمنح القيصر شعبية وقام بتلقيق عدد من التهم ضد «وت» المعارض للحرب وزور وثائق مريبة تدعيه بالإنتهاء للحركة الثورية. لكن الحظ أسعف الحق فنقد ألقى أحد الثوار بقتيلة تحت عربته وهو في طريقه لمقابلة القيصر حول هذه الأكاذيب مزقته ازياء ارباب، حتى تطلب لم أشلائه المنتثرة ثلاثة أيام بعد الحادث الذي وقع في تموز ١٩٠٤.

وسرعان ما تصاعد الهياج الثوري وساور القلق السلطات من مغية إتخاذ أي إجراء عنيف من شأنه أن يؤلب العالم عليها ويكبح جماح الشوار في أرجاء روسيا قاطبة. لكن الحججة خذلنها فلجأت للتأمر مع قس كعميل معرض لها يدعى «جابون» والذي عتاد المتحدث الأول عن مطالب العمال. وافق جابون على قيادة عدد من العمال المنتدبين للتفاوض إلى قصر القيصر الشنوي حيث يقدمون التماساً. ثم قسام جابون، في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٠٥، بقيادة صفوف العمال في داخل العاصمة وقد إنضم اليه كثير من العمال والنساء والأطفال، ولكن ما أن وقفوا أمام بوابة القصر الشنوي مناشدين «أباهم الصغير» (القيصر) حتى قستحت عليهم الكتائب الحكومية نيرانها بمنزلة الصفوف ومعتالة الجمع بها في ذلك الأطلاق الذين سحقوا تحت الأقدام. . . ثم لاحقت فرقة من القوزاقيين الراجلة اللذين العزل وضربت بالسيوف اعناقهم. بعدها أطلقت المدفعية نيرانها لتصيب ما بقي من الحشد في نيسكي. كان نيجينسكي حينها طالبا في سن الخامسة عشر وقد كان ذاهبا إلى مدرسة الرقص عندما جرفه الحشد المشلطم ثم أدرك بأن الجنود القوزاقيين يلاقون الناس على سهوات جيادهم،



ومع الحشد تلقى سوطاً أفقده وعيه . قام نيجينسكي لاحقاً بمساعدة احد رفاقه في المدرسة في البحث عن جثة أخته بين أكوام الجثث لكنها فشلت في العثور عليها . كان ذاك اليوم أحدأ نطلع بدعاه مائة وهنئين قتيلاً ومائتي جريح . وحين طرقت الأبناء مسامع القيصر سأل منلهفأ : «هل أنتم واثقون أنكم قتلتم من الناس عددا كافيأ؟» . وهذا ليس بغريب على القيصر فقد كان دائماً مؤيداً للإستخدام العنف والقوة لتوطيد دعائم حكمه . حيث علق قائلا : «وافق جيدون» مادحا كنية (الفانا جورتيش) التي أطلقت النار على العزل من العمال . وربما يكون هذا الدول مقتبأ من تعليق القيصر على تقرير عن موظف حكومة في دول البلطيق قدم شكوى عن ضابط كان يعدم الناس دون محاكمة : «اوو . . . يا له من رفيق جيد» .

كان أمراً مقضياً أن يتفاقم الاضطراب في روسيا . فقد تمرد طاقم البارجة «بولكين» وقتل ضباط السفينة الحربية . وتقمص (اينشتاين) بعض الوحشية التي جابهت بها الشرطة المتطرفين في فلم له عن التمرد الروسي سببا في الحادثة التي أبادت فيها الشرطة المدنيين على مدرجات اوديسا لتقديمهم الطعام للمتطرفين . من الأهمية بمكان هنا أن نشكر أن حوادث كهذه كانت تتكرر يوماً على مسرح الشارع الروسي . وقد كتب أيضا (روسياثف) عن هذا العنف في مجلده «حكايات عن الثورة» كانت حكاية «الشارت» من أبرزها وتحكي قصة مدير مدرسة هاديه الطيب مسلم المعثر أصابته قسوة الجنود ووحشتهم بسعار ميون ، فنظم أهل القرية في صفوف كل يرقب لحظة اعدامه . . . وسمح ل نفسه أن تنتظر ساعة وداعها بعد أن تودع أهالي القرية جميعهم . لكن كتب التاريخ غفلت ، لموضوعيتها الشديدة ، عن ذكر هذه القصص . ولسوء الحظ كان القيصر جيداً كتيماً ضد هذه الحقائق المرعبة وهذا فقط ما يفسر القسوة اللامبالية لرجل

ليس قاسياً في طبيعه .

عمت أرجاء روسيا انتفاضات حذت أغلبها حذو تمرد (ستينكا وازين ) و (بوكاشيف) حيث يقتال الفلاحون اصحاب الأراضي وهوائهم ثم تتحرك بعدها الفرق العسكرية لسحق التمردين عبر أشنع الأساليب . كان قدر التأريخ الروسي مستغبر لو شاهد القيصر بأمر عينيه إحدى هذه المجازر ، فهو سيدرك ثمن إستمرارية ايدولوجيته البالية الذي يدفعه الإنسان الروسي من خلال عذابه . لكن نيقولا اعتصم في قصره ودعا بعض قادة العمال لشرب الشاي وألقى عليهم محاضرة جدية قاسية . فكان رد الشوار على ذلك قتل عديله الدوق الكبير المستوحش (سيرجيوس) . لقد لازمت البيزايث -أخت النزارينا- زوجها طيلة اسابيع عديدة على أمل ان ينقذ زوجها زوجها من القتل المحتوم ، وكانت عمقة فيما ذهبت اليه حيث ذكر الإرهابي (كالييف) بأنه كان على وشك كذف قنبلة على عربة الدوق لكنه احجم عن ذلك عندم . رأى (البيزايث) بجانبه . وشاء القدر ، فيما بعد ، أن يتجول (سيرجيوس) في يوم ما أمام البوابة الأمامية بمفرده فالتقى (كالييف)قنبله التي أحدثت انفجاراً هائلاً ، هزعت لشدة (البيزايث) خارجاً لتسجد زوجها وقد انفصل رأسه عن بقية جسده على الرصيف ، وللمت أشلاء منه من على سقف الجيران ووجدت اصبعاً له على سطح «الأرسينال» . هنا قصدت البيزايث بجدها ميلها الديني الى كالييف في سجنه وعرضت عليه إنقاذ حياته إذا ما تأسف على اغتيال زوجها ، لكنه رفض وقال أن حياته لن تخدم قضيه الأكبر أكثر من مماته ، ثم سار للمشتقة واثق الحلقى مرفوع الهامة لا يهتز له طرف . لقد رقب البلاط سلوك البيزايث بكثير من الريبة . فالجميع قد مقت سيرجيوس الذي كانت سوء معاملته لزوجه فلح الهمس في البلاط .

طمع القيصر ، وقد لاحت له في الأفق بذور ثورة شعبية ، في مشورة

(سيرجيوس وت) الذي هو رجل خرج من بين صفوف الشعب ليصبح أكثر وزراء القيصر ولاء وأكثرهم للقيصر عليه اعتقاد. بيد أنه تحل بحب الذات مع شيء من المكر والحيل في شخصيته. لقد أخبر القيصر أن أمامه للفضية حلين لا ثالث بينهما: أما أن يوطد نظاما عسكريا دكتاتوريا أو أن يمنح الشعب قدرا من الدستورية. داعت فكرة الدكتاتورية عقل نيقولا كثيرا وفكر أن يأخذ بتلابيبها الدوق نيقولا الذي أبى أن يكون دكتاتوراً حتى لا يموت بقنبلة موقوتة ويهدد بقتل نفسه إذا ما أجبر على ذلك. وعليه وافق القيصر على مفض أن يمنح الشعب شيئاً من الدستورية. وأصدر إعلان تشرين أول سنة ١٩٠٥ الذي منح الشعب حرية الكلام والتعبير والمقابلات والاجتماعات وحرية انتخاب ممثليه في مجلس نيابي سيطلق عليه اسم «الدوما الإمبراطورية».

أثبت تنازل القيصر شعوراً بالإتهاج والسلام بين عموم الشعب . . . .  
 لكن الاعلان لم يكن سوى غمامة صيف فسرعان ما ادرك الشعب أن (الدوما) لم تكن في جوهرها مجلساً نيابياً . . . فالحكومة بقيت على حالها وعملت على عرقلة (الدوما) لم تكن مجلساً نيابياً بالمعنى الحقيقي . . . فالحكومة بقيت وطرقت كل سبيل من شأنه عرقلة (الدوما) في مسيرتها فكان غماض ذلك أن اتقسم التقدميون الى قسمين رضي أحدهما بواقع الحال وعارضه الآخر. وكتب «وت» الذي شغل منصب أول رئيس وزراء في روسيا المصاعب في مسعاه التوفيق بين الأحزاب ومحاولة كسب رضا الجميع. لكنه رجع بخفي حنين وأثار عليه حنق القيصر الذي شعر أن «وت» بدأ يفقد سلطته شيئاً فشيئاً، فأقاله لذلك من منصبه ثم حل نيقولا (الدوما) في (نوية استياد) وأناط بد (جبرويكين) منصب رئيس

(١) الدوما: المجلس التشريعي في روسيا القيصرية.

الوزراء والذي كان هيآن بن بيان اقتضت مهمته في البلاط على إطراء القيصر عن طريق التأكيد المستمر له على أنه ما زال الحاكم المطلق لروسيا.

ها هنا ظهر على مسرح الأحداث أحد أعظم رجالات روسيا ألا وهو (بيتر ستوليبين) حاكم (ساراتوف). كان ستوليبين رجلاً محافظاً ومليكياً لكنه كان في الوقت عينه رائداً من رواد التقدم . . . رجل اجتمعت فيه الشجاعة والجرأة والنظن والذكاء. طاف بعد ثورة ١٩٠٥ في أرجاء روسيا ليعيد اليها استاب الأمن والنظام بقوة شخصيته ومقدرته على الإقناع. وفي إحدى القرى الثائرة، أطلق الفلاحون النار عليه خشية أن يطش بهم فسار بحزم وسط الرصاص وترجاهم ألا يطلقوا النار حتى لا يضعفوه الأمر استخدام سلاحياته العسكرية ضدهم، ثم أمسك أحد الشوار يكمن سترته متحدياً فطلب منه ستوليبين برباطة جأش رابعة أن ينزل يديه ففعل الشائر واستمر ستوليبين في مسيره، الفى بعدها القرويون السلاح وتلقوا من المعاملة الشفقة والرأفة.

شغل ستوليبين مكانة عظيمة في السنوات القليلة اللاحقة وربما أجرى جميع الإصلاحات التي طالب بها البلاشفة. ومرة أخرى أحقق الثوريون في ادراك أن الرجل في صفهم، وشرعوا عليه بعدة محاولات اغتيال. وقد نجم عن إحدى تلك المحاولات تفجير منزله فأقعد إبتته مدى الحياة وجرح ابنه وأصاب أربعين آخرين بين قتيل وجريح دون أن يصيب ستوليبين بأذى. ولم تغير محاولة الاغتيال هذه من شخصيته ولم تجعله منه رجعيّاً حقوداً باحثاً عن الانتقام بل استمر في مسعاه التقدمي. وربما كان أهم إنجازاته إصدار مشروع قانون يتيح للفلاحين المطالبة بتسليمهم في القرية التي يقطنون. عارض الرجعيون القانون بحجة أن الفلاحين أغشى من أن يستشمروا العرض. لكن ستوليبين تثبت بموقفه الذي أثبت سداد رأيه لاحقاً حيث شرع أكثر الفلاحين ذكاءاً في إقناع

الأخريين واقامة مبادئ للوعي السياسي... فكانت المحصلة ولادة ثورة هادئة وشرعت الفري منهم نفسها لمهمة الإدارة الثانية وهي تصبو لروحية جديدة في الأهداف والطموحات. وقد وصف بيرس هذه النتائج قائلا:-

مع حلول عام ١٩١٤ أصبح في روسيا ٨,٧٠٠,٠٠٠ من السكان يومنين<sup>(١)</sup> ويشتمعون بعقلية المالك وبالنسبة لحرية قوية في الضبط العام. وتميز الرجال في المزارع الجديدة بطاقة جديدة كانت هي أقرب الى دافع العمل... وبدأت الماشية أكثر صحة... وأثمرت بلور التعاون في كل مكان...

يقترّب هذا الوصف من وصف سوفيتي للمزارع الجماعية. لكنه لم يكن إلا وجهها جديدا لروسيا القيصرية. لقد اكتسبت روسيا حلقتها الجديدة قبل حلول ثورة ١٩١٧ ولو أن القيصر والشوار أدركوا قابليات متوليين وطموحاته التقدمية التحررية لما كانت هناك اية ضرورة للثورة اساسا.

خامس القيصر، لسوء الحظ، شعور باللائقة تجاه متوليين الذي شغل آنذاك منصب رئيس الوزراء وهو منصب رآه الشوار عدواً للتقدم أي كان شاغله. وفي يوم ما نجح أحد الشوار ويدعى (بوكروف) في كسب ثقة شرطة (كيبف) بادعائه الكشف عن مؤامرة للشوار فمحت الشرطة بطاقة حضور عرض مسرحية (ريمسكي كورساكوف) والتي سيقضها القيصر ومتوليين. لقد أحاط القيصر نفسه بحراسة شديدة وأهمل متوليين الذي لم يجد الناظر بوكروف صعوبة في إطلاق النار عليه وإصابته في صدره.

وقعت تلك الواقعة سنة ١٩١١ ولما كان راسبوتين منتفذا في البلاط

(١) نسبة الى اليونان؛ وهو فلاح صغير يملك ارضا يزرعها ويغاضه احد المراء طائفة من سفار مالكي الارض الاحرار في انكلترا

القيصري. لقد كسب متوليين بنفس التزارينا لأمره طرد (الستاريتز) خارج بطرسبورغ... وتتهند بارتياح لهذا العداء بين التزارين ومتوليين -قائد ثوري يبلغ من العمر واحداً واربعين عاماً يدعى (فلاديمير اوليانوف)؛ فاصلاحات متوليين الخاصة بالأرض والفلاحين مشحوب البساط من تحت أقدام البلاشفة وإلخسر اندلاع قتل الثورة.

يبعد أن هذه الأحداث جميعها ليست إلا فرة للقصة... فجاء صدر اعلان ١٩٠٥ كتب القيصر في يومياته قائلا: «التفت رجلاً مؤمناً اسمه كريكوري من ضواحي نوبولسك». وهنا تسنلت قوة جديدة أعماق السياسة الروسية... لم يلبح في الأفق من أبعادها شيء إلا بعد مضي ثلاث سنوات.

(١) فلاديمير اوليانوف: أهدم إخوه بتهمة الاثباتك في الخيال اليكسندر الثاني. وقد اكتسب حياها اسمه المركزي في الحزب وهو (لينين).

## الفصل الخامس

### مدينة الأحلام

وطأت أقدام راسبوتين في عاصمة شهوتها الروحانيات والرمزية والتمسك  
اللاعقلاني بأعراف وفنون وتقالييد القرون الوسطى... عاصمة كتب عنها  
شاهد عيان آنذاك قائلا:-

«لو طاف بصرك العالم أجمع لما وجدت فيه مدينة تلعب فيها الروحانيات  
دورا كذلك الذي تلعبه في بطرسبورغ، فالعديد من المنازل الروسية الفخمة قد  
سكنتها أرواح مألوفة حيث تعرف أيد خفية على البيانو عندما يجتاز احد أفراد  
العائلة بغض النظر عن عمق اعتقاد المحتضر او المحتضرة»<sup>(1)</sup>.

ويورد الكاتب نفسه إشاعة مفادها أن وسطاء روحانيين أقنعوا القيصر أن  
يجوز غمض الحرب الروسية - اليابانية فلا غرابة إذا ان يشعر بعض الشباب  
الثوري مثل (مكسيم كوركي) أن مجائين أمسكوا زمام الحكم في روسيا.

وصل راسبوتين مدينة بطرسبورغ في مطلع عام ١٩٠٥ وحل في شقة  
صحفي يدعى (جورج بتروفش ساسونوف) وقد قاسمه السكن عدد آخر من  
الناس. أكثر راسبوتين تردداً على منزلي (المونتكرينات) ميليتسا واناستازيا تدفعه  
رغبته في الوصول الى البلاط سيما وأن ميليتسا قد تقررت منزلة لدى التزارينا منذ

(١) برايلي هودجيتس: بلاط روسيا في القرن التاسع عشر.

أن عاجلتها في مرضها لكنها فقدت ثقة التزاوية في آخر زيارة لها لبطرسبورغ  
لتباين وجهات نظرهما حول قضية الروحانيات، وربما بسبب اهتزاز إيمان القيصر  
في امكانيات وقدرات الوسطاء الروحانيين بعد اندحار روسيا في الحرب مع  
اليابان . . . أو أنه لم يعد يشعر بالحاجة لاستدعاءه روح والده واستشارتها  
النصيحة كعادته في بدايات حكمه. وعلى العموم احتفظت (المونتكرينات)  
بحماسهن الشديد ومقدرتهن البارعة في استحضار الأرواح فيما فقدن، من جانب  
آخر، رغبة البلاط القيصري بقدمهن.

احتضن الفرانديوق نيقولا (زوج انا ستازيا) راسبوتين بحرارة متميزة  
سبباً وقد أشفى له راسبوتين قلبه. لقد تجلّى إعجاب الزوجين براسبوتين حين  
دفعاً عنه تكاليف اجراء عملية تزويجه حينما شكّت من مرض داخلي في  
بطرسبورغ.

طرق صيت (راسبوتين) أبواب العاصمة في زمن قصير على أنه صانع  
معجزات. وقد كتب جاسوس من الاوكرانيا في تقرير له في الثاني عشر من  
نيسان سنة ١٩٠٥ قائلا: «تجتمع الحشود امام منزل راسبوتين ويضطر الناس  
للانتظار يومين أو ثلاثة حتى يحصلوا على إذن بالدخول ومقابلة الناسك ولم  
يفشل احد في ملاحظة قدراته التنبؤية ومواهبه وقابلياته في اجترار المعجزات».   
ويذهب الجاسوس الى ذكر بعض معجزات راسبوتين مثل تحويله حفنة من  
التراب الى زهرة فواحة وعلاجه امرأة مشلولة أن أمرها بالوقوف والسير  
فحسب.

من المحتمل أن راسبوتين شرع حينئذ في إرسال بعض الهبات التي كان

(١) الاوكرانيا: جهاز المخابرات الروسي في ذلك الحين.

بثلقها نظير اعماله الحارقة الى بوكروفسكو بما مكن زوجته من شراء المنزل الكبير  
في شارع بوكروفسكو الرئيس. وهو قد أهدر كثيراً من ماله المهدي اليه من  
معجبييه مع حفاظه على قوة الأسرة التي تشده لعائلته أخذاً بعين الاعتبار ألا  
يسبب احراجاً لجيرانه في بوكروفسكو للمحال الجديد الذي أمست عائلته تعيشه.

عاش راسبوتين في مستهل وجوده في بطرسبورغ بهدوء تام لإدراكه ان  
الشرطة تراقبه عن كثب مما ولد لديه شعوراً باللاارتياح لازمه قبل أن يعتاد  
عليه. لكنه لم يدرك في حينها ان عيون الشرطة كانت تلاحقه بسبب انتباهه الى  
اتحاد الروميين المخلصين ولم يكن مسؤولي الشرطة يعاجزين عن استغلال ما  
يتوفر لديهم من المعلومات وصياغتها بالشكل السياسي المطلوب. لقد تحققت  
الاوكرانيا من كل صفات الأمور في البلاد فماشياً مع عملها الذي انطوى أن تفقه  
دقائق الأمور في كل مكان. بيد أن من طبيعة عملها ألا تعلم - في أحيان  
معينة - الكثير عن هذا الشيء أو ذلك. وخير مثال على ذلك عندما طلب من  
(راشكوفسكي) مدير الفرع الفرنسي في امن الشرطة الروسية الذي فصل من  
منصبه لأنه أدرج في تقرير عن (الطبيب) المزيف فيليب أنه مشعوذ ودجال وأنه  
قوضي مرتين في فرنسا بتهمة مزاوله مهنة الطب بدون إجازة . . .

اعتاد (راسبوتين) بمرور الوقت على رقابة الشرطة في حركاته وسكناته بل  
انه نجح ابضا في تكوين صداقات مع جواسيسها واستغلهم في أداء مهامه.

واخيراً جاء اليوم الأول من تشرين الثاني بالقضاء الذي حلم به راسبوتين  
كثيراً. . . اليوم الذي كتب عنه القيصر في يومياته قائلا: «لقد تعرفنا على رجل  
الله - كريكوري - من اقليم (توبولسك)، وقد تم اللقاء في منزل ميليتسا».

ليس من المعلوم على وجه التأكيد لمن يعود الفضل في ذكر (راسبوتين)

لدى القيصر فالبعض يعتقد ان الدوقة الكبيرة (اناستازيا) هي التي نطقت باسمه لكن رأي معظم الكتب أن (آنا فيريوف) الصديقة المقربة للترارينا هي المسؤولة عن معرفة القيصر بـ(راسبوتين) برغم ان (آنا) نفسها لم تلتق (راسبوتين) إلا بعد ستين من لقائه بالقيصر وفقاً لاعتقاد بيرس في هذا الأمر.

اتسمت قصة ولوج (راسبوتين) البلاط القيصري بالاثارة الحقة في شتى الروايات التي تناقلتها، سيما وولاية لبيبان التي تذكر ان (راسبوتين) قد اعتاد زيارة مخيمات العجور في (نوفايا دريفنيا) على جرفي التهر حيث يعني ويرقص معهم . وفي امية التاسع عشر من تموز سنة ١٩٠٧ - اي بعد عسامين من ذكر اسمه في يوميات القيصر- أنفل (راسبوتين) في شرب الخمر داخل معسكر العجور فيها كان التزاريفتش يصارع الحمى التي سكنت جسده لثلاثة ايام عجز معها الأطباء الإمبراطوريون عن علاجه منها واعلنوا اليأس من نجاته . . . وفي تلك اللحظة بالذات همت (آنا فيريوف) باسم (راسبوتين) في اذان (الترارينا) التي ارسلت من ساعتها رسولا يأتي القصر به . ذهب الرسول الى (نوفايا دريفنيا) واعلن : « باسم القيصر . . . هل من احد يدعى كريكوري راسبوتين؟ » خرج راسبوتين الى الرسول الذي أمره باعتلاء صهوة جواده والذهاب الى مكان حده له لكن (راسبوتين) وقد اخذ منه الخمر كل ماأخذ رفض المشوك لأمر رسول القيصر وطلب بأعل صوته ان يستمر الرقص ويتعالى الغناء . ها هنا تعرف رئيس العجور على حامل رسالة القيصر فترجى راسبوتين الإمشال لأسر الرسول . توقف (راسبوتين) لأول وهلة صامتا لا ينس بيت شفة وقد أجمع كل من رآه ساعتها - كما كتب لبيبان- أن شيئاً ما قد تغير فيه ما ان أمسك رسالة البلاط وتطلعت عيناه يكحلها بريق غريب على ما هو امامه . . ثم سقط على ركبتيه وصل راكعاً فسرت رعدة خفية في الجمع الساكن ، بعدها قال راسبوتين

للسؤل : « لقد صليت له ولا تحرف عليه . . . » . وما ان انتهى من حديثه حتى وثب على صهوة جواده وشب الجواد متوجهاً الى (تزيكوسيلو) . كلف (راسبوتين) عن الشرب والرقص لكنه ظل راكعاً على ركبتيه مصلياً وبينها هو على تلك الحال بدأت صحة التزاريفتش بالتحسن كما اعلن وكما اخبر (الترارينا) عندما رآها . دخل (راسبوتين) غرفة المريض وركع على ركبتيه بقرب سريره « أغلق عيناه لكن وجهه الحنأ اكتسى بسمة الجدية حتى تسمر القيصر وزوجته بالصمت . ثم نهض أخيراً وقال : « ان ابنك اينها الأم الصغيرة بنام سلام الآن . . . » . وفي تلك الليلة كتب القيصر في يومياته قائلاً : « تمرفنا الى رجل الله . كريكوري ، من اقليم توبولسك وقد أتقذ الحبيب اليكسي من يرث الموت بفضل صلواته » .

اما رواية فولوب ميلر فأقل مأساوية من رواية لبيبان . فهو يذكر ان الدوقة الكبيرة (اناستازيا) همت باسم راسبوتين في اذن التزارينا وروت لها كيف ان جون من (الكروستادت) قد أوماً الى راسبوتين (صباخا في الكنيسة) وباشده بركاته (هذه الحادثة كما سنذكر لاحقاً قد حدثت قبل عدة سنوات وتحدثاً في عام ١٩٠٣) . أرسل القيصر رسولا لـ (راسبوتين) (لكن فولوب ميلر لم يحدد المكان الذي وجد فيه الرسول (راسبوتين) ) وجاء (راسبوتين) البلاط القيصري بعد مضي اربع وعشرين ساعة (ولم يفسر ميلر سبب تأخر راسبوتين) . ثم دخل جناح المريض وتوجه للقيصر وزوجته باتسامة عريضة وضم الى صدره القيسقة الحديدية لروسيا بأكملها وزوجته وقبلها قبله حارة . تحدث راسبوتين بعدها بمرح للطفل المريض وروى له قصصاً عن سيرها تبعها بحكايات خرافية ، فالتقت حساسة الطفل وجلس على فراشه . وأخيراً غادر راسبوتين القصر بعد ان وعد بالعودة في اليوم التالي وقد امسكت (الترارينا)

بترق بيدي القروي وقبلتها.

يبدو أن (الآن مورفيد) لا يكتفي بمرض (التزازاقيتش) سبباً لدخول البلاط القيصري. فالصبي لم يكن من العمر آنذاك الا خمسة عشر شهراً ناهيك عن غياب أي دليل ان (راسبوتين) نجح في كسب ود القيصر وزوجته حتى بعد عامين على أول لقاء له بهما في أهل تقدير. وعليه فإن خلاصة روايتي لليبيا و ميلر أنها مثالان على قدوة (راسبوتين) على الهام الأساطير. ولم ترد عبارة ليبيا «أقبل الخييب اليكسي من برائن الموت بفضل صلواته» في وصف القيصر لأول لقاء له مع راسبوتين «رجل الله من اقليم توبولسك». ليس هذا فحسب، بل ان ليبيا غير تاريخ دخول (راسبوتين) البلاط القيصري بستين.

كانت الفترة الممتدة من ١٩٠٥ حتى ١٩٠٧ فترة عصية للقيصر ولروسيا إذ تشكلت (الدوما) الأولى التي سرعان ما صوتت لقرار يشخصن تقريعاً للحكومة التي رفضت تقديم استقالتها وهو ما أثار حفيظة القيصر خشية على سلطته المطلقة فحل (الدوما) في أهل من ثلاثة شهور أي في تموز ١٩٠٦. ثم اندلعت ثورة في موسكو في شهر كانون الأول من تلك السنة صاحبتها أعمال عنف واقامة مشاوير في الشوارع وازاقة كثير من الدعاء دون أن يؤثر ذلك على ولاه الجندي للقيصر فاجبهضت الثورة في مهلها. حاول بعدها نفر من أعضاء الدوما الأولى الذين هربوا عبر الحدود الى فنلندا أن يوقفوا روسيا من غزوها سيبان أصلوه من هناك. الا أن البيان لم يلق من يصغي اليه في شعب استنزفت الثورات طاقته وتركته يتخبط في ضعفه. ثم تشكلت في عام ١٩٠٧ (الدوما) الثانية بعضها وفي خريف العام نفسه تشكلت (الدوما) الثالثة ونجحت في الاستثمار خمس سنوات يات فيها راسبوتين الرجل الأموي في روسيا برغم أن شهرته كغليب مشافي قد تناقلتها الأخبار منذ عام ١٩٠٦. إذ سبق وأن عرضت

التزازاينا على مسئوليين خدمات راسبوتين حين دعزت قبلة منزله وجرحت أطفاله. لكنه رفض عرضها ولم يقابل راسبوتين حتى سنة اغتياله في كيف، وحرى بنا هنا نقل بعض من وصف مسئوليين لذلك اللقاء:-

«تفحصني بعينه الناهنتين متمتاً المهيم من كلمات المخطوطات المقدمة تعذر على فهمها ثم حرك يديه على نحو غريب أشاع في نفسي نفوراً من هذا الحشرة الجالس قبالي. ولكنني ادركت رغم ذلك ان الرجل يمتلك قدرة التويم المغناطيسي التي بدأت تترك الرأقويماً لدي لا أظنه غير أثر الاستعاض من».

ويضيف (رودزيانكو) الذي ذكر هذا الوصف قائلاً: «إذا ما كان لراسبوتين مثل هذا التأثير على الإرادة الحديدية لستولين فما عسى التزازاينا أن تفعل بطبعها الضعيف أمام قوة كهذه؟».

ومع ذلك، تبقى الحليفة أن راسبوتين لم يكن بحاجة لتوظيف قواه في التويم المغناطيسي مع التزازاينا التي غلبتها لغتها للتصديق به فهو لها خلاصة قوة وزراعة الفلاح الروسي. من جانبها عامل راسبوتين القيصر وزوجته بالأليف من السلوك. فزوع فيها انطباعاً لأنها له لا قيصر وزوجته بل أناس عاديون وهو ما كان الاثنان بحاجة فعلية اليه وبخاصة التزازاينا التي كانت تشعر انها محاطة بالأحقاد والمكائد. يقول الكاتب المجهول لكتاب «سقوط الغياصرة»:-

بدأ في هذه الفترة (١٩٠٥-١٩٠٦) السلوك الغريب للإمبراطورة اليكسندرا جلياً لفت اليه انظار من حوها. فمعاذتها لم تتعود الظهور الى العامة ولم تحي حاشيتها الخاصة الا على مقصص وفي أمر طاريء. فالعيت نتيجة لذلك السلوك جميع الاستقبالات في البلاط. وفي تلك المناسبات التي يتحتم فيها على



القيصر أن يقيم مأدبة عشاء أو حفلاً تتقدم المعجزة المهيبة الإمبراطورة (ماري) وهي إلى جانب ابنها لتحية ضيوفها. وعليه لم يحظ في رؤيتها الا حلقة البلاط السابقة وسرت اشاعات كثيرة عن تحفظاتها الخاصة تلك، فبعضهم قال أنها تخشى البدانة فاتبعت نظاما المائتيا، خلافاً لنصائح طبيها، في محاولتها ازالة الشحوم وهو ما تسبب في انهيار جهازها العصبي. وقال البعض الآخر انها تعاني من اكتزيا عصبية تغطي في حالات الإنزعاج احياناً، وجهها وبديها فتمسك عن الظهور الى العامة... وآمن البعض ان التزاورنا لم تكن سوى مجنونة بلهاء... ٩٠.

شعرت تلك المرأة المحجولة مرضياً أنها روح غريبة في بلاد جاهرها العدا... ثم ظهر لها راسبوتين... محمدا القروي الروسي ومؤكدا لها حب البسطاء من الروس وأن البلاط وحده الذي يكن لها الكره.

وعليه امس راسبوتين أباً ثانياً لها وفي تلك الفترة بالذات من عام ١٩٠٧ جرح اليكسي نفسه وتدهورت حالته الصحية. لم يشهد احد علاج راسبوتين للزرافيتش ولم يعلم أحد على وجه التحديد تفاصيل ما حدث برغم أننا قد نأخذ بعض ما رواه ليبان وقولوب ميلر عن دخول راسبوتين البلاط. انها القوة والثقة بالنفس والطيبة وحب الخير قد أشع بها راسبوتين، فكانت تحتفي بحضوره الطيب هواجسهم ومخاوفهم من القدر ويستعيدون ايمانهم أن ارادة الإنسان لقدرة على التحكم بقدره... فلم الخوف من القدر ساعة وجود هذه القوة الإنسانية الجبارة...؟؟

«قدرات راسبوتين»:-

نصل الآن الى مسألة في غاية الأهمية عن حياة راسبوتين، ألا وهي قدراته الخارقة على شفاء المرضى التي غفل عنها الكثير ولم يولها احد الاهتمام الذي

تستحقه. فإذا ما كان راسبوتين يمتلك فعلا هذه القدرات وإذا ما كان عضواً - كما هو مرجح على الأغلب- في الطائفة الخليستية فليس من الغريب إذن ان يعتقد راسبوتين بنفسه احد افراد الخليستية الذين تتجسد فيهم روح المسيح... وهذا تحديداً مفتاح ذو أهمية قصوى للشخصية المركبة لراسبوتين. من جهة اخرى يؤكد اعداؤه بانه (محقق) معجزاته بمعونة طيب يدعى (بادمايف) وهو منغولي زعم انه قد درس الطب في اقليم التبت وبدا قادراً على صنع ادوية ناجعة من تركيباته العشبية. ويذهب احد الكتاب الى الاعتقاد بان راسبوتين اعطى لبادمايف مالا مقابل صنع الأخير جرعات خفيفة من السم لعلاج التزاوريتش وتركها في حجرة المريض لكي يستخدمها راسبوتين عندما يأتي للصلاة من أجل انتقاذ حياته. بيد أن احداً لا يستطيع ولو علم بالحياة الأسرية للعائلة المالكة أن يأخذ هذه القصة على محمل الجد وهي انما ذكرت هنا لتوضح وجهة نظر معينة حيال راسبوتين: انه الموقف الذي يرى راسبوتين دجالاً قطعاً مؤثراً في سلوكه.

هب أننا سلمنا أن راسبوتين لم يكن بالقديس الذي آمنت التزاورينا، أيمنك إذن ان يمتنع بقدرات عبقرية قادرة على صنع المعجزات؟ وثمة حادثة وقعت عام ١٩١٢ وتعلق بالتزاوريتش فشل في تفسيرها وتبريرها حتى اعداؤه، حين طرد راسبوتين من البلاط لكامل نسجها له رئيس الوزراء كوكوتيف. ففي أيلول من ذلك العام وبينما كانت العائلة الملكية تتمتع بعطلة في (بيلوفيتسكايا) بالقرب من كروودو فقد التزاوريتش توازنه وهو يقفز خارج زورق وكدم ركبته مما نتج عنه نزيف داخلي ثم تسقم في الدم، سكنت بعدها الحمى جسد الصبي لأيام عديدة اعلان فيها الأطباء عن بأسهم المطلق من إنتقاذ حياته. وقال فيدوروف، رئيس اطباء القيصر أن شبح الموت لا يفارق الصبي إلا باستخدام جرعات قوية من دواء شديد الفعالية لكنه لا يقوى حالاً على اعطائه للصبي قبل

أخذ موافقة التزارينا التي طلبت في تلك الأثناء من صديقتها ( آنا فيروف )  
إرسال برقية لراسبوتين في بوكروفسكو ناشد فيها الصلاة من أجل وليدها .  
وسرعان ما وردتها برقية يقول فيها راسبوتين : « ليس مرض التزاريفتش خطيراً  
سأ يهدو، فلا تدعي الأطباء يلبسوه راحته يواجهم . . . » . وما إن وصلت  
البرقية حتى غائل الصبي للشفاء وتخطى مرحلة الخطر .

إن ثمة ثلاث تفسير لهذه الحادثة : يتعلق أولاً باستخدام فيدووف  
والدواء قوي الفعالية الذي اعتقده ضرورياً للشفاء بيد أنه اججم عن ذكره  
عندما سئل واكتفى بالخروج من الغرفة . . . . . ولكن أمن المعقول أن يتنازل  
فيدووف عن وسام شرف لو كان حقاً من أنقذ حياة الصبي ؟ . أما ثانياً فغفاده  
أن إيمان التزارينا المطلق بفلسفة راسبوتين قد تحدث إلى الصبي الذي كان غامطاً  
بالبأس والخزع ، وهذا تفسير ممكن أيضاً ولكن موسولوف ، رئيس المحكمة  
العليا ذكر أن الصبي كان في حالة ذهبان بسبب الحمى وليس من المعقول أن  
يكون قد علم بامر البرقية إلا بعد شفاؤه .

أما التفسير الثالث فيفترض أن راسبوتين اغتم صدقة لشفاء الصبي مجازفاً  
بكل احتمالات عودته لشرف الخطوة في البلاط القيصري - أو أنه آمن بقدرته على  
إلاج الصبي من على بعد القمي ميل تقريبا .

يقف الدليل لصالح الاقتراض الأخير . فراسبوتين لم يخلط بين قدراته  
الإعجازية وبين قابلياته في التنويم المغناطيسي برغم أنه قد فعل ذلك في بداية  
مشواره . فهو قد أشفى . في عام ١٨٩١ ، زوجة صاحب ختان من داه الريو  
بالصلاة قرب سريرها ووضع يده على جبينها - بقي في الحاة شهراً وعندما  
عادو شغيت المرأة تماما . إن داه الريو مرض جسدي عصبي وربما كان قابلاً

للتأثر بإيماء التنويم المغناطيسي . غير أن راسبوتين انكر في وقت لاحق استناره أباً  
من تلك القوى فقدرته على علاج الأمراض تنبع من مصدر آخر . ويبدو نجاحه  
في شفاء التزاريفتش بواسطة البرقية دليلاً على زعمه هذا .

يطلق الجدال القائم أن راسبوتين ليس بقديس وأنه لذلك يقفز إلى القدرة  
على صنع المعجزات جهلاً في مبادئ العلاج . ففي الوقت الذي كان فيه  
راسبوتين جوالاً في أرجاء سيبيريا كانت (ماري بيكر ايدى) تعلم تلاميذها في  
أمريكا أن يستطيع أي كسان أن يغدو معالماً لو اتبع تعليماتها . وهي قد تعلمت  
تقنية هذا العلاج على يد رجل يدعى (فيليس كويمبي) الذي تعلم هو الآخر  
المبادئ من فرنسي له القدرة على التنويم المغناطيسي يدعى (بوين) . اكتشف  
كويمبي حقيقة مهمة هي أن إيمان المريض بأحقية العلاج هو الشافي للعليل من  
الغذاء أكثر من الدواء . ثم ذهب كويمبي إلى القول الأبعد أن ضرورة الطب  
أعلاج الأمراض ليست كما نعشده فتتمتع المريض بحالة عقلية وعاطفية معينة  
مشبعة بالمرح والحيوية والنشاط لأقدر على التخلص من المرض . علمت كويمبي  
السعادة باكتشافه هذا وعندما أشفى رجل دين سويدي قال فيه أنه : « يعيد  
معجزات الأنجيل » انكر كويمبي بشدة استخدام أي قوى فوطيعية أو اجتراح  
أي معجزة ، مؤكداً أن أدويته كانت طبيعية وعلمية وأن أي فرد يستطيع تعلم  
الطريقة إذا ما بذل جهداً سواء أكان يتمتع بقابلية على التنويم المغناطيسي أم لا .  
وقد أثبت كويمبي نظريته هذه أن علم طريقة العلاج لإتباعه الذين لا يمتلكون  
قدرة التنويم المغناطيسي . وعليه أنكر كويمبي في نهاية المطاف أهمية التنويم  
المغناطيسي برغم أنه بدأ حياته متعلماً لها . ( كان يطلق على التنويم المغناطيسي  
أنداك المسعرة أو سحر الحيوان ) .

جسد (ارنست تولد) في مسرحيته (ماري بيكر ايدى) اللقاء بين كويمبي

والسيدة (ايدي)، وأقل هنا جزءاً من المسرحية فهي توجز على نحو رائع الطريقة والأفكار التي استخدمها طلبة السيدة ايدي وربما استخدمها راسبيوتين:

التقت السيدة (ايدي) كويمبي عام ١٨٦٢ وعمرها واحد واربعون عاماً. وقد كانت مصابة بوسواس مرض هستيري وتعالى من ضعف في العمود الفقري وشال في يديها وساقها مع نوبات إغماء تخشبي في فترات متقاربة.

كويمبي : اعطني يدك

ماري : لا أستطيع فيها مشلولتان

كويمبي : (أخذاً بيديها) : انظري في هيني

ماري : حسن.

كويمبي : كيف تشعرين الآن؟ أنا سأقول لك . . . انت تشعرين بالأم مبرح.

ماري : نعم

كويمبي : ليس باستطاعتك النوم لأنك تعانين من تشنج علبك طوال سنوات.

ماري : اجل . . . اجل

كويمبي : لقد أخبروك أنك مشلولة . . . لقد أخبروك أنك مشلولة. لقد قالوا لك أن كامل جسدك مسموم وأن مرضك لا شفاء منه . . . وانت قد صدقت بزعم هؤلاء الأطباء الجهلة الذين لا يعلمون شيئاً عن طبيعة الرجال والنساء. فما جدوى خنجر الجراح لو قطعت جسد المريض فحسب؟ ان المرض

ليس بشيء من الجسد بل هو مرض العقل الذي يؤثر على صحة الجسد. وعليه فان من يرفع من الأطباء عن المريض هم العقل سينجح في شفاء جسده. فالعقل يعيد الصحة للمرضى من الناس . . . فهو المعالج الشافي .

ماري : العقل هوالمعالج الشافي . . .

- كويمبي : انت تجلسين قبالي وتظنين لي فلا ترين احداً غيري، انا فحسب. اتركى العالم وراء ظهرك وانسي كل شيء . . . الأطباء الجهلة وعائلتك وناصحيك وكل الأذى الذي تعرضت له، وانسي حبوب الدواء والأطباء السفهاء فانا جالس امامك وانا الذي اعالجك .

ماري : ان . . . ت . . . ت . . . عا . . . بلجني.

كويمبي : (يقمس يديه في الماء ويشده عليها):

أنا اغمس يدي في الماء النقي وارشه على جينك. أنا اشعر ان ألمك ينتقل إلى يدي انا . . . انت لا تشعرين الآن بأي ألم.

ماري : لا اشعر . . . باي ألم

كويمبي : كلا . . . ارفع يديك اليمنى

ماري : ولكنني لا أقوى على رفعها

كويمبي : قلت ارفع يديك اليمنى.

ماري (ترفع يدها اليمنى) : اوه يا الهي.

كويبي: ارفع يديك اليسرى

(ماري ترفع يدها اليسرى وتجهش بالبكاء)

والآن انهي

(تحاول ماري النهوض ولكنها تقبل وتعود للجلوس)

كويبي: انهي - انت ترغيبين في النهوض. انت تستطيعين النهوض.

(ماري تنهض)

كويبي: والآن سيري - سيري - أسرعى - والآن سيري الى هناك. (وقال

لنفسه بصوت مرتفع: انها فعلا تستطيع السير).

المرضى: انها لعجزة...

كويبي: تقولون انها معجزة؟ ان علينا البحث والسعي حتى نفهم

وتدرك ماهية تكويننا. ان من يتحدث من الناس عن المعجزات هم من يدرك

من قدرة العقل التزور اليسير. فليست في الكون معجزات وكل ما فيه يسير وفقاً

لقوانين الطبيعة وما علينا الا أن نتأمل ونبحث.

تعلمت السيدة ايدي طريقة كويبي في العلاج وعلمتها لتابعيها برغم انها

انكرت عليه فضله في تعليمها. ولكن أي جدوى سنجنيها وهي ما فتت

تعرض لنوبات مرضية بين فترة وأخرى ولا تترجم أحداً في علاجها غير

كويبي القادر على ذلك عن بعد، تخاطرياً، وينفس النتائج ولما يكن بقرها<sup>(١)</sup>

(١) اقرأ كتاب (السيدة ايدي) لولاه ايتون غ. ديكن، المكتبة العلمية، ص ٤٨.

كان كويبي رجلاً نزيهاً من رأسه حتى الحمص قدميه، حاجبه العمل وان

تجماً في بعض ما فعل سيؤكد أنه قديماً في طيبته. اما السيدة ايدي فلم تكن

تنتك من عصا القديس شيئاً فهي هستيرية، دائمة الشك في نوايا الآخرين،

عبدة للإنتقام. لا ينطق لسانها إلا بالكاذيب ومليئة برغبات جسدها، حتى

وهي في العقد السادس من عمرها. كانت تعتقد، كرامبوتين، أن الله منح

قدرتها على علاج الأمراض ومعه نفاذ بصيرتها في المشطوطات المقدسة، فيما

يتالفها معلّمها كويبي ابناً لها هذا فهو يقول بأنه عثر على اكتشاف - أكدته في

قرننا الحالي بحوث (ج. ب. راين) في علم الكهنة النفسي - يرى ان عقل الكائن

البشري يمتلك قوى اطلقت عليها قرون الماضي صفة النوق طبيعية.

ان قراءة في عبارة كويبي يتحدث الناس عن المعجزات لأنهم لا يفقهون

من قدرة العقل الا التزور اليسير، سنؤكد لنا الآن صعوبة تقديم أي تفسير منطقي

لظاهرة القوى الخارقة - أي الفراسة والتخاطر ونفاذ الصيرة وصنع المعجزات

... الخ - لكن الأمر يستحق المحاولة.

بلغ الاستاذ (ايديموند هوسرل<sup>(١)</sup>) مطلع القرن العشرين حقيقة ادراكية مهمة

تقتضي أن «الادراك» البسيط أمر لا يحدث على الأهل، فالت اذا وضعت هذا

الكتاب على ركبتيك وطاف بصرك ارجاء العرقة لرأيت هذا الأمر كأنك ترى

وتسمع فحسب كل ما يصل جوارحك بيد ان عقلك مستمر في واقع الأمر على

اختيار وانتخاب وتفسير وتحليل الأشياء وأحياناً على خلطها وتشويهاها. لقد

سمعنا جميعاً عن نسوة هستيريات يعتقدن بانهن تعرضن للإغتصاب او عن

(١) هوسرل Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨). فيلسوف ألماني. تسأل عن العلاقات بين الحياة

والشعور الذاتي واللغة والادراك الحسي ليوهر الأشياء ومن ثم حقيقة العالم والانسان. أسس

مذهب الظواهرية الذي يقول ان العقل لا يدرك الا الظواهر فينكر معنى الجوهر.

رجال دين متحمسين خال لهم اهم رأو المسيح والملائكة بسيرون عبر السماء .  
 لكن الجسم المباشر في حالات كهذه أنها مجرد سراب أو حقيقة لن يكون سلباً كما  
 يرى . (فنحن جميعا نفعل نفس الأشياء طيلة فترة صحونا كل يوم) . وعليه  
 ينحسر الإدراك الحسي الوحيد الذي لنا وصفه بـ (التقاء) في الأصوات التي  
 نتخرف مسامعنا ونحن بين الصحو والوسن أو في الأشياء التي تراها والعقل فارغ  
 من كل فكرة .

ان من الصعب اصطفاة العقل، في ظل ظروف طبيعية، وهو مشغول في  
 خلط وقرز الأشياء فهناك الخداع البصري الذي قد يعبر عن وجوده بتأذج  
 عطوط، كأن يبدو عطفان مستقيان خطين منحنيين بسبب وجود بعض الخطوط  
 المستعرضة أو عندما ينحني عطفان الى الداخل ويدوان اقصر من اخرين منحنيين  
 الى الخارج وهذا ان دل على شيء قانها يدل على ان العقل يعتمد كثيرا على نوع  
 من الاختزال وموئناً انها حقائق لا جدال فيها . غير أن افضل وسيلة لدراسة  
 قدرة الخلط والتشويه لدى العقل الإنساني هي من خلال دراسة علم النفس  
 الجنسي والديني لأن اقوى قوى العقل تكمن فيها<sup>(١)</sup>

اخترع (هومرل) تقنيات دراسة قوى الخلط في العقل واطلق على طريقته  
 اسم (علم الظواهر) وهي بلا شك اهم الطرق الفلسفية في القرن العشرين .

ان اولى الخطوات اذن لتفهم راسيوتين هو ادراك وجود قوى تقف خلف  
 عتبة الوعي وانها تتداخل باستمرار مع طريقة رؤيتنا للعالم الذي نعيش فيه وهي  
 رؤية أقرب تشبيهاً بحالة امة تعتقد ان لها صحافة حرة مطلقة وهي تعلم بوجود  
 عيون ترقب كل شيء يظهر في الصحافة . إن رؤية الأشياء كما هي لا يتأني

(١) اقرأ لي (اصول الدفاع الجنسي) . المؤلف .

بمجرد أن تفتح عينيك وترى، بل هي مسألة تدريب فلسفي طويل وقاسي .  
 ويطلق هرسل على فرضية (الادراك) اسم (نقطة الامتشاف الطبيعية) . وان كل  
 ما كتب عن راسيوتين كان مصدره نقطة الامتشاف الطبيعية دون أن تشهد  
 محاولة تأخذ بعين الإعتبار القوى العقلية الكامنة خلف حدود الضمير والتي لا  
 يجب خلطها مع (اللاوعي) الفرويدني برغم وجود مناطق تتداخل وتشابه  
 بينهما .

نستنتج من ذلك بان (الادراك البسيط) هو مغالطة بحد ذاته . فالى جانب  
 التحامل الواعي الذي ندرک أننا نرضه على العالم من حولنا ثمة الف تحامل لا  
 واعي تفترض به أمراً واقعياً .

غير أن العقل (بضمي) دوماً (صبغة) أساسية للعالم الذي يرى يمكن أن  
 ندعوها مسألة اثبات الأشياء ونفيها . فالواقع يمكن رؤيته من خلال النسوة  
 القصوى لتصوف أو في هذيان امره شديد الإرتياب من الآخرين وفي مئات  
 الطرائق بين هذين البعدين فالتجربة المشتركة توجد في نقطة ما في وسط الطريق  
 بينهما لما هي إلا طيفاً في ناحية النفي .

وليس من اليسير تحديد مسألة النفي أو الاثبات تحديداً دقيقاً طالما أننا  
 نتقبل تفسير أمزجتنا بين فبن وأخر بصفته أمراً حتمياً، كتقبلنا لسوء هضم في  
 المعدة أو بثرة حمى على الشفة .

يبد أن قدرة العقل على تلوين تجربته قد يتيسر الوصول اليه أحياناً . تأمل  
 مثلاً هلم المقطع من رواية (عائلة كولفليوف) (لشريدن) وهي احدي اكثر  
 الروايات تشاؤماً في الأدب الروسي :-

كانت تقضي جل يومها كسولة فجلس على كرسياها وتشر على الطائفة  
اعامسا ورفها المسخ ويغلبها التعاس حينئذ. ثم تستيقظ وتظفر وتطيل النظر من  
النافذة ثم، دونها فكرة تشغلها... تحول بعينها في الحقول الواسعة الممتدة  
على مد البصر. لقد كانت (يوكوريلكا) كئيبه... ليس فيها للعين ما يمتع...  
وما من شواخص تزين موقعها... لا حديقته فيها ولا ظلال ولا مكان  
للاسترخاء... وحتى الأبنية خلفها توحي بالخراب... وتمتد حولها من كل  
صوب حقول مترامية الأطراف... حقول تجردت من الشجر.

لا يبدو ان الروائي يطرح هنا اي تلفيق ولم يحاول بلوغ نمط (كراهام  
كسرين) في الاقمام فللنظر صاحب كاتسامة ابله. وفي المشهد مسحة موحشة وهو  
جد عادي، لكن الروائي يعوض في أحيان وصف فيقول:-

أطالت نظراً الى الأفق... وتطلعت الى القرى الغارقة في المطر والتي بدت  
كسبع سوداء على الأفق... والى الكنائس البيضاء في الغابر والى رقع الظلال  
الملونة التي كونتها الغمامات على السهل.

يشير وصف الروائي للقرى الغارقة في المطر والتي بدت كسبع سوداء على  
الأفق، لدى القاري، الذي تقبل عقله الوصف الكئيب وتأثر به قليلا، ومضة  
مستطرفة من ومضات الحياة... انها رائحة المطر على الطرق المبللة وسعيد  
الى الذهن كل ملامح وروائع قرية ما في يوم ممطر. وستشهد للحظة الجنادران  
الوهمية التي أرتد دعاصمها أحاسيس الروائع وسشقوح عنها رائحة الحياة  
الحقيقية لتدرك حينها اننا كنا ضحية نوع من لعبة الثقة... لعبة مارسها  
علينا عقلنا عن طريق احتيادنا الفكري على ملاحظة جوانب معينة فقط من  
تجربتنا وعمل إطلاق العنان لهذه الجوانب في تكرين أمرجتنا. اتنا تدرك بان

السهل العادي الكئيب الخالي من الشجر ما هو إلا جانباً واحداً من الحقيقة. وبها  
يرى (فان كوخ) هذا الوصف مشوها بقوة الحياة او ملتصعا كجوهرة قريفة. بيد  
انا سنضل عن روح الفلسفة إذا ما اعترقنا وقتنا ان نظرة الزاهد في الدنيا هي  
النظرة المعرقة واللاواقعية. ان ما يحدث عند قراءة عبارة الروائي «قرى غارقة  
بالمطر» والتي تخلق تموجا معينتا في العقل هو ان (الحواس تنفتح) وتقبل من  
الواقعية أكثر مما سندركه في الحالة الطبيعية وتتغذى القرية اشد ارتباطا بالواقع،  
بدلا من ان تظل سجيبة وسط جدران لا مرئية. ان العقل مرغم على بناء  
جدران لامرئية وعلى انتخاب وعزل ما يراه... فما اشبهه بجدار منطلق مع  
الريح وعليه أن يُوقف عند اشارة حمراء. ان النظرة الشمولية للأمر توهم من  
فعاليتنا ومقدرتنا على اليقظة، وبالتالي المخاطرة باحتيالية مستقبلية لـ (وهي  
شمولي). بيد ان الإنسان قادر، برغم أنه (متكهن) في حدود حواسه الخمس  
كما يشير بليك، على الخروج (من هذا الكهف أتى شاء) فيفتح (أبواب الادراك)  
ويشعر غرابة الواقع الخارجي (أو غيرته). ولا أرى أن من الصواب تماما  
الافتراض ان الإنسان قادر على الخروج من محدودية حواسه أتى شاء فالأمر  
يتطلب نظاما عقليا شديدا القوة او يتطلب استخدام مخدرات معينة، مثل  
المسكاليين، ومع هذا يبقى بمقدور من يدرك أن نقطة الاستشراق الطبيعية  
ليست هي الحقيقة المطلقة بل هي عرف فحسب، الخروج وقتنا بشاء والتحرر  
من قيود حواسه.

ان احدى قواعد نقطة الاستشراق الطبيعية لدينا، باعتبارنا كائنات  
اجتماعية، هي تبني موقف يتلوي على انعدام حيال العالم من حولنا، وفيما هي  
ليست بالريبة المطلقة التي غطت المزاجيات الكئيبه لفان كوخ عندما كتب «لن  
يتسهي البؤس» فلانها بعيدة كل البعد ايضا عن اجماليات الحياة التي تراها في

رسوماته او في بعض من أوراق الشر التي كتبها نيشه.

أما «الامكاني» فيصل الى اكتشاف على جانب من الأهمية مفاده ان انعدام  
ثقتنا في العالم شعور مبالغ فيه على الأرجح. كتب هـ.ج. ويلز قائلا:-

«إذا ما حطم الانسان الجدران الورقية لظروف حياته البيومية . . . تلك  
الجدران الوهمية التي تكبل أغلبنا من المهد الى اللحد، فيكون قد فعل صنيعاً  
جديداً. وإذا ما غدا العالم كآبة فإن يوسعك قلبه».

ان أولى الخطوات هذا الرفض القريري لقطعة الاستشراف الطبيعية هي  
التصميم على هجر الطمأنينة التي اعتادها الانسان. . . وسيضيء، طبعياً، من  
يشي هذا القرار نابذاً للعالم وجوالاً ينشد الحقيقة.

صحيح ان «المشالية» لا يمكن إيجادها في العالم الخارجي وأن كثيراً من  
رومانسي القرن التاسع عشر قد كتبوا اعمالاً يكتنفها اليأس ينتهي فيها الجوال او  
السائح بالإنتحار او الموت من شدة الإرهاق، لكن حفة منهم حاولت ان  
تمس وقع ان يكون المرء جوالاً وريياً اكتشفوا أن مجرد تجوالهم في أعقاب  
«المشالية» سيحلب لهم بعض التغيرات ويمتد قدرا من الحرية من سجن  
الشخصية الأولى. ان نبذ الدعة والطمأنينة يخلق بدءا شعورا صحيا لبداية  
جديدة وشعورا بالتفوق على من ظلوا مكتسبين برداء الخوف من الحياة كما يخاف  
المسهم من الفيد، ويتلقى الوجود كله عتفاً ودقنا جديدا.

يبد ان التغير، الذي يمكن ان يحدث، نادرا ما يكون عميقا ومتواصلا اذا  
ما بقي بعيدا عن الدين لأن ما من شيء يمنع تكون شخصية جديدة قائمة على  
اللاطمأنينة المادية على ان تكون هذه الشخصية الجديدة بالضرورة أدنى من

الشخصية القديمة في جوانب معينة، فمثلا سرعان ما يدرك «الجوال» او  
«السائح» أنه يدفع في السويغات الأول من رحلته، ثمناً لهيجته وحرته انشغاله  
بمئات القلائل الصغيرة: اين سينام؟ وكيف سيتدير وجبة الأكل القادمة؟  
وسيتخطب في شعور الضياع فالعالم الخارجي يتطلب الآن منه اهتماما أكثر من ذي  
قبل. وهذا الشغاف في الإهتمام للعالم الخارجي يتطلب اهتماماً متكافئاً له في  
الجوانب الذاتية، لأن شعور الضياع يستوجب توازناً مضاداً له بالعودة الى جوهر  
الهدف من هذا الترحال في اعماق الوعي وهذا لا يتم تحقيقه إلا بالصلاة او  
التأمل. ان الصلاة نبذاً للشخصية الواعية. وبينما توجه صلاة المتلذبن الجاهل  
بدواخل الإيمان خارجاً وكأنها موجهة الى سلطة ماء، تنتج صلاة المؤمن فطريا الى  
الداخل. . . الى نوع الهدف الذي يتترق الوعي والضمير كخندق شديد العمق  
وفي حالة كهذه يصعب على الشخصية الجديدة التثاقف في صدقة محصنة  
وستواصل معها الدافع الجوهري للحرية.

ثمرة هذا الموقف الجديد حيال العالم الأكثر أهمية هي انها تطور «الدافع  
الزهدى» حيث تبدو الأشياء (مختلفة) عن سابق حالها لسبب بسيط هو نشرب  
الأدراك الحسي بمزيد من الفعالية. و (ستتفتح) الحواس وستملك مزيداً من  
الطاقة في حزينتها وستولد عن الطاقة المخزونة عدم ثقة لمواجهة طوارئ الأمور  
وكل هذا سيتحرر ويتطلق. وسيدعم وضوح الغاية العقل الذي سيهدأ وسيكون  
نحاض هذا التنسيق بين المخ والأعصاب والجسد درجة جديدة من الصحة.  
ويدرك جميع الأطباء أهمية الموقف العقلي للمريض تجاه المرض فمن يظن الموت  
عاقبة مرضه يكون قد خسر نصف المعركة والعكس صحيح. وهذا ما يفسر  
صحة رامسيوتين القوية والثابتة التي تصل الى حد يصبح فيه مجرد وجوده قادراً  
على منح القوة لشخص مريض.



ليس من الغريب إذن أن تتحسس زوجة راسبوتين التغيير في زوجها بعد هودته من أول زيارة له لفلسطين. فمعظمنا يعيش غمار تجرية تغيير كبرى في الشخصية لا غير عند العبور من المراهقة إلى دور البلوغ والنضج، وتبقى الشخصية ساكنة مستقرة بعد ذلك. أما راسبوتين فقد نجح في المرور بدوري بلوغ في حياته واكتشف أيضاً ما تجلّت له صيغة صالحة لإحداث تطوير جديد في الشخصية وهي الصلاة ونبذ متاع الحياة. وكان راسبوتين -مجدد في الصلاة والشهيد قوة لا نظير لها وأمضى حياته لا مبالياً وعازفاً عن الرغبة في امتلاك حطام الدنيا.

من كل هذا ندرك الآن سر امتلاكه لسطوة عظيمة كهذه على القصر والستراتيغا اللذان طاردهما المخاوف من القدر المفعج المشؤوم ومن نهاية حكم سلانها، فقد ظننا الأمر مفضياً أن يطاردهما القدر بسوء حظهما وهما في موقفها هذا قد جاء بسوء الحظ على نفسها. لقد أضاعت عليها الخناق (نقطة الاستشراف الطبيعية) فيما جسد وجود راسبوتين انكاراً للقدرية ورفض الإنسان للهزيمة النهائية. وبينما كان كلامها عصبياً، أمسك راسبوتين بزمام أعصابه، كان هو في قمة السيطرة على زمام أعصابه. وكانا مدركين لنفسورهما وعجزهما كثير أما هو فقد كان يعتقد بان احساس الإنسان بقصوره وعجزه ما هو إلا تقليداً اعصى لا واعي... مجرد عادة قابلة للتغيير كبقية العادات بما فيها عادة الخوف من الموت. وبات القيصر وزوجته في حضوره أكثر ثباتية فهو مصدر طاقتيهما. وبينما كان عقل كليهما نصف نائم يتخبط الاحلام المقلقة بالواقع، كان عقل راسبوتين في اقصى درجات الصحة.

### غارجييف:-

لا تملك، لشديد الأسف، قصاصة ورقة كتبها راسبوتين بخط يده في اولى سنوات ترحاله كما لم يتحدث عن شيء منها لأحد. لكننا نملك من الوثائق ما يكفي عن اشخاص نهجوا نهج راسبوتين، سيما معاصرة جورج ايفانوفيتش غارجييف، الذي سيدعم الفناء القصره على حياته بعض ما يقال عن راسبوتين بشكل او بآخر:-

ولد غارجييف في الوقت عينه الذي ولد فيه راسبوتين تقريبا في (الكساندرابول) في اقليم (ارمينيا) وأمضى طفولته وشبابه في (كارس) التي كانت جزءا من روسيا ولكنها الآن ضمن الأراضي التركية. اهتم منذ نعومة اظفاره بالسحر وبالقوى الخفية للعقل وقد شاهد في صغره الدراويش وهم يقومون باعمال بطولية خارقة بواسطة السحر وشاهد أيضا طفلا يزيدنيا فقد القدرة على عبور الدائرة التي رسمت حوله. تلقى غارجييف تعليمه على يد عميد الأكاديمية العسكرية في كارس الذي اعتقد بإمكانية غارجييف العقلية على التطور. وما ان ادرك غارجييف ذلك حتى قرر التجوال سعياً وراء اجوبة لأسئلة أفلقت مضجعه تتعلق بشخصية الإنسان وحدود مقدراته وحجم امكانياته. وقد روى بعضاً عن رحلاته تلك في كتابه «اللقاء برجال جديريين بالاهتمام»، وفيها سافر لأستراليا والتت حيث غدا معلماً خصوصاً للفن (داليه لاما)، ونهب في بعثة لصحراء كوبي المهجورة بحثاً عن مدينة مطمورة. استغرق في تجواله زناً يقارب ما استغرقه راسبوتين في تجواله، ثم شرع على مدى النصف الثاني من تسعينات القرن التاسع عشر وبواكير العقد الأول من القرن الحادي بالقاء الخطب في موسكو على مجموعات من التابعين المختارين كان بينهم (بي. دي. اوسينسكي) الذي التقاه هناك عام 1914 وبات تلميذه التابع.

ظل غارجيف مراراً بين بطرسبورغ وموسكو وموزعاً نشاطه هنا وهناك وقد  
اجمع كل من الشقاء على امتلاكه صفات أعادت إلى ذاكرتهم صفات راسبوتين  
وهنا عبر (ليولين بوز) عن ذلك بقوله: «في وجوده سحر غريب يترك أثراً على  
الأعصاب على نحو غريب». وأطلق على تلاميذه صفة (ارانب منومة  
مغنطيسياً). كان (روم لاندو) من الأوائل من قارنوا غارجيف براسبوتين،  
ووصف لقاءه له مع غارجيف قائلاً:-

«كنت حذراً ألا أنظر إليه وأن أحجب عن عيني نظراته إليهما لأطول من  
دقيقتين في أقل تقدير وسلخت طول الوقت أنظر إلى الصبي بيد أن شعوراً  
بالضعف بدأ ينسلل لأعماقي شيئاً فشيئاً.

كنت يقظاً وواعياً لما يجري في داخلي وكنت أحمس هذه التجربة الجديدة  
المثيرة وأنا في أشد حالات الإدراك. كنت أشعر برجفة شديدة تحتاج معدني  
بلغت دوماً درجة الألم الجسدي والخوف. لم يسر هذا الضعف إلا لمعدني وساقني  
التنان تحللها احساس أشبه باحساس المرء قبيل دخوله قاعة المحكمة، لذا كنت  
والتقا أن ساقني سيخذلاني إن حاولت التهوص.

وبرغم ادراكي أن حالتي المرعبة التي أعيشها الآن ناجمة عن تأثير  
غارجيف، فقد بقيت ساكن الروع حتى عزمت على الخروج منها أن ضاعفت  
من تركيزي على سير الحوار بيني وبين الصبي و شيئاً فشيئاً اختفى الإحساس  
بالضعف وبدأت أعود إلى حالتي الطبيعية مرة أخرى.

إن لتجربتي الغريبة هذه تعليقات عديدة... قريباً كانت صيغة من صيغ  
التنويم المغناطيسي أو حتى التنويم المغناطيسي الذاتي الذي أثر، لسبب ما، على  
الجزء السفلي من جسدي... أو ربما شكلاً من أشكال القبض الكهربائي التي

يقال إن راسبوتين يمتلك منها ما يفوقه بكثير. ويبدو هذا النمط من الإشعاع  
فارعلاً حتى لو لم يكن مالكه مدركاً وواعياً لوجوده وينتمي إليه كما تنتمي بعض  
العطور والروائح لبعض الأعراف.

غير أن تفسيراً آخر لتجربتي الغريبة تلك لما يزل عالقاً، قريباً يشمر اختبار  
العراف عن نتائج (عائلة) لنتائج تجربتي - طبقاً لأراء العرافين- وما هو (رودلف  
ستيز) قد تفحص الناس هذه الطريقة أحياناً والتي تتلخص أن تتطلع العينة إلى  
روح المرء بدلاً من جسده.<sup>(١)</sup>

لقد انتشيت المقطع الأخير طالما هو يشير إلى القدرة ذاتها التي قيل إن  
راسبوتين يمتلكها، وهي قدرة النفوذ إلى «أعماق» الناس.

ولتقارن الآن تعليق لاندو عن غارجيف مع وصف يوسوف للقاء مشابه  
له مع راسبوتين<sup>(٢)</sup>.

«امرئ» (الستاروتيز) بالاستفتاء على الأريكة، ووقف قبالي وأطال النظر  
إلى عيني. وأخذ يضرب بخفة على صدري ووقبتي ورأسي. وعلى حين غرة  
ركع وشرع - كما يبدو- بالصلاة واضعاً يده على جبيني. ثم أطرق حتى لم أهد  
قادراً أن أرى وجهه.

ظل على هذا الحال حيناً ثم قفز فجأة وبدأ يلذع الغرفة ذهاباً وإياباً. وبدأ  
حسين المعرفة بطرائق التنويم المغناطيسي، وذا قابلية عظمى على التنويم  
المغناطيسي. فقد أحست أنها تقهرني وتشيع الدفء في كيالي فأخذني الحذر وبدأ

(١) روم لاندو: (الله هو مشارقي)، غير وغير، ١٩٤١.  
(٢) يونس يوسوف: راسبوتين، تأليف الماكر والمياله، ص ١١٣.

جسدي مشلولاً. حاولت الكلام ولكن لساني عصالي وشعرت أن النوم قد غلبني كما لو كنت تحت تأثير مخدر. ومع هذا تلالأت عينا راسبتين كضوء فسفوري، وانطلق من كليهما شعاع اندمج مع الآخر وكوينا دائرة لامعة براققة، تحركت بعيداً عني أول وهلة ثم أخذت بالاقتراب مني أكثر فأكثر. وكنت أشعر أني بقادر أن أميز عينيهِ والدائرة قريبة مني ثم لا يلبثان أن يتلاشيا ويتخفيا داخل الدائرة حين تبعد عني. لقد أدركت أن (الستارتيز) كان يتحدث ولكني لم استطع أن أميز أي الكلمات يتعلق.

هكذا كانت حالتي وأنا جالس بل حراك لا أقوى كلاماً ولا أحرك ساكناً. بيد أن عقلي لما يزل حراً وأدركت أنني كنت أقع تدريجياً في شباك قوة هذا الرجل الغامض.

لكنني مرعبان ما شعرت أن قوتي الداخلية بدأت تفيق وتقاوم التويم المغناطيسي بذات حدتها. وتعاظمت قوتها في داخلي وفي وهي وطافت في عقلي البواعث فكرة غامضة أن صراعاً عيقاً يدور رحاه بيني وبين راسبتين وأن شخصيتي، في معركة ضدها، أحالت دون هزيمتي منه. ثم حاولت تحريك يدي فطاوعتني الآن، لكنني لم أجد من حالي فقد انتظرت أمر راسبتين بذلك.

وغدت الآن قادراً أن أميز شخصه ووجهه وعينه فقد ثابت من أمامي الدائرة الرهيبية. . . وقال لي: «حسن يا عزيزي، هذا يكفي هذه المرة».

يتعلق الآن للمحائنين كلشاهما سؤال يتعلق بمدى تأثير التويم المغناطيسي الذي في هكذا تجربة أو بوضوحه الكثر إلى أي مدى ستكون فيه تلك التجربة غامض خيالي. ومع هذا، ثمة الكثير من الدلائل المسجلة حول قدرة راسبتين وغارجيف التي تجعل من هذه التجربة وسواها حقيقة لا يشوبها غبار. فقد

جرب (اوسبيتسكي) أحد تلاميذ غارجيف، والذي يملك حساً علمياً متوقفاً فقدره استاذة التخاطرية بعد ان غيره دهر طويل. وقد وصف في كتابه في سبيل البحث عن المعجزة هذه التجربة وقال: «استطع ان اؤكد ان غارجيف لم يستخدم بشائنا اي طرائق خارجية، فهو لم يعطيني اي نوع من المخدرات ولم يستخدم اي نمط من انماط التويم المغناطيسي المعروفة». سمع اوسبيتسكي صوت غارجيف: «في احمق صدره» واجاب عقلياً على أسئلة غارجيف الذي كان آنذاك جالساً بمعية آخرين في شرفته.

لم يكن غارجيف، شأنه في ذلك شأن راسبتين، ناقد من الاستفادة من تلميذاته. وثمة الكثير من الحكايات عن قدرته الجنسية. وهنا يروي (روم لاندو) طرفة عن سبيلة امريكية هي (احدى اعظم روثياتنا) كانت تجلس على طاولة قرب غارجيف وفجأة شحب وجهها وشارفت على الإغماء. اعترفت بعدها لصديقتها بان غارجيف نظر اليها فشمعت فجأة بانها اصيبت في صميم حسها الجنسي».

ولم تكن أساليب راسبتين، وفقاً لما أورده فولوب ميلر، لتختلف كثيراً عن طرائق غارجيف برغم ان سرد (فيرا شكوفسكايا) اقل غموضاً:-

سحبتني لعرفة النوم بمنزلة لوي... وما هي الا برهة حتى استحالت وحشاً تفتريه رغبته، وآخر ما أذكر، ان أسعفتني ذاكرتي، أنه مزق ملاسبي الداخلية وفقدت الوعي بعدها. وصحوت فوجدت نفسي ملقاة على الأرض، ملوثة وجرحمة.

لكن تلك كانت زيارتها الثانية وهي تحدثت عن قوة التويم المغناطيسي التي اقنعها بالعودة اليه ثانية.

ان دراسة أعمق لغارجييف وراسبوتين ستفصح عن مزيد من الصفات المشتركة بينهما، لكننا نقر هنا ان غارجييف يمتلك عقلاً انتصح واوسع من راسبوتين. ويقود معركته ضد «خول العقل» سلاح الوصي التام. لكنه تجل، مثل راسبوتين وعكس تلميذه اوسينكي، متديناً بالقطرة وكثيراً ما يردد عبارة «يعون الله» في كتابه «اللقاء برجال جديرون بالإهتمام». ولو أراد القدر أن يلتقي القيصر غارجييف لا راسبوتين عام ١٩٠٥ لعدنا اقوى رجلين وايغض رجلين في روسيا، لكن حسن طالعهم أبعده عن دوامة السياسة فأطال من عمره ثلاثين عاماً أكثر من راسبوتين حتى توفي في باريس بسبب التخمعة بعد الحرب العالمية الثانية.

نستشف من المقارنة بين غارجييف وراسبوتين جوهر المشكلة المركزية في شخصية راسبوتين، وهي المشكلة ذاتها التي قلنا بلغها كتاب سيرته الذاتية ويبدو هذا جلياً عند قراءة عنوان احد الكتب عنه: «قديس ام شيطان؟». فهؤلاء الرجال ليسوا مجرد دجالين أذكيا بل هم أناس ملكوا قوة حقيقية. فحق لنا أن نتساءل اذن: اي نوع من الرجال يمثلون؟ فما كان أحدهم بقديس وما كان برجل خارق- لو كنا نعني بالرجل الخارق نوع الانسان رفيع المقام. فكيف نحدد إذن هذا النوع الروحي؟

يسيطر (السدوس هوكسلي) اللثام عن مشكلة مماثلة في كتابه الموسوم «السحر الكتيب»، الذي هو دراسة عن الأب جوزيف في باريس. ويتساءل الكاتب: كيف بوسع الأب أن يكون قديساً وسياسياً متفلاً في آن واحد، بل وأكثر من ذلك أن يغدو المسؤول الأول عن حرب الثلاثين عاماً؟ لقد مارس الأب جوزيف مبدأ الزهد في ابتعاده عن العالم والإنغماس في حب الله وعمل في الوقت ذاته سفيراً ومستشاراً لـ (ريشيلو) ودفع باوروبا نحو الحرب. وهو، كأغلب الساسة، لم يتلمس عواقب أفعاله في اطار المعاناة الانسانية. وعليه أمس

لفعله هذا مسؤولاً غير مباشر عن موت ثمانية ملايين نسمة في المانيا وحدها، ومع هذا تثبت كتاباته أنه قد أحسن صنعاً في درب القداسة.

لقد خير شيئاً عن العالم الآخر - عالم السرمديّة- لا يعقله فحسب بل باطلاعه الفعلي المباشر عليه.

ربما أضحت القداسة قاصرة لهذا السبب. فالقديس أكثر اهتماماً بالله من اهتمامه الممكن لبني البشر. وثمة شيء يجذب وناقص في طبيعته. وخير مثال لنا في (راماكريشنا) التي لو قرأها المرء لتسلله نفس الشعور وتلجس فيها عنصر الطفولة في تقواه لربه وفيها مسحة أنانية وحتى سخافة مطلقة.

وتزداد المشكلة صعوبة لدى راسبوتين وغارجييف. فقد كان غارجييف- على سبيل المثال لا الحصر- مادياً بحثاً برغم ما قاله احد اتباعه انه اصبح عباً للغير واقل سادية بعد تعرضه لحادث على دراجته النارية عام ١٩٣٥. وقد خصص فصلاً كاملاً في كتابه «رجال جديرون بالإهتمام» للتعليق على أساليبه في جمع المال والتي كانت تقتر للشرعية، ويبدو انه كان يجد متعة في وصف نذالاته بينما كان راسبوتين عازفاً عن المال لكنه كان عباً للنغوة ومتيحاً بتأثيره على الآخرين.

يلقي راماكريشنا في ملاحظة شيقة له بعض الضوء على هذه المشكلة، فيقول ان الناس يتجذبون للقديسين كما ينجذب الدبور للعسل لأن القديس يشع ولما يسمى في محاورته البطية للوصول المباشر للرب قوة تخرج منه دون أدنى جهد له.

ونستطيع رصد هذه القوة في كل يوم. فما علينا الا الذعاب الـ «ركن

المتحدثين، في ( هايد بارك ) وتزق بعض المتحدثين وقد أحسوا بلاء في بلاغتهم لكنهم ما لبثوا أن فقدوا تأثيرهم على الجمع المستمع في اللحظة التي أوقفوا فيها الحديث . انهم يفشرون للقوة التي تحدث عنها راماكريشنا والتي يكتسبها المتدرب ببطئاً وبعد صبر طويل . فاذا ما تحقق له ذلك ضمنت له طبيعة المتدرب انه لن يسيء استخدامها .

لكن لهذا القانون استثناءاته . فبعض الرجال يولدون وهم على تماس مع (القوة الداخلية) كما يولد بعض الأطفال برأسين . وهذا النمط من الرجال سيغدو لأنه اقتصر الى التنوير الأخلاقي الاخطر بين انماط الجنس البشري . وهكذا كان نابليون وهكذا ولد هتلر . وهذا هو نوع القوة الذي يعنيه الفوضويون عندما يقولون ان القوة تمثت في الأشياء فساداً . ويبدو ان قوة هتلر قريبة في نواح عديدة من قوة راسبوتين اذ استخدم تعبير التنويم المغناطيسي كثيراً في تأثيره على جمهوره . (يبدو ان صدى هذه القوى مسموع فقط عندما يكون الجمهور كبيراً ولا تظهر بشكل فاعل في الاتصال الشخصي المباشر) . ويتحدث (كبرت لوديك) عن بلاغة هتلر الخطابية فيقول :-

أنت لي ان أسأى عن سطوة قوته؟ انها تمسك بها وتؤرجحني . . . لست أنا فحسب بل جميع من في الصالة . لقد أسرتني شعور أن أثقل عن ارادتي لقيادته .  
يبدو هذا التعليق كأن مصدره احدي تلميذات راسبوتين .

كان راسبوتين وغارجيف من هذه الفئة وان كانا أقل درجة بقليل من هتلر . وكلاهما سلخ سنين طوال يطور من قدرته . ومع هذا فقد اكتسبها بيسر بينما لم يجاري تطورهما الأخلاقي تطور قدرتيهما . وعليه فقد شوهتها بعض الشيء قدرتها . ويبدو هذا جواباً لبعض تناقضات شخصية راسبوتين والتي

حيرت الكثير من كتاب سيرته الذاتية وتحدثت عنها باسهاب لاحقاً .

تؤكد دلائل الأصدقاء والأعداء و (المراقبين الاسوياء) أن راسبوتين ملك قدرات لا يستهان بها تنقسم الى نمطين مختلفين لا يجب الخلط بينها برغم تضاعفها المحدود :- انهما اجتراح المعجزات والتنويم المغناطيسي . وترتبط قدرته على التنويم المغناطيسي بقوة شخصية التي صقلتها سنين التجوال . غير أن قدراته على صنع المعجزات هي نتاج وجهة نظره الأساسية تجاه العالم . اذ يجد معظم البشر صعوبة في الإسترخاء من وجهة نظر دفاعية معينة حيال العالم ، وتكون النتيجة بقاؤهم في حدود شخصياتهم المحيطة بهم بخط دفاعي . لقد ادرك راسبوتين وهو طفل أن حريته وحببه للخير أمران مقضيان وتطوى موقفه من العالم على الإسترخاء والاتساع ، وهو الموقف الذي دعى اليه (قيسيس كويمبي) والسيدة (ايدبي) . (لم تعتقد السيدة ايدبي أن المرض الجسدي هو انعكاس للمرض العقلي فحسب بل علمت ان الخط العائر وحوادثه ليس الا نوعاً من انواع المرض الذي يمكن تصديقه بإدراك الخير الذي يجعله العالم لنا) . كان راسبوتين مكتشفاً روحياً لأنه لم يكن يخشى الوثوق في الآخرين ولا المغامرة خارج الخط الدفاعي لحدود شخصيته . وقد علمته نتائج تجاربه أن حساباته لم تكن خطأ . لقد كان يشع الثقة بالحياة وليس في جوانب شخصيته اية شعوضة . يبدو ان هذه الثقة لم تكن من نمط الثقة الطفولية التي لدى القديس فرانسيس او راماكريشنا . ولأنه كان قروبياً ولد في بلاد عاملت القروبين كحيوانات لقرون عديدة ، فقد حافظ على وعي طريقي عميق ولم يتغلب على رغبته في السيطرة على عليه القوم . لكنه لم يكن زاهداً كفايماً كي يصبح قديماً برغم أنه ، مقارنة مع معاصريه ، كان أتمودج الزهد ، لقد أفاضت شخصيته بهذا الوعي الطيفي العدواني حتى سحقته آخر المطاف .

## الفصل السادس

### ارتقاء السلطة

أثار راسبوتين حيناً وطأت قدمه عداء الآخرين له، لكن أغلب من عاداه ظهر في بطرسبورغ بين عام ١٩٠٧ وموته. ولا يصعب علينا معرفة سبب ذلك. فمدينة بطرسبورغ كانت رمزاً للشدهور والانحطاط الخلفي الذي لم يترك ركناً منها الا ونخره.

لا يدرك معظم الناس قيمة الحياة الا حفنة من الشعراء والمتصوفين. ويربها يدرك المحكوم بالإعدام قبيل زحف روحه قيمة الحياة باكملها. وقد ورد عن قاطع طريق امريكي يدعى جاردني بيرجر قوله وحيل المشقة حول وقته: «ان العالم جبل فعلاً... لكنه لم يدرك ذلك الا قبيل الموت. لقد كانت حياته شريطاً من الحمضية والوحشية والغباء»<sup>(١)</sup> والنية اذا ما دنت حثيثاً لصاحبها ازاحت عن عينيه غشاوة جعلتها مكثرتين مناهقاً حيث تتحد الجوارح مع الخيال ويبدو ملل الإنسان منتهى العيب. وقد بلغت مدينة بطرسبورغ ذروة الانحطاط والتفسخ جسدها كتاب أمثال (الندريف وارتيشيف وبيلي وبريسوف). وبينما كانت بطرسبورغ طافية فوق بريق متهور محموم في ظاهرها فإن باطنها ما زال لا مبالياً كما صورها هكذا (كوكول وكونشاروف). فالمال قد غير ملمس الأكف

(١) أعدم بيرجر في ويلامسون كوتشي، ايلينويس، في نيسان عام ١٩٢٨ وقد كان مهرباً وسفاحاً. انظر كتاب بول النجل (اللجوء للمنف).

سريعاً، والنساء قد استبدلن شريك الليلة سيراً. وهنا كتب (كونت فاسيلي) الذي عبر أربعة قياصرة بلهجة ساخطة قائلاً:-

اختفت الصالونات... وجن بدلا من النسوة اللاتي كن صتغن وسحقن السمعة الاجتماعية بأرائهن وامزجتهن نساء احتلن الصفوف المتقدمة بفضل ثروتهن أو لوقاحتهن وجراتهن، واللاتي تجمع حوفن الكثير للعب البريدج او لمناقشة انفة المواضيع... اما فن الغزل الذي بلغ ذروة الكمال في سالف الأيام فقد اندرس، فلم يتجشم المرء عناء المغازلة وله أن يتال ما يمتي دون مشقة؟ ويذهب فاسيلي أبعد من ذلك، وهو يعلم من أين تؤكل الكتف، فيصف أسباب السأم والاضطراب:-

سها تعاطمت زلات القياصرة... وسهيا أعاثوا في الأرض ايلناء، فلن ينكر أحد عليهم شذتهم... أما قيصرا الخالي فهو سفير القياصرة الأول الذي اجتمع فيه الضعف واللاحمز وهو اول من افترق اهمية الوجود لدى رعاياه الذين لا يكن أحدهم له بغضاً ولا يخشون له عاقبة.

ويحتم فاسيلي كتابه بكلمات ذات نغمة تنم على نبوءة حقيقية:-

لم يشهد سفر التاريخ الروسي، ولكم أن تصدقوني، حاكماً ابتغى حماية الله اكثر من نيقولا الثاني... في السنة التاسع عشرة من حكمه العائر الحظ والكتب.

كتب فاسيلي هذا في عام ١٩١٣.

لقد أصاب فاسيلي الحقيقة في كلماته. فقد اغتاد الروس على حكم قياصرة شذاه، اما الآن فحاكمهم ضعيف واخن. لكنهم برغم ذلك احسن حالا في

ظل حكم نيقولا الثاني من حاكم امام حكم ابيه. فأمامهم نصيب أولر من الحرية. لكن الحرية مسألة نفسية لا يمكن لها ان تتعايش مع السأم والاحطاط الحياتة. وعليه نال سكان بطرسبورغ اقل حرية من اتي وقت وفي منذ زمن «الهدان الرهيب».

وصوب ذلك المنزل المنتهيب، قدم فلاح لا يفقه عن الحرية الا نزوا ولم يكن من حفنة الذين حطوا من شأن الحياة وما كان يكيش فداء لمرض عصبي واستهجن أن الحياة تحدر مصيره المزمومة. لم يكن ويجوده إلا اهانة لمن هم مرضى ووحيا، وعليه أصبح عاجزاً أن يخفي عنهم استعاضه منهم. لقد أهاجت شيطانه رائحة الأجساد المدللة والعقول الناقهة فأقسى عليها في رد فعله. كان قريبا في حالته هذه من (هانديل) في لندن عشرينات القرن الثامن عشر مع فاروق وحيد هو ان هانديل كان فادوا على الثبات استقلاليته عن المجتمع الحديث (برغم انه كساد يفقد حياته وعقله). ولأنه كان عبقرياً خلاقاً فقد تعثرت أحقاد الآخرين أن تنسخط داخل غرفة كتابته. لكن الانسان كان مادة راسبوتين فهو مضطرب للشحوك بينهم باستمرار. فكان من المستحيل الا يشعر بحقدهم وكراهيتهم، وكانت استجابته الختمية أن يكون اكثر عداء مع من يكره من الناس. كما بدأ يفشقد للأصدقاء ولناس يتق يوم وهذا الجوع للصدقة قد اسهم في سقوطه.

كان راسبوتين غريباً في اختياره اصدقاءه. وكان اجدهم يهودياً صغير الحجم اسمه (أرون سيبانوفيش) يعمل جواهريا النقاء راسبوتين في كيبف وعالج ابنه في شارع (فيستوس دانس). وهو نفسه سيبانوفيش الذي كتب سرداً مثيراً عن حياة راسبوتين افقد تماماً الى الواقعية. جاء سيبانوفيش شارع بطرسبورغ في عام ١٩٠٢ وسرعان ما اصبح جواهرى التزارينا، والتي كانت بجانب كثرة عيوبها بخيلة أسالمت بحالها صفة منسببة على القصر الملكي الروسي. وقد اعتاد



سيانوفيش يبيعها المجوهرات بحساب مفتوح هو نوع من نظام التأجير- البيع بسعر منخفض. وربما استعاد خسارته مع التزاريئا مع اعضاء البلاط الآخرين فقد سجل قائلاً: «ان النبلاء الروس يجهلون تماما لغة الأعمال». تكيف سيانوفيش، بخلاف راسبوتين، على جو بطرسبورغ الحارِف وعلى مكائده فانغمس فيه جذلا مستغلا كل فرص تحصيل المال، لذا سرعان ما اقام نوادي ليلية وحلقات قمار واماكن دعارة. وربما تبرر سيرة حياته وجهات النظر المناهضة للسامية التي تبناها اتحاد الروسيين المخلصين، آخذين بنظر الاعتبار أن يهود روسيا لم ينالوا من حقوقهم قطاً برغم أنهم ليسوا أقل عدداً من أعدادهم في باقي بقاع العالم. كتب بيرس قائلاً: «لا تعلق القضية بالحقوق التي لا يتمتع بها اليهود بل بحقوقهم بالوجود اصلاً». استوطن اليهود مكروهين في اطراف المدن وحرم عليهم استخدام خدم مسيحيين وارسال اطفالهم للمدارس. وتمازت الشرطة في معاملتها لليهود (وفقاً لتوجيهات عليا) ولم ينالوا لذلك انصافاً قانونياً وأجيز للشرطة ادارة (خدع حاية) الى الحد الذي كان سيدهش (أل كايوفي)، فلا عجب اذن ليهودي مثل سيانوفيش أن يتجرد من خنز الضمير ويستغل مجتمعا منحطاً.

اصبح سيانوفيش، بشهادته هو، معلم راسبوتين السياسي، وهو قد أعدّ المثابة، شأنه في ذلك شأن من كرموا أنفسهم لحياكة المكائد، عشا لا يرجى منها فائدة وهو ما أضفى على اعجابه براسبوتين مسحة الازدياء. ويتذكر كيف وبتخ راسبوتين بين الحين والآخر كطفل ليعطي انطباعاً أنه كان (السفنيكالي) يقف خلف السفنيكالي. ربما يقول الحقيقة فراسبوتين لا يعرف شيئاً عن السياسة وقصة حياته تؤكد تعلمه القليل منها برغم معونة سيانوفيش.

غالباً ما عمل سيانوفيش وسيطا بين راسبوتين وبين سيدة أخرى من

سيدات البلاط تدعى (آنا فيرويوف)، ابنة (الكيندر تانيف) رئيس القضاة الإمبراطوري ومؤلف موسيقى<sup>(١)</sup> من الدرجة الأولى. غدا تانيف احد مقربى التزاريئا بسبب ولعها بالموسيقى، فكان قادراً على كسب تأييدها. كما أحبت التزاريئا (آنا فيرويوف) لطبعها الحميم الصريح ولاخلاصها الديني العميق (عولجت آنا في طفولتها من مرض خطير على يد جون من الكرونيستات بان صلى قرب فراشها ونثراماً مقدساً على جبينها). لكن آنا كانت غيبة تحب الهمز واللمز ومتزومة إلى حد بعيد وكان هذا سبباً آخر لحب التزاريئا لها. سرعان ما شرع القيصر وزوجته بالبحث عن زوج للبطلة القبيحة. فوجدوا ضابطاً بحرباً يدعى (فيرويوف) ودفعوا آنا للزواج منه برغم تحوفاها الشديد. ثم اصيب الضابط باضطراب عصبي في تسوشيما فاصبح سلوكه متوتراً. لذلك قررت آنا استشارة صديقتها الدوقة الكبيرة ميليشا فأشارت عليها بمقابلة راسبوتين... الرجل الذي يعرف كل شيء. وعليه حضرت آنا فيرويوف الى منزل ميليشا في نيسان ١٩٠٧ وقابلت الفلاح راسبوتين الذي ترك عليها أثره حين حدّق فيها للحظة ثم أخبرها أن قدر زواجها الفشل... وحدثها عن تفاصيل أخرى لمجمل صحيحة بعدئذ. أصابت الدعشة آنا وعبرت عن مخاوفها للتزاريئا. لكن تحضيرات الزواج قد تمت ولم يعد هناك سبيلاً للرجوع. فاصبحت في الثالث عشر من أيار عام ١٩٠٧ العروس الكارفة للضابط فيرويوف. لم يجعل الزواج السعادة التي كانت تنشدها لكن موقف التزاريئا تركها فريسة الحيرة فقد أبدت غيبتها على آنا. كان طبيعياً أن تبدل وسعها لعيني صديقتها لكن سلوكها أثار قسوة زوجها الذي شعر نفسه شخصاً مركباً. وأخيراً وبفضل تدبيرات التزاريئا

(١) يجب عدم خلطه مع ابن اخيه سيرجي تانيف الذي كان مؤلفاً بارعاً. كتب اوبرا تدعى (اوريشيا) بثلاث مقاطع. اشتهر سيرجي تانيف خارج روسيا لأن زوجة تولستوي وقعت بغرامه وبقيت على حبه سنوات عديدة فكانت الشيعة كتاب تولستوي (مولانا الكروتر).

تم تعيين فيرويوف على متن سفينة تجوب العالم فذهب الى الكولتادات. وقد اكتشف عند وصوله أن السفينة ستأخر بضعة أيام بسبب عطل في المحرك لذلك قفل واجعا ليرى زوجته في قصرها في يتزهوف (المترال الصفي للقيصر). لكنه فوجيء، بالمكان محاطا بالحرس وليس بوسعه رؤية زوجته لأنها مع التزارينا. انتظر حتى رحلت التزارينا لكنه فوجيء ثانية أن ليس بوسعه الدخول وهنا فقد عقله ودخل القصر عنوة. بعيد وقت قليل، خرجت زوجته صابحة ودعت الى القصر الصفي لاجنة للتزارينا هناك. ليس المعلوم بعد بإذا اهتمها زوجها لكن غضب التزارينا بلغ الزبي فلمرت البدء باجراءات الطلاق فوراً. وانتهى زواج أنا فيرويوف بعد شهور قليلة. فتحققت نبوءات راسبوتين حول مصير زواجها كما قال.

اذن من المحتمل ان تكون أنا هي اول من همس باسم راسبوتين في اذن التزارينا بعد شهر عندما مرض التزاريفتش مرضاً شديداً. ورغم ان راسبوتين كان قد التقى القيصر مرة قبل عامين فإذ زيارته (تزاريكوسيلو) هي الاولى أو الثانية في ذلك الحين. وهذا قول يفضي الى الاستنتاج أن راسبوتين لم يلتق بأنا إلا في عام ١٩٠٧ برغم انها كانت الصديقة المقربة للتزارينا منذ شباط ١٩٠٥. كنا قد وصفنا ما حدث في غرفة التزاريفتش عندما كان مريضاً في الفصل السابق أو استنتاجنا من تعليقات ( فولوب ميلر وليسان ). أصبح راسبوتين ومد حينها المستشار الروحي للتزارينا والصديق المقرب لأنا فيرويوف. فيما دارت الشائعات في بطرسبورغ أنه كان حينها. لكن هذا الزعم لا ينجم وطبيعة أنا، ويقدر ما نعرفها. ومد حينها أيضاً عدت أناحفة الوصل الرئيسية بين راسبوتين والعائلة المالكة وداثة البلاط، فاذا ما تعرض لهجوم الوزراء الناقمين أو لإتهامات الكنيسة بالعزوبة، كانت أنا فيرويوف حاضرة على الدوام ومؤكدة للتزارينا أن ما

هذا الا حكر الماكسين وان (صديقها) ليس الا رجلا مقدسا كأني قدس في التقويم الروسي، يخالف المعصية ويحس التفكير بها.

كلما تعاضم أثر راسبوتين في البلاط زاد عدد معاونيه وشركائه مثل الطيب الغربي الأطوار ( بيتر اليكساندروفيتش بادمايف ) وهو طيب اعشاب يكثر راسبوتين بعشرين عاماً تقريبا. درس اللغة الصينية والمغولية في الجامعة واصبح بعدها محاضرا وخادماً مديناً. تعلم يادمايف، مثل تسابته الرفيه مدام (بلافاتسكي)، اسرار الطب في التبت، لكنه كان عكس راسبوتين، يتمتع بعنف سياسي حقيقي وضعه في خدمة التزار كلما احتاج القيصر الى نصيحة في الشؤون المغولية. وقد افزع القادة المغوليين ابان الحرب الصينية بدخول الحرب الى جانب روسيا وفاز بحقوة التزار. ادرك يادمايف ان راسبوتين جدير ان يصبح حليفه فباتا صديقين وشكلا حلقا مفرغاً، فهذا يادمايف يجد متعة في الحديث السياسية وكثيراً ما كان يستغل نفوذه مع القيصر لقضائ مواعيد لأصدقائه الذين كان أغلبهم مرضاه السابقين. وكان هو الذي اهتموه بمهابة المطاف بتدبير مرض التزاريفتش ليشيح لراسبوتين معالجته.

كان اكثر شركاء راسبوتين اهمية بعد (سيانوفيتش) مغامرا مشؤوماً يدعى (ماناسفيتش مانييلوف) وهو يهودي صغير عمل في وزارة الداخلية مفرط الاناقة على الدوام. لقد كان هذا اليهودي مكرماً بالفطرة مثل يادمايف. وبدأ مسيرته على سلم النفوذ أن تحمض بحماة امير قديم لديه ميول جنسية شاذة يدعى ميشيرسكي الذي هو صديق دوستوفسكي. وقد كُتِب «ميشيرسكي الشبه بالعنكبوت»، كما وصفه بيرس، مريضه المفضل على حب الترف ثم أرسله لبطرسبورغ بصفة جاسوس تابع للبوليس الروسي. وحقق في بطرسبورغ نجاحا منقطع النظير فأرسلوه للعمل في باريس تحت اسم ( راشكوفسكي ) - الرجل

الذي طرده من منصبه مراحته الشديدة بخصوص الطيب قليب . وربما كان هو السبب في طرد راشكوفسكي فقد اتهمه بالجنس عليه وأرسل ماتيلوف الى روسا لرشوة القصة . ثم عمل تحت امره (ليلهف) لمدة سنتين وتآمر ضد عدو ليلهف (وت) . غير انه عمل ايضا لحساب (وت) الذي استخدمه وسيطاً بينه وبين افس جابون الذي تصاد الميرة نحو القصر الشنوي عام ١٩٠٥ . تميرت مؤامراته بقوة عقلها حتى يصعب وصفها وتفسيرها باختصار . كان عميلاً مشتركاً ليلهف ووت . انضم الى الثوار ثم خانهم لدى الشرطة التي خدعها هي الأخرى بكشف أسرارها لدى الثوار ، سيما الثائر اللذان الصيت (بيرستيف) الذي قال له مينيلوف جهاراً : «انا رجل لا أملك ذمة . . . أعبد المال وأقدس الحياة» . (ساعد بعدها بيرستيف في الهرب من السجن ثم من روسيا بأكملها) . لقد حصد من سلوكه المعقد هذا مالاً وفيراً تبذره منه سريعاً . وقد سرق ، ابان الحرب اليابانية ، الشيفرة اليابانية فكوفي . بمنحه وسام فلاديمير .

مرعان ما أدرك هذا الرش الموسيقي الساخر فائدة راسبوتين الكامنة ، لذا حرص ألا يكون مبتدلاً . وربما كان في نذالته شيئاً محبباً تفسرها درجة تقربه لدى راسبوتين . فهو قد زار راسبوتين كل يوم تقريباً وفي كل مرة استقباله الأخير بالأحضان بعد أن يكون قد قطع لقاءاته ان كانت لديه . ثم يفرغان في حجرة معزلة يتهاسان لساعات طويلة أحياناً .

انه سوء الحظ الذي أوقع راسبوتين بعد أن غدا قريباً الى البلاط بأصدقائه هم أسوأ الناس مكرراً وأكثرهم أنانية وأشدهم رجعية . ويبدو ان القدر قد صمم على ان تكون قدراته محط التعليقات الرديئة المشية . لك أن تحب راسبوتين وتثق فيه ، لكن عمالاً أن يكون لسك هذا مع معاونيه ما خلا بسادمايف الذي يبدو رجلاً حر الخلق طيب الطبيعة (وبعد الثورة بقي القبض على بادمايف وأنا

وساتيلوف وهم يحاولون الهرب من روسيا لكن دعائة خلق بادمايف وسراجه جعلت من سجنه احدغاه له) . أما أنا فكانت ظاهرة في الغباء والكلاب وقد اعلنت في مذكراتها أن (راسبوتين لا له والسياسة ناقة ولا جمل) . وكان ماتيلوف محتالاً ومبتزاً ولصاً بل وخبثاً لأقرب الناس اليه . كان يثير في القصر حماسة على اقامة مذابح منظمة حينئذ وجد فيها غاية ينشدها . اما سياتوفيش فكان محتالاً وخبياً للهمز الماكر الذي يشكل جزءاً منها من كسبائه عن راسبوتين . منصف لاحقاً (سترومر) الذي اعماه راسبوتين على أن يكون رئيس وزراء والذي كان ربما كارثة حقيقية .

لم يكن راسبوتين يعرف عن السياسة الكثير عندما جاء بطرمبورغ وكان كارهاً للمكائد . لكه أمسى بغير قصد وفي غضون خمسة أعوام مركز الثأمر في بطرمبورغ . فليس من الغريب ان يزعم اعداؤه برأسهم ستوليين أنه كان كسائر رجال أمثال كاتيلوف وسياتوفيش في عيبتهم بينما كان لرجال مخلصين مثل يوسوف وروديانكو جحياً لا يطلق .

لكن كيف تورط راسبوتين في مؤامرات بطرمبورغ إن لم يكن مهتماً بالسياسة؟ من سهل الجواب في حقيقة ان رجالاً أمثال ماتيلوف وسياتوفيش لم يهدروا الوقت في اقتناعه باستغلال تأثيره في البلاط ولانه كان من نمط الرجال الذين ما فتأ المحتاجون يترجون منه عطفاً وهم متجهرون أمام عتية داره . كان رجلاً ذكاً لفتوا وتأثير في بطرمبورغ عندما عالج النزاقيش عام ١٩٠٧ . لكن تأثيره لم يدخل حقل السياسة . لقد قصده الناس لأنه مشافياً ولأنهم عرفوه بقدرته على كشف المستقبل . ونادراً ما رفض رواية من قصده . وعندما علم الناس بزيارته السرية للقيصر في نزارينكو سيلو . كان من الطبيعي ان يترجأه المستكين استخدام تأثيره وعونه في انضمام ابنائهم كشافة في الخيانت او اقامتهم

للخضعة المدنية، وهو رجاء كان مرفوضه رجل مثل جون من الكرونستادت او حتى الراهب ايليوودور تيلدوين انهما اضعف من أن يستطيعا مد يد العون لهم. لكن راسيونين كان ، ولسوء الحظ، ضعيفاً أمام حاجة الآخرين له. وإذا ما عرفت بطرمسيورغ بزياراته السرية واصبحت حديث الناس فله أن يتحمل وزر حماقاته فقد كان سادجا ذا روح متفتحة لم ير ضميراً في الفشاء سر زيارته. وحالما ادرك أنه يتمنع بتأثير يضمن له لقاءات صغيرة- دون الحاجة لابلاغ القيصر او التزارينا- استخدم ذلك النفوذ بكرم مثلما فرّق الأموال التي كان يحصل عليها.

لم يدرك راسيونين إلا متأخراً أن موقعه المجهد كمقرب للتزار والتزارينا جلب عليه عداة وحقد رجال بطرمسيورغ، ليس بسبب معرفته الشخصية بالعائلة المالكة بل لاستغلاله موقعاً يؤهله معرفة كل المعلومات السرية. فظن ان امتنع التزار والتزارينا عن عقد حلقات البلاط اتحصر عدد الناس الذين يلتقيهم بمجموعة صغيرة كان أغلب أعضائها من الوزراء وروساء الكنائس وأمثالهم. ومعظم هؤلاء لا يستقرون على رأي يتم بفكر التزار فهو جد متقلب، سريع التأثر بالشخص الذي يتحدث اليه وكثيراً ما يغير رأيه بين حلقة وأخرى. من ناحية أخرى ثمة عدد قليل من رجال العاشية الملكية لم يكن التزار أمامهم لسانه أمثال: رئيس الحجية ومدير القصر وآنا فيريوف والادميرال نيلفو والجنرال زايمان وستة اشخاص آخرين. لقد كانوا جميعاً في موقع متفقد واستحقت حتى صفات معلوماتهم الكثير من المال بالنسبة للموظفين واصحاب البنوك واصحاب رؤوس الأموال.

عندت المعلومات سلعة تباع وتشاع وسرعان ما أركن بعض المخاضمين للمعلومة وباعوها وحصلوا على الأرباح. وكان على رأسهم الأمير المنحوس اندرونيكوف الشاذ جنسياً الذي وصف نفسه «مراقفاً للرب». سار اندرونيكوف

في جو من العنوض خلفه نفسه حاملاً حقبة اختوت عادة على صفحات قديمة وأمنسى ايامه متردداً على الوزارات للهمز واللمز مقتنعاً بما يجد في طريقه من معلومات. وكان المصدر الرئيسي للمعلومات هو رئيس حجية القصر الذي ارتبط معه بعلاقة جنسية شاذة على الأرجح. وقد تقاضى اندرونيكوف راتباً شهرياً من وزارة الداخلية التي لم يقطع عنها بالمعلومات وكان يدير بهذا الراتب امور صالونه البسيط الذي تردد عليه اي احد يستفيد من التزار. فيها أدار صالونات مشابهة أخرى (بورديكوف) الذي أطلق عليها أسماء مثل (سيد الجواد) و (البارونة الوردية). كان لكلا الصالونين مصدراً للمعلومات في البلاط وفتح كلامهما بالأهمية التي أتسها بها تلك المعلومات. وظهر أيضاً اثنان او ثلاثة صالونات مختصة بالمعلومات لكنها لم تتل أهمية الصالونات السابقة.

أراح راسيونين عن نفسه بخطوة واحدة غير مهيئة كل منافسه في سوق المعلومات. وبرغم أن اندرونيكوف وبورديكوف طلاقادين على الاثنان يبتغين النبا بسرعة من مصادرها الخاصة. (كان بورديكوف يعتمد بصورة رئيسية على الأدميرال ينلوف والجنرال زايلين)، ظلل راسيونين قادهوا ليس على المحي. بقرارات القيصر بل في التأثير عليها بفضل موقعه المنفرد. وهذا ما أهاج شيطان منافسه عليه وأجج غريتهم على مستقبل روسيا.

لكن راسيونين ظل لشهور عديدة بعد ولوجه القصر قوة مجهولة وانحصر الخمس عنه يدائرة التزارينا. وقد أرح (بيليتسكي) رئيس الشرطة (الذي فقد منصبه بسبب تدخل راسيونين واستعاداه لاحقاً بفضله)، بداية نفوذ راسيونين بمستهل عام ١٩٠٨. بيد أن راسيونين كان آنذاك زائراً يوسياً للقصر لما يناهز ستة اشهر أقام له فيها علاقات خيفة النطاق وقوية الأساس مع التزارينا وبهبة العائلة المالكة وعداة التزاروفيتش.

احس راسبوتين بالملل والسأم حتى في شهور نفوذ الاول. فقد أعجبه التزارينا لكن لم يفته ملاحظة انها كانت مستبدة وهستيرية. وتوضح صور ريبها حالاً حزينا كتيباً اختفى أغلبه من على ملامح صور أخرى التفتت لها لاحقاً لكن الحزن يبدو كأنه جعل من وجهها شمعة تقطر اسماً. كانت تجتره فأحيا لذلك راسبوتين. وما كان هذا القول ليقال لو كانت التزارينا مجرد مضيئة من سيدات بطرسبورغ.

كان موقف راسبوتين حيال التزار نفسه مزيجاً عجيباً من الإحترام والإزدراء. وقد وصفه بـ «رجل بلا دواخل» وهو ما يعني «رجلاً بلا ارادة حقيقية» شديد التأثير بالآخرين فيما طغى التناقض على تقسيم التزار لراسبوتين. فهو قد أدرك قدرات راسبوتين ولم يساوره شك في قداسة «الستاريز». وكان يصغي لمن وشى به من الوزراء متلهفاً ثم يطلب منه تقديم ادلة دامغة. ربما كان ضيقاً من هيام زوجته براسبوتين سيما بعد قرأته لرسائلها التي سرقت من راسبوتين بعد عدة سنوات وقدمها له وزير طائش بدلاً من أن يعطيها لزوجته.

تطلع نيقولا الى راسبوتين بنظرة ملؤها الكره والخوف والإحترام وبلغ احياناً كثيرة حافة أن يسحب البساط من تحت أقدام راسبوتين. وتلك هي الأحيان التي أخذ فيها راسبوتين التمرد أن استخدم إحدى معجزاته الأخرى (كما سيتضح ذلك لاحقاً). أحاطت المشاكل علاقة راسبوتين بالتزاريفتش الصغير. فقد صورها معظم الكتاب على انها عبادة عاطفية كان فيها الصبي عابداً للبطولة المتجسدة في شخص راسبوتين. لكن معلم الصبي (كيليارد) يشير بصراحة الى ان اليكسي مقت راسبوتين وهو احتمال وارد وأكثر منه احتمالاً أن راسبوتين وجد فيه طفلاً مزعجاً. كان الأجدى باليكسي ان يصبح قديماً بدلاً من ان يكون طفلاً مدللًا لا يكبح له جراح. فقد نشأ في عائلة تقودها امرأة

تشعر بالذنب لمرضه. اضافة لذلك عارض نيقولا تزمت أبيه فأعطى لذلك ابته ما شاء أن يطلب. ووفقاً لتعليق كيليارد، كان التزاريفتش طيباً بطبعه وقد تجذبت طبيته هذه عندما توسل لأبيه أن يعيد طاهياً طرد من وظيفته. ويضيف كيليارد أن الصبي كان يرتبك عندما يركع أمامه بعض الفلاحين وهو ينتزه بمسحة معلمه. لكنه اجتاز مرحلة الإرتباك هذه الى مرحلة تمتع فيها بالإحساس بسلطته. كتب الأمير (بول فاسيلي) حانقا:-

كثير من التفاهات كتبت عن مرضه... ان هذا الواقع حزين اليم لا يحتاج لمبالغة تزيد الطين بلة... لقد سأم التزاريفتش سمعاً أن وجوده أثمن ما يملك والداه وأن ما يبوي مجاب في الحال. لذلك شعر دوماً باهميته وادرك سريعاً حقوقه لكنه جهل واجباته، كان مغروراً بطبعه وقد شجع الجميع غروره هذا بدلاً من تقويمه. فلا احد يستطيع كبح جماحه او حتى معارضته. كان يضرب اخواته ويستأسد على خدمه وكان يهدد المتعوس الذي يحاول تصحيح سلوكه بكل انواع العقاب.

ينظري تعليق الأمير فاسيلي على تحامل مجحف، ومع هذا تبقى وجهة نظره جديرة بالملاحظة، لعلها تصحح وجهة النظر المألوفة للطفل الملائكي الساوي الذي صرخته رصاصات التزار مبكراً. ويعيد فاسيلي قصة مشوقة عن وزير الخارجية (ايفولسكي) الذي كان ينتظر مقابلة القيصر. فبينما كان ايفولسكي جالساً يتحدث لشخص ما مر التزاريفتش الذي لم يتجاوز بعد ستة الخامسة او السادسة دون ان يدرك ايفولسكي ذلك. سار الطفل الى مجلس الرجلين وقال بلهجة امبراطورية «على الوزراء النهوض عندما يجتاز وريث العرش الغرفة». ارتبك ايفولسكي لما سمع وربما انتابته الرغبة في صم اذنيه ولم ينفوه بكلمة بقولها. طرقت هذه الحادثة مسامع التزار (وقد نقلها له ايفولسكي

بصعوبة بالغة) فقال فيها: «اجل، ستجد لاحقا ان التعامل مع ابني اصعب من التعامل معي». وقد علق الأمير فاسيلي بقسوة قائلا بان اي أب اقل هياما بابنه كان قد عاقب الطفل لإهاتته رجلا جنديا بالإحترام.

وروى الأمير فاسيلي قصة أخرى تناقض ما رواه كليارد عن الفلاحين، جاء فيها أن الصبي أحب أن يلقي الجنود التحية حيثما حل. لكن الفرق العسكرية دائما ما تجاهلته لو حضر بمعية أبيه وحيث بدلاً عنه التزار، وهذا ما حداه أن يعدو قبيل أبيه في الاستعراضات العسكرية ويفوز بتحية الجنود. لقد سبب سلوكه هذا ازعاجا كبيرا لقادة الجيش وقد اشتكى الدوق الكبير نيوقولا لدى التزار أن فرق الجيش لم تعد تعرف من تحمي. لذلك أمر التزار وريت العرش أن يلتزم جانبه في السير مستقبلاً.

هنا نستطيع القول أن نصف الإشاعات الماكرة بحق مزاج الصبي وسلوكه لو صدقت حصلت روسيا على قيصر آخر على شاكلة اسلافه المستبدين<sup>(١)</sup>.

ادرك كليارد مغبة هذا التخنت والدلال وتوصل للقيصر أن يمنح الصغير حورية أكثر. كان والداً جد حساسين للموافقة على طلب كهذا وبرغم أن الصبي قد سقط من على أريكة وجرح ركبته وهو ما تسبب في الأثمة المرضية - مثلما يشير لذلك بيرس - لم يحاول والداً لوم المعلم على ما حدث ولم يعدلا من قرارهما بمنحه مزيداً من الحرية.

يزعم الأمير فاسيلي أن التزاريفيتش كان يضرب اخواته. وهذا ادعاء لا

(١) لم يكن فاسيلي من جهة أخرى دقيقاً في معلوماته كما يظهر: يذكر مثلاً أن التزاريفيتش لم يكن لديه معلم لذلك كان يعتمد على أمه واخواته في تزويده تعليمات. ويبدو أنه تجاهل تماماً وجود كليارد.

يستند على أساس من الصحة البتة. بيد ان الفتيات الأربع الجميلات عشن حياة ليس كما يعتقد العالم الخارجي، فلا حياة بلاط ولا حفلات زفاف ولا فرص لمقابلة ضباط شباب. لذلك كن يمضين جل وقتهن في التزاريسكو سيلو في القصر الشتوي... أربع اميرات في برج عالي. وتذكر ماريا راسبوتين انها كانت ترى في اليوم الواحد وجوهاً أكثر مما رأين في اسبوع.

كانت اولغا وهي اكبرهن منا جادة ومثابرة على القراءة فتراها تحمل كتابها انكليزيا عادة. (كانت الانكليزية لغة العائلة لان التزارينا نشأت في بريطانيا وتحدثت الروسية بتلكوه شديد). وكانت قراءتها بلا شك عرضة للمراقبة. اما تاتانيا، وهي الأجل، فقد غلبها غرورها وسلبت من أبيها سحر جماله وطيب طبيته وهي كانت يرغم خجلها هادئة الطبع وحية الخلق. اما الصغيرة اناستازيا المولدة سنة ١٩٠١ فهي أكثرهن حيوية وكانت تحب المغالب وتبديرها لأخواتها.

فليس مفاجأة إذن ان يحب راسبوتين الفتيات الأربع اللاتي سرعان ما أصبحن قريبات اليه. وربما لم يكن اهتمامه باولغا وتاتانيا افلاطونيا صرفاً برغم انه لا يبدو قد خطط لفعل شيء معين. لقد تبنى لنفسه عادة الذهاب الى غرف نومهن لتسهيلهن قبيل النوم في الليل متجاوزاً أحيانا حتى آداب طرق الباب وقد اشكت المريية مدام (توتشيف) للتزارينا من هذا السلوك. لكن التزارينا لم تذر ذرة شك في كريكوزنيا المقدس فهو مرفع عن الدنيا حتى مع الصبايا في ملابس النوم فسارعت في طردها. سرعان ما استغل راسبوتين ذلك وبدأ بمسازلة واعماره ممرضة الأميرات. وقد تحدثت الممرضة عن ذلك للراهب الذي استمع الى اعترافاتها ذاكراً ان الإغواء كان قد حدث في الحمامات<sup>(١)</sup> واصحابها الراهب

(١) أخبر رودزيانكو القيصر لاحقاً بأن الحمامات كانت المكان المفضل لدى راسبوتين لاغواء أتباعه من النساء وبما أن الحمام المشترك كان إحدى عادات الحليسية فإن راسبوتين إذن كان عضواً في هذه الزمرة.



الذهاب الى التزارينا لتحذيرها من تأثير هذا الشيطان». لكن ايهان التزارينا براسبوتين لم يتزعزع للمرة الثانية، زاعمة ان الممرضة تعالئ من ارتياك عصبي فارسلنها الى مصحة عقلية في كوكاسوز، ثم دافعت عنه امام القصر قائلة أن راسبوتين انما يحاكي (ابوستيلز) في حرته في تقبيل وضم الآخرين. لكن الممرضة حرصت على نشر قصة التأثير الشرير لراسبوتين في القصر الملكي في ارجاء بطرسبورغ. فدارت اشاعة تقول ان التزارينا وابنتها الكبيرتين كن عشيقات راسبوتين، وهي اشاعة سيرفضها علم النفس الادراكي. اذ قام تأثير راسبوتين على التزارينا على نظرتها اليه كقدس وهو قد حرص كثيرا الا تخامر سلوكه في القصر الشكوك. وتحاشى الحمر حتى امام (أنا فيريوف). لكن داماسكي، الوكيل المساعد للمجمع الكنسي، قال في سنة ١٩١٢ لروودزيانكو بان التزارينا كانت فعلا عشيقة راسبوتين وقد سلم بهذا الجنود الروس ايان الحرب.

ترسخت في العامين ١٩٠٨ و ١٩٠٩ جذور نفوذ راسبوتين الذي اصبح الرجل البياض نجمة في بطرسبورغ. لكنه وبرغم ذلك لم يألوا جهداً أن يثنأ بنفسه عن كل منفذ يتيح لاحدائه ضده وعليه كلما تعاطمت الإشاعات حول تأثيره في المنزل الإمبراطوري تعاطمت بالمقابل رغبة كل مضيفة في بطرسبورغ في حضوره لحفلاتها. وحتى عدوه اللدود رودزيانكو قد اعترف قائلاً:-

«كان يحصل على أتباعه وتلاميذه بلحم البصر، خاصة في المجتمع...  
سيا بين النساء اللاتي اتجلدين اليه كما يتجذب الديور للعسل...».

انها عامما الانتصار الذي تسلك فيه راسبوتين ذروة النجاح. فقد علا نجمة ملد التقي (جون) من الكروستادت في ١٩٠٣. لقد أمك الآن بتلايب الأسياء. كان قوي البنية وله ما يسمى بـ «الشخصية الغناطية». وطلعت

سمعته المشؤومة كزهر نساء لدرجة أن اشتته كل امرأة شجرة في بطرسبورغ. لقد أراد أن يظهر على غير اكتلاء، غير متصنع وغير مهين في ملبسه. قدمت له التزارينا وبناتها قمصاتنا مزخرفة وأهدته معجباته سراويل ناعمة وجرمات جلدية. فاصبح لذلك غندورا شديد التائق ولم يتوان في استغلال ذلك. وظل سخياً يصرف ما يأتيه من مال على غيره بيد انه كان سعيدا بتقبل الهدايا من الشيايب او الحمر المحللة، حتى ابتاعته الغراندوقة ميليتسا بيتا جديدا في بوكروفسكو بطابقين وهو اول بيت يطابقين في المدينة.

غير أن سلوكيات راسبوتين ازدادت سوءا. قال بيرس «كان يزدرى الرفيع المنزلة والقوي من كلا الجنسين» ويتحدث سيانوفيش عن اهانته التي لا يقبلها عقل. ويقول مراقب ساخط اخر أن راسبوتين كان يأمر بصوت عالٍ تلميذاته وانه وصف احدى سيدات المجتمع بـ «البقرة البدينة».

يسدو لشديد الأسف ان راسبوتين وجد متعة أن يفرض ارادته على «المجتمع» وهو قول لا يعني انه نوع من عصاب النجح. فبطرسبورغ كانت مدينة تجمع منحن جعل من جمع المال والزنى ونقل الشائعات اولى غاياته. رجالها يجرون المؤامرات ونساؤها هستيريات. وفيها كان راسبوتين مشير عن شخصه الحقد والكراهة وان كان مخلصاً. غير أن الراهب الدايونيسي قد واجه شهراتهم المحمومة بحيرته الهائلة وشهته المفتوحة للجنس وعطش للخمر مزوج مع قدرته على الإلتزان. كانت «العدمية» مفردة حديثة ليس في اطرافها السياسي فحسب بل بصفتها انكاراً اجتماعياً لكل القيم المطلقة. وقد أعد قادة الفكر والفنانين المعاصرين والكتاب كل التبريرات لهذا الإنجراف الخسالي من الهدف. كانت هناك من جهة العدمية الوحشية لاندرييف وارتيشاشيف والحنين الى الصروفية لدى مختلف الحركات الدينية التجديدية من جهة اخرى. وافضل



رواية لهد المدرسة هي «الملك المتقدّم ليرسوف وهي اطلالة على القرون الوسطى البعيدة عندما كان الشيطان واقعا محققا، لم تكن لراسبوتين اية علاقة بهؤلاء الناس. فالحياة تسري فيه بقوة الى حد تجعله لا يعطف على عبث ويأس مدرسة التدريس التي كان دافعها الرئيسي هو الندم الكحولي. لم يعان راسبوتين من الخمار بعدما يذهب عنه السكر في ساعات قتال ملها أفرط شرباً. اما بالنسبة للصوفية وعلم الأخلاق المسيحي المتعلق بالضحية بالذات وتعذيب النفس فقد كان لا مباليا بها اطلاقاً. كان دينه مخلصاً رغم كونه حيويًا وفطرياً قريبا من الشوة الداويونية التي وصفها نيتشه في «مولد المأساة». كانت عبادة غريزية لغوة الكون ومنطقية يجب ان يلعب الجنس دورا فيها

قد فقه هذا الرجل سخرية «النجاح». فالنجاح يعني العيش بين التافهين وأن يسقى إحياتهم له وتمجيدهم عليه وأن يتبصر من خلالها غاياتهم في استغلاله. انه يعني أن تعيش دوماً في خضم جو من الحقد والضعف والمعاونة في آسايين أخرى من أن يهينك رجال أعدوا أنفسهم أعز من أن يتزلفوا لفلاح. ومع هذا أدرك طوال الوقت أن الأمر برمته يتم عن سوء فهم. كان بلا شك يمتلك هبة نفاذ البصيرة وقابلية على الشفاء. بيد أن قوته اتكأت على نظرة التزارينا له انه قديساً وعلى ظن التزار به «مسيحياً شديداً» (وقد افصح التزار هذه الملاحظة التي نقلها راسبوتين أسرع من البرق للراهب ايليو دور قبل شروع ستوليسين بمؤامراته لتدمير سمعة راسبوتين). لم يكن راسبوتين برغم ملكتي الذكاء ونفاذ البصيرة اللتين أقرهما أشد أعدائه من كتاب سيرته قبل اصدقائه رجلاً فطناً قادراً على المصالحة بين غرائزه ومعتقداته الرهبانية. لذلك فقد سلاحاً كان سيظهره دفاعاً عن نفسه ضد صفات الماكر والدجال والمحتال التي اتهم بها الآخرون. وهو لم يسمع ابداً بنيتشه ولم يكن ليفهمه حتى لو سمع به. وعلية انطوى دفاعه

الوحيد ضد تكالبات كهله على الازدراء منها. فليس غريباً اختياره مقربيه من المشعوذين المحترفين امثال مانيلوف وسيانوفيش وأن يعامل تلميذاته على انهم حريم خاضعات له.

فما انغمس راسبوتين يمزج موقعه ويغدو أكثر رجال بطرسبورغ مداراً للحديث، كان للقيصر مشاغله الشاغلة. فالوضع الداخلي كان جد قلق برغم ان نيقولا لم يشعر بشيء يخيفه في (الدوسا) وواصل الساسة ورجال الشرطة يقتال أحدهم الآخر، وأعلن البلاشفة تحركهم علانية وتجاهلت الصحف ما يمكن ان تجره عليها صراحتها من غرامات ثقيلة، وغالباً ما أوقمت مطبوعاتها القيصريين بين الاحراج والحقن. لكن الوضع الدولي كان هو الآخر سيئاً. فقد بدأت اولى دمدمات الحرب العالمية بالظهور منذ عام ١٩٠٨ وقد اتفق نيقولا وكبير ويلهلم أن يدعم أحدهما الآخر، ولم ينس كمبر تكبير التزار أن روسيا تريد وتححتاج مستبداً مطلقاً. وهو الذي حثه على دخول حرب مع اليابان مؤكداً له أن مصير كوزيا روسية ثم غير نصيحته عندما توالى البلايا. وقد حرص كمبر ايضا على اطراء اكثر رجال الدولة لدى نيقولا وهو (وت) ودعاؤه لزيارته في نهاية الحرب اليابانية. وربما كان لسقوط (وت) من السلطة علاقة باستياء نيقولا المتزايد من كمبر. الى جانب آخر حث (ويلهلم) نيقولا على توقيع معاهدة حلف لا يضم فرنسا في الوقت الذي كان يعمل فيه وزير الخارجية الروسي جاساها لتحالف فرنسي - روسي وقد اجبر وزراء نيقولا الغاضبين بما فيهم وت القيصري على انكارها. (ويبدو ان نيقولا كان قد وقع المعاهدة دون اعلام حكومته وقد امر وزير بحريته على تصديقها بينما احتفظ هو بمحتوياتها لنفسه).

تجرع في عام ١٩٠٨ موقف محرج آخر يتعلق بتراث مند ابام بسبارك

والإكسندر الثاني. وقع الكسندر الثاني قبل الحرب الروسية - التركية في ١٨٧٧ اتفاقية مع النمسا بحق للنمسا فيها احتلال مقاطعات السلاف التي تشمل بوسنيا والمهرسك مقابل تعاونها في الحرب. لكن النمسا اخفقت في مساعدة روسيا لذا توجب الغاء المعاهدة. الا أن النمسا اعلنت فجأة في اكتوبر ١٩٠٨ أن المقاطعتين السلافيين ملك لها مما سبب هياجاً عالمياً. اكتشف نيقولا ان اللوم يقع على وزير خارجيته، ايفولسكي الذي خدعه بمكر بالغ وزير النمسا. استشاطت بريطانيا والنمسا غضباً لان روسيا كانت قد دخلت في تحالف معها قبل الحرب ولكنها الآن اكتشفت ان ايفولسكي قد تعامل سراً مع النمسا. اخذ الغضب مأخذه ايضا من كسر ويلهلم لحق حلفاءه التساويين لكنه قرر الوقوف الى جانبهم بعد بعض التذمر. توهجت حينها الوطنية وقد كانت «الدوما» وطنية كأشد الرجعيين تعصبا. فبدأ كل شيء كانه ينذر بالحرب.

في هذه المرحلة بالذات تدخل راسبوتين. لم يعلم احد ماذا حدث بالتحديد لان راسبوتين لم يكن في تلك الحقبة رجلاً ذا تأثير ونفوذ سياسيين لذلك لم يتحمل احد عناه التجسس عليه. لكنه حذر في عدة مناسبات من وقوع حرب مع النمسا لأنها، كما أخبر التزار، ستبدل السار على النهاية الروسية. وأما ردود أفعاله لاحتياطيات حرب ١٩١٤ فانها كانت أجدد بالتصديق. ربما لم يكن راسبوتين مسيحياً جيداً لكنه كان يؤمن بالسلام والأخوة العالميين. تاهيك عن ادراكه، كقروي، ما سيحيته شعب روسيا من ويلات الحرب. كان ما يزال في اكتوبر ١٩٠٨ عالمي المقام لدى القيصر الذي لما يزل يؤمن بقدرته النبوية. لذلك ارسل القيصر ايفولسكي الى لندن لتهدئة بريطانيا ثم الى برلين لمناقشة قضية المعاهدات والتحالفات ثم اسقطت والغيت في النهاية، وسمحت روسيا للنمسا بالإحتفاظ بوسنيا والمهرسك. وكما اشار راسبوتين في مناسبات عدة لا

تستحق دول البلقان التضحية بحياة جندي رومي وحيد.

## الفصل السابع

### تكالب الأعداء

يأخذ «اتحاد الروسيين المخلصين» على كاهله معظم المسؤولية في تقديم راسبوتين الى مجتمع بطرسبورغ. ففيها هو الآن قد غدا مؤثراً على العائلة المالكة وبها هم قد تسلل هاجس الشك الى حكمتهم. لقد حرص راسبوتين أن يحفظ للأسقفين تيوفان وغيره من خنوعه لها وبتجليله شخصيتها فأبداها اليه مؤسرين بقدراته ومتهين اعلاسه حتى بدايات عام ١٩١٠. لكنه تحشم أقل عناء في اخفاء كهذه مشاعر للراهب ايليدور. فهو قد أحب ايليدور من حيث لا يدري ولكن له الشاب ايليدور شديد الاعجاب، بيد أن راسبوتين ظن به متمتاً. وهو قد تفهم لم يشتم على الأسقفين أن يكونا ضروريين، فكلاهما طاعن في السن، أما ايليدور فكان يافعاً وهو لم يكن بأثر شكل الا جلاباً. لقد شعر راسبوتين أن من يطرح من الرجال الجنس من حياته يكون كمن يسرف غير واع ذاته. في جمعنا كثير من القول عن وجهة النظر هذه، فالزهدي المسيحي غالباً ما تجلت فيه ميزة سلبية عبرية. ولنا خبر مثال في وليام جيمس الذي يصف حياة القديس (لويس) من كوتزاجيا الذي نذر نفسه للعبودية في سن العاشرة والذي لم يرفع نظره عن الأرض ليحتمي نفسه من الإغراء. بل هو رفض حتى البقاء وحيداً مع امه في حجرة. ويضيف جيمس قائلاً: «لا أجد جناءً كالذي واجده في قداسة لويس» والمفرد أن يدرك وجهة نظره. ان من شغل البحث الروسي والفكري

عقله حتى لم يعد لباقي الأشياء فيه حيزاً له أن يتلوح معدوداً أن الجنس قد  
 ولاء. لكن الذي يعتبر الجنس شيطانياً، لأنه رأى شيطاناً يكون كمن دسّ نموه  
 بصفته انساناً. لقد تطلع راسبوتين الى القداسة فوجدها ميزة الانسانية لا انكاراً  
 لها. وهذا ما حداه أن يمازح ايليدور حول عزوبيته. وحينئذ ثمن راسبوتين لو  
 يندو ايليدور صديقاً له مفرّباً ونصيراً له في محته معاضداً. ولكن أنى يتأتى ذلك  
 ونظريتها للجنس حائللاً بينهما؟ لم يكن ايليدور من جهته جزءاً كما بدا عليه.  
 لكنه كان مدركاً أنه امام خيار صعب. وقتها كان من السهل على راسبوتين  
 الانحراف في بطرسبورغ، كان الاسقف هيرموجن جبار ايليدور الاقرب  
 وسيطرق مسامحة أى انحلال في سلوك ايليدور في تزارسين. وعدا ذلك كانت  
 صداقة هيرموجن وتيوفان مهمة لديه وقد اعتقد، خاطئاً، بان قوتها كانت  
 اعظم من قوة راسبوتين لو تصادما.

التقى راسبوتين في الأعوام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ اكثر مما التقى هيرموجن  
 وتيوفان وقد أسهب كلامهما حديثاً في قضية عودة روسيا الى سابق قوتها  
 وسيادتها. وكلامهما ادرك الجواب: انها بحاجة الى قيصر أحسن من أن يرام  
 وأعز من أن يضام تدعمه كنيسة أقوى من أن تلام. لكن راسبوتين بدأ  
 يستعرض حينها مطوته وكثيراً ما صدمت وجهة نظره ايليدور. كان غالباً ما  
 يتحدث عن العائلة الملكية ذاكرة التزارينا على انها «ماما» وقائل عن ثقبها بأنه  
 «لا يستطيع التنفس بدوي». ولعل راسبوتين وجد متعة مأكرة في التبعج امام  
 ايليدور. اذ أخبره قول التزار فيه أنه «مسيحي حقيقي» مضيفاً أنه غالباً ما ويخ  
 التزار. بل انه وصف -برغم انها تبدو مبالغة من جانب ايليدور- تقبيل  
 التزارينا في غرقة ابتئها.

دعا ايليدور راسبوتين عام ١٩٠٩ الى التزارسين وزيارة «القلعة الروحية»  
 التي ما زالت قيد الانشاء، وقد امضيا وقتاً كبيراً في زيارة اتباع ايليدور في  
 بيوتهم وفيها فرض راسبوتين تأثيره الشديد على الفلاحين البسطاء. بيد أن  
 ايليدور استشاط غضباً عندما أقدم راسبوتين على تقبيل اتباعه من النساء  
 وضعهن. ويعتقد فولوب ميلر أن لدى ايليدور اسباباً اعظم من ذلك لشعوره  
 بالامتنعاض من ضيفه المهم. فبعد وصولها الى التزارسين بقليل جاء سائق عربّة  
 شاب وهو أحد تلامذة ايليدور طالباً المعونة فزوجته قد هاجمها الشيطان وقد  
 بدأت بالتلوي على الأرض في نوبات عصبية شديدة صارخة وتتم بأشياء غير  
 مفهومة. اخذ ايليدور راسبوتين وقتينة من الماء المقدس ونثره على المرأة المهتاجة  
 مرتين بترتيل. بيد ان المرأة لم تظهر عليها علامات شفاء. وهنا طلب راسبوتين  
 اليهم أن يغادروا المكان ويتركوه يخلو مع المرأة فأطاعه ايليدور على مضض.  
 ومضى وقت طويل ثم خرج راسبوتين قائلاً: «لقد طردت الشيطان خارجاً». و  
 عادت المرأة الى طبيعتها.

تكرر المشهد ذاته بعد مضي ايام قلائل وفيه هاجم الشيطان ابنة اخ سيدة  
 تدعى (مدام لبيديف). عاشت الفتاة في غيبوبة بعد أن عانت من نوبات  
 عصبية. ومرة اخرى عجز ايليدور أن يفعل شيئاً وترك راسبوتين يخلو مع الفتاة  
 الفاقدة الوعي. أمضى معها راسبوتين اربع ساعات عاشها ايليدور لا يقر له  
 قرار فهو ما برح يستذكر كيف يتصيد راسبوتين في الماء العكر. ثم طلع  
 راسبوتين معلناً انتصاره فالفتاة ترفد بسلام وطلعت معه سمعته لتبلغ جميع  
 القرى المجاورة.

بعدها، دعا راسبوتين ايليدور لزيارة بوكروفسكو التي ما زال يهضي فيها

وقدنا كثيراً. وفي طريق رحلتها كشف راسبوتين للراهب عن أساير الماضي دون خراجة موضحاً أنه عاقر الحمر حتى سن الثلاثين. ولم يستبق لذاته على سر من مغامرته الجنسية. لقد بدا كأن راسبوتين استمتع في هن الشاب غنياً أو أنه اكتشف فيه رغبة صوب النفوذ أكثر من الدين وأراد أن يشتف عمق اديم النسوة فيه. بدا راسبوتين كما لو أنه فقد كل وازع في بوكروفسكو لحظة العودة إليها. فإذا ما كانت القبل التي أعدها على أتباع ايليدور من النساء قد نقرت الراهب شديداً فالقبيلات التي حنّ بها على أتباعه النساء قد أجزعت ايليدور حتى تسأل في نفسه مبهوراً ما إذا كانت بوكروفسكو حريم راسبوتين الخاص. ويقول ايليدور، كانت زوجة راسبوتين لامبالية تحيالة زوجها الفسوحة ونقل عنها قولها: «ان لديه من الطاقة ما يكفي لكل هؤلاء النسوة» فيما ظل ايليدور يتساءل: «أهو قديس ام شيطان؟». ربما لأن راسبوتين كان يعري ايليدور للقدارة الجنسية وعليه سمي ايليدور كتابه بـ «الشيطان المقدس» وهو أول سيرة ذاتية لراسبوتين تتمتع بالإثارة الحسية.

كان ايليدور لراسبوتين احترام التلميح لأستاذه ودليلنا لذلك أنه ما فكر لحظة أن يهجو هيرموجن وتيوفان. فاحفظ بوجهة نظره. وبقي له صديقاً طيلة حياته بل ودافع عن راسبوتين عندما بلغت هيرموجن الإشاعات المقلقة عن (الحيات) وراسبوتين (وكانت حينها صحف بطرسبورغ قد بدأت بشن حملة هجوم على راسبوتين). وهذا ما يقدم أحد أسباب الشك بمبالغة تعليق ايليدور عن سلوك راسبوتين في بوكروفسكو. بدأ رئيس الوزراء ستوليبين يتوجس خطر تأثير راسبوتين على القيصر. لذا قرر بعد أن ضاق بها ذرعاً التحدث بصراحة للقيصر. استمع نيقولا، كعادته، بلطفه المجهود الى حديث ستوليبين الذي

تشجع أن يقترح كتابته تقرير عن راسبوتين على أن يعرض على التزارينا. والفر يقولوا على ذلك وغادر ستوليبين القصر واللق الخطى أنه نجح في كسر جناح راسبوتين. تقدم حينها (لوكياتوف) وكتب للمجمع الكنسي المقدس (ليصب الشرك). لم يستغرق الأمر تحقيقاً طويلاً لاقناع لوكياتوف أن من اليسر شرح التناقضات بين معتقدات راسبوتين الدينية وبين سلوكه الجنسي. لقد كان راسبوتين عضواً في الخلية التي تشكل العريدات الجنسية جزءاً لا يتجزأ من طقسها<sup>(١)</sup>. انجز ستوليبين تفريره وفقاً لوثائق مختلفة مشكوك في صحتها وقدمه للقيصر الذي وصفه بنظرة ثم رماه في احد ادراجة وأخبر ستوليبين أنه يفضل لقاء راسبوتين بنفسه والحكم ان كان (الستارتيز) فاجراً مأكراً وقد سبق ان ذكرنا تعليق ستوليبين عن اول لقاء له مع راسبوتين. وفيه اعتقد فعلاً أن راسبوتين حاول تنويمه مغناطيسياً.

لملمت شتات نفسي وخاطبته بشديد العبارة أن لدي دليل اذلاله وصفته عضواً في زمرة الخلية ثم امرته بترك مدينة القديس بطرسبورغ فوراً. . . . .  
لقد تجاوز ستوليبين تعليقاته بأمره وراسبوتين مغادرة مدينة بطرسبورغ عبر أن الذي حصل أن راسبوتين نفسه غداً فقط لكم العداء الذي أثاره على نفسه. وقد اخبرته عائلته أن غرباء قدموا القرية وسألوا عنه. . . . . وقد اعطاهم الأب يسر، الذي لم يزل ينكره راسبوتين كثيراً، الكثير من المعلومات. ووصلت التحقيقات إلى فيرختور لمعرفة ما إذا كان راسبوتين قد نزع الى الخلية.

(١) ثمة نقطة يتحتم علينا اذراكها هنا أن أتقلاً قلة في روسيا تعرف الكثير عن الخلية لان عصبة الأمم حرمت على عدم نشر فعاليتها.

وبدأت صحف بطرسبورغ بالتهجم على راسبوتين، غير آبهة بثقل الغرامات التي قد يفرضها القيصر غير مبالٍ على أية صحيفة تحط من شأنه. لقد دك ميء الأسياء مضاجع الراحة. ان زيارة مطولة ليوكروفسكو كان يمكن ان تلمي مطالب ستولييين غير ان راسبوتين أدرك أنه سيظل تحت رقابة مستمرة هناك. فقرر القيام بحج آخر الى الأرض المقدسة فهذه الرحلة ستأنيه بمنافع عديدة. فهي ستعزز من درجة ورجه لدى التزارينا وستبعده بعض الوقت من جواسيس الشرطة من جهة اخرى وستمنحه فرصة لتجديد علاقاته مع معارفه القدماء. لكن الأهم من ذلك كله انه سيستريح لبرهة من حياة المؤامرات والمكائد التي بدأت تحيله الى متأمر.

بدأ راسبوتين رحلة الندم في آذار من عام ١٩١١ فظل طيلة رحلته على اتصال بالتزارينا. وجمعت ابنته قسماً بعد مختلف الرسائل والملاحظات وطبعته كعمل يدعى «صحيفة راسبوتين في حجه» ويتألف من ١٦٠,٠٠٠ كلمة. وكشف المطبوع الراحة التي عاشها راسبوتين وهو بعيد عن أجواء بطرسبورغ وأن الأديرة وحرقات «الأرض المقدسة» تركت فيه تارة أخرى عميق الأثر. تمحصت التزارينا كثيراً برسائله - التي غالباً ما كانت خربشات على ورق يالي - واحتفظت بها بعناية تامة. انطلوت معظم جواباتها على هيام زهدي يميظ اللثام عن عمق التأثير الذي طبعه فيها راسبوتين. وهي قد استشاطت غضباً من ستولييين وطلبت من القيصر فصله. بيد ان يقولاً كان أعقل من أن يفعل ذلك فالوزراء الأكفياة قلة لكن تعامله مع ستولييين اضحى أكثر برودة وجفاء.

دامت رحلة الندم عدة شهور توجه راسبوتين بعد عودته منها الى بوكروفسكو، لكنه ظل للتزارينا شداً ما سلاه فمها وأمنية ما فارق قلبها برغم

انها أدركت أن حسن التصرف يحتم عليه ألا يعود الى مدينة القديس بطرسبورغ. لذا ارسلت صديقته أنا فيروبوف وصديقته مدام اورلوف الى بوكروفسكو للاطمئنان على حاله. وتكشف أنا فيروبوف في مذكراتها فقول: «برغم الثقة العالية للتزارينا بكحال راسبوتين ومثاليته فقد ارتأت ان تجري بعض التحقيقات حول حياته الخاصة في سيبيريا». ربا غذى الأسقف تيوفان الاشاعات ضد راسبوتين في البلاط وعليه آثرت التزارينا معرفة أحقاً أن حياة راسبوتين في بوكروفسكو مجرد حياة دهارة وفحش. (ويذكر بيرس ان تيوفان هو الآخر قام بزيارة راسبوتين في بوكروفسكو وفيها تلقى اعتراف امراه كان راسبوتين قد اغواها لكنه لم يذكر التاريخ للأسف). استقلت أنا ورفيقها القطار الى تيومين حيث التقاهما راسبوتين بجواد وعربة وأخبرهما أن عليها قطع ما يقارب ستين ميلاً عبر طريق وعرة في هذه العرية. فهي مسافة ليست بالمسافة لراسبوتين لكنها رحلة مضية لسيداتين من البلاط وتخاذمتيهما.

وصفت أنا منزل راسبوتين بـ «توراتي في يساطته». فطابقه العلوي يضم غرف نوم خالية من الأثاث ما عدا حشيات من القش موضوعة على ارض خشبية برغم ان الشموع مشتعلة امام الايقونات المعلقة على الجدران. وضمت امرته، حسب قول أنا، زوجته القديمة وثلاثة اطفال بينهم الطفل المعسوه وعانستين تساعدان في اعمال المنزل والمزرعة. كانوا جميعاً يتناولون الوجبات في غرفة الطعام البسيطة جالسين حول طاولة عادية وفي المساء يأتي راسبوتين اربعة اصديقاء يطلقون على انفسهم اسم «الإخوان» لقراءة التوراة وغناء الترانيم.

لم تكن الحياة ضجرة كما تبدو لاول وهلة فجل الوقت يقضي خارج البيت خاصة على كنف النهر. وغالباً ما أمضى راسبوتين و «الإخوان» وقتهم في

صيد السمك، ثم يشوه في بحيرات على ضفة النهر. مسح الجلو الديني والبساطة هناك أثرهما على أنا فيريوف التي عاودت المجيء لبيوتروفسكو خلال أيام الصوم الكبير من عام ١٩١٢ بعد طرد راسبوتين الثانية من الأسرة الإمبراطورية. دعم تقرير أنا الذي قلمته للتزارينا بعد عودتها من رحلتها حياة راسبوتين العالمية سياً وقد أشارت فيه ان رجل الدين في المدينة يبعث راسبوتين كثيراً. كما اصطحها راسبوتين في زيارة إلى فيرخوتور، واكتشفت هناك ان الراهب ساكاري يكن لراسبوتين احتراماً، أكثر من رجل الدين في القرية.

وقعت هذه الزيارة اواخر آب عام ١٩١١. وفي أوائل أيلول من نفس السنة زارت الأسرة الإمبراطورية مدينة كييف في وقد رسمي ضم رئيس الوزراء ستوليبين ووزير المالية وهو رجل كصف يدعى (كوكوفستيف). وقرر راسبوتين مرافقة آنا فيريوفوف إلى كييف التي وصلوها في الثامن عشر من أيلول وأول الأشياء التي شاهدها العربة الخاصة بالأسرة الإمبراطورية وهي تنقل التزار والتزارينا تتبعها عربة أخرى تقل ستوليبين التي ما ان مرت عليه حتى صاح راسبوتين: «الموت يسير ورائه... الموت يجري ورائه» وكان قوله هنا مثلاً آخراً على قدرته في التنبؤ، حيث كتب التزار لأمه في اليوم الثاني قائلاً:-

«خلال الإستراحة الثانية (من اوبرا ويمسكي كورسكوف) القيصر السلطان»... سمعنا صوتين كما لو ان شيئاً ما قد سقط. خلت انه زجاج الأوبرا ربما قد وقع على رأس احد. كان ستوليبين يقف أمامي مباشرة ثم ادار رأسه نحوي ببطء ورسم بيديه إشارة الصليب حينها أدركت أن يده اليمنى ووزنه الرسمية ملطختين بالدماء. غطس بعدها ببطء في كرميه وبدأ بفك زوارده.

حاول القيصر زيارته ستوليبين في المستشفى لكن أحداً لم يسمح له بزيارته، وربما رفض ستوليبين رؤية نيقولا. اذ قال بمرارة عندما شاهد التزار محمياً من كل صوب وحذب وظل هو وكوكوفستيف لا يأبه لها أحد؛ فنحن غير ضروريين». وهكذا توفي بيتر ستوليبين، افضل واجدر من عرفه نيقولا الثاني والرجل الوحيد الذي كان مسموع اندلاع الثورة.

انتهت بموت ستوليبين آخر محقبة أحالت دون عودة راسبوتين إلى بطرسبورغ فعاد أدراجه اليها بعد أن وافق الأسرة الإمبراطورية من ليقاديا في الكريستيا ومن حيث طوره رئيس الشرطة الذي اراد ان يبرهن أنه لا يخشى محسوب الإمبراطورية.

بيد ان بطرسبورغ ظلت تراوح على حالها. وشرعت الحركة المناهضة لراسبوتين- ما ان بلغها قرب عودته- تستجمع قواها. وذهب اسقف بطرسبورغ، مسيو انتوني، للإعتراض لدى القيصر على عودة راسبوتين (لكن الرد جاء الا يكثر لشيء غير شؤونه). وقد توفي الأسقف بعد ذلك بقليل.

قرر ايليودور وقد رأى حزني راسبوتين ضم قواه لتيوفان وهيرموجن، فتيوفان- ذلك الأسقف العطوف الذي تقع عليه المسؤولية العظمى في تقديم راسبوتين للمجتمع- قد غدا أشد أعداء راسبوتين عداء له وحفاً نقول أنا نجعل تحديداً سبب هذا التغيير. أما هيرموجن الذي كان بعيداً عن بطرسبورغ- في ساراتوف- فكان راعياً عن ادانة راسبوتين دون وجه حق بتلوي عليه. وربما

(١) يعلى روديانكو يشاهد عام ١٩١١ تاريخاً هذه المقابلة. بيد أن معظم التواريخ التي يعطيها في كتابه ليست دقيقة. فهو يذكر أن زيارة ام. جي. از. لتولوي قد حدثت بعد عودة راسبوتين لبطرسبورغ.



أهداه ايليودور ما يحتاجه من دليل أن أخبره تفاصيل زيارته ليوكروفسكو في العام المنصرم. وحجة ايليودور كم غير مشاعره حيال راسبوتين فكانت أنه استمع لإعتراف الراهبة (كيسينا) التي اغتصبها راسبوتين.

فما تقف رواية راسبوتين عن أسباب تفجر نزاعه مع هيرموجن مناقضة تماماً لما ذكرناه من سرد- وقد احتواها كتاب ابته. أنها- في أقل تقدير- رواية جدية بالتصديق كرواية ايليودور. إذ يقول راسبوتين أن ايليودور قد تأثر شديد الأثر بمزاجه في الجنس الى الحد الذي حده أن يقلع عن ممارسته الزهدية. وفي احد الأيام ذهبت زوجة ضابط في بطرسبورغ تدعى مدام (اولغا لوكتين)<sup>(1)</sup> للإعتراف لايليودور. كانت مستيرة الى حد ما وربما اعتقد ايليودور أنها ذات نمط آخر من الرغبة. وعليه، حاول اغتصابها فطقت المرأة المذكورة بالصراخ. وعندما سارع اتباع ايليودور لتجديدها، اعلن ايليودور ان المرأة قد توصلت اليه ليجامعها وانه قد طردها بعيدا عنه. فأخرجوها للفناء واتهالوا عليها ضرباً ومزقوا ثيابها ثم ربطوها على ظهر عربة سحبتها على الجليد. أسفر سلوكهم هذا عن انهيار المرأة عصبياً وباتت أقرب الى مجنونة. (ويذكر فولوب ميلر انها صبت بعدئذ جم اهتماماتها نحو راسبوتين واصبحت من اكثر معجباته هياماً به لكن نوباتها الجنونية سعرت حتى عيل صبره في معالجتها).

قرر ايليودور بعد طول عناء تعجيل اتهام راسبوتين بالشكوى منه لدى هيرموجن الذي طلب من راسبوتين زيارته في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩١١. وصل راسبوتين مكان المقابلة الذي كان- على الأغلب- احد أديرة ساراتوف وكان لدعشته أن اكتشف بان المقابلة لن تكون على انفراد

(١) التي يذكر راسبوتين أنها كانت تعلم راسبوتين القراءة والكتابة.

فايليودور كان هناك والمعشوة (ميتيا كوليايا)، المنتبذة التي طردها راسبوتين من البلاط وشاهدين آخرين وصحفاً.

ومرة أخرى نحصل على روايتين متناقضتين لهذه المقابلة. أولها سرد ايليودور الذي جاء فيه ان هيرموجن سأل راسبوتين ما إذا كانت قصص مغامراته الجنسية حقيقية فأجابه راسبوتين مرتعداً: «انها حقيقية... حقيقة برمتها». ثم شرع هيرموجن الغاضب يضرب راسبوتين بصليب كبير وامره ألا يلمس امرأة بعد الآن وأن يبقى بعيداً عن القصر وقد اذعن راسبوتين لأوامره خوفاً على حياته هو.

يذكر احد الشهود وهو القوقازي (روديونوف) أن هيرموجن بدأ المقابلة بتوجيه اتهامات شديدة اللهجة ضد راسبوتين الذي رد عنها بازدياد مهدياً الأسقف: «انني لن أطيل عليك صبراً». فلعت الأسقف وصرخ عليه راسبوتين وتقدم لضربه حتى أوقفه الآخرون. تبدو رواية روديونوف أكثر مصداقية وأقرب لشخصية راسبوتين من تعليق ايليودور.

عاملت ميتيا كوليايا (التي كان عليها ديوناً قديمة نجحت في التخلص منها) راسبوتين بغليظ قلب. ولم يهدر راسبوتين وقتاً ليقابل التزار ويقدم له سرداً لما حدث مستهلاً اياه بمحاولة اغتصاب مدام (لوكتين). ودون أناة اصدر التزار امراً يقضي بمعاينة هيرموجن وايليودور وفصلها في درين مختلفين. كان فيرموجين الحق أن يحاكمه اثنا عشر اسقفاً بيد ان التزار تجاوز ذلك الحق وقبل هيرموجن الحكم وذهب بعد مرضه لدير (زيروفتسكي).

رفض ايليودور العقوبة وقرر هجر بطرسبورغ ليجوب أرجاء البلاد هائماً

وشالفا راسبوتين حيثما حلت قدمه . وقد كان في جميعه رسائل أرسلها للتزارينا  
وبناها لراسبوتين - سرقها في زيارته لبوكروفسكو عام ١٩١٠ - وشرع الآن يوزع  
النسخ عنها . وظل هكذا حتى القضي القبض عليه وسجن في دير في  
(فلوريشيفو) . ويبدو ان تناقص ثروته اصابه بالكآبة . ثم شرع يؤلف كتاباً  
يستكر فيه راسبوتين وذاكراً ان التزارينا كانت عشيقه راسبوتين . وقد جرد  
بعدها من لقبه ونجح متكرراً بزي امرأة في الهرب الى الترويج وفيها استأنف  
كتابة مذكراته - التي اصبحت اكثر سفاهة وكذبا وادعاء - ثم كتب للتزارينا  
وعرض عليها شراء الكتاب مقابل مبلغ كبير . لكنها تجاهلت رسالته . بيد انه  
نجح في بيعه ابان الحرب مع رسائل التزارينا لصحيفة امريكية .

فجر الأمر فضيحة كبرى . فلم تكن شتيمة هيومجن لراسبوتين السب  
الوحيد لظهوره . لقد مات استيف تويولسك - وهونفس الرجل الذي اوصى  
باجراء تحقيقات عن راسبوتين قبل اثني عشر عاماً - وشرع راسبوتين لذلك  
المنصب صديقه القديم وهاتر الحمر (بارناي) الذي كان يعمل بستانيا . ويذكر  
رودزيانكو ان غاية راسبوتين كانت ان يبدو قساً . غير انها غاية لا حق له فيها .  
مارس راهي راسبوتين (الوكيل سابلر) ضغطاً على المجمع الكنسي لتعيين بارناي  
ونجح نهاية المطاف في تعيينه بالتلميح ان هذه رغبة التزار . وهنا ألقى هيومجن  
خطاب استنكار غاضب غادر بعدها المجلس . فسبب ابعاده الى دير قصي هو أنه  
حط عن سابق اصرار من احترامه للقيصر .

غير أن الفتنة المناهضة لراسبوتين ما فتأت يوماً بعد آخر تزداد قوة . وهنا  
شر استاذ في أكاديمية اللاهوت في موسكو يدعى (نوفوسيلوف) كنيا يبت فيه  
أن راسبوتين كان عضواً في الخليعة واستهجن على الكنيسة تسامحها لئلا هذه

الاسماء . ورويا كان قد التقى مع نيوفان ولوكيانوف . بيد ان الكتيب سرعان ما  
منع تسويقه . وكشيت صحيفة (كولوس موسكوي) . التي يملكها رئيس الدوما  
(كوشكوت) ، مقالاً لنفس الكاتب مع مقتطفات من الكتيب . لكن المقالة منعت  
فبدأت الأيدي تتناقل ما متوفر من أعداد للكتاب وقصاصات المقالة . ثم حلت  
صحف أخرى حذب كوشكوف وبدأت تنشر مقالات عن راسبوتين أداته فيها  
بذات ارواح الإنسانية واجسادها . لقد انطوى تعليق التزارينا عن كل هذا  
بعبارة : «الكل يكرهه لائنا نحبه» . فيها ظن التزار ان السيل قد بلغ الزين  
فاصدر مرسوما منع بموجبه اية صحيفة أن تكتب عن راسبوتين . وبفعله هذا  
يتنحى عن مسؤوليته في حرية الصحافة التي اهلنها في مرسوم عام ١٩٠٥ .

اقترح كوشكوف - وهو رجل مغامر وذو شأن كان قد قاتل في (عصيان  
يوكسر) و (حرب البور)<sup>(١)</sup> مناظرة شاملة عن راسبوتين تحم الموقف في الدوما  
والتي أفسد فيها شعبيته أكثر فجاء بعده لتنصب رئيس الدوما (ميشيل  
رودزيانكو) وهو رجل ضخم الجثة أجش الصوت ، ونزياً حتى عظمه لكن  
مسحة من الغباء والغرور تجسد فيه .

اتخذ راسبوتين لقبه حلقة من الأعداء الأشداء يعملون جريماً كخليفة لرجل  
لاستقامته فهو قد بات على حين غرة وفي غضون عام واحد فقط من أكثر الرجال  
بغضاً ومهط جدال في روسيا . فبعد أن أثبت قوته في صدامه مع هيومجن  
وابليودور وقف الآن امام رجال أطول يداً وأشد قسوة . فذلك كوشكوف ذو  
الروح المغامرة ولكنه تميز بجسارته الشديدة وكان قائداً (للاكتوبرين) وهو حزب

(١) البور (Bour) : اسم صرف به للمستعمرون من أصل هولندي في أفريقيا الجنوبية . أنشأها  
دولتي البرتغال وفرنسا في ١٨٢٦ و ١٨٥٢ . أعضاهم الانجليز ١٨٩٩ - ١٩٠٢ .

ذو اصلاح وطني التقى من النظام البرلماني الإنكليزي مثله الأعلى. أما رودزيانكو فقد تميز بتزاعه سلوكه وحسن أدائه الذي كان له وقعه حتى على التزار. بل انه تكلم والدة التزار الإمبراطورة (دواجرا) عن راسبوتين واكتشف أنها تنظر اليه عطفياً وشيطاناً. وهي قد وقفت ضد جميع من أحببتهم زوجة ابنها بيد ان خصمها الأشرقوة - في الوقت الحاضر - هو كوكوتسيف الرجل الذي خلف ستولييين في منصب رئيس الوزراء والذي اختير لهذا المنصب لسبب معقول: هو انه الرجل الوحيد في روسيا الذي تمتع بالقوة والثقة الكافيتين لتولي المنصب. لم يحبه الآخرون كثيراً، فهو رجل قصير القامة، أثيق اللبس، يزدي الأخرين في نظراته، قليل الكلام وجاف الأسلوب. وقد قال فيه الأمير (ناسيلي): «انتاب المرء شعور أنه امام رجل نظيف جدا، أثيق جدا، جد لطيف وجد متحضر». لقد كان تزيماً أو قورن بمعظم المسؤولين الروس برغم ان الناس قد لاحظوا ان الشركات التي له اسهم فيها محاطة بالغموض دائماً كما لو ان شخصا ذو مقام رفيع كان يستغل معلومات سرية... لكنه كان حشرة مقارئة ستولييين او وت برغم انه كفه وعلمي وهما سفستان لا يتميز بها الروسي. وهو قد جاهد حين شغل منصب وزير المالية أن يخذل الدوما مراراً فأحبه القيصر لذلك وغرس ثفته فيه.

غير أن كوكوتسيف ورودزيانكو قد أشاعا احظارهما لراسبوتين وأشد منها خطراً كان الرجال الذين نظامروا أنهم أنصار راسبوتين وحملوا عليه من خلف ظهره. وأشد من ضمير له الضميمة من هذا الجمع مغامر يدعي (اليكسي فوستوف) الذي كان محافظ (نيجني نوفوكورد). وتبرهن قصة تتعلق بفوستوف تعاطف نفوذ راسبوتين السياسي في عام ١٩١١. فبعد مقتل ستولييين أمست

الحاجة قائمة أن يشغل أحد منصب وزير الداخلية الذي تولاه آنذاك ستولييين أيضاً. وعليه أرسل القيصر راسبوتين الى نوفوكورد ليرى منه إن كان فوستوف خير مرشح لذلك المنصب. وأنداك لم يكن فوستوف قد سمع براسبوتين البنة وثارت حفيظته عندما قدم منزله فلاح أشعث بجادته متعالياً. لقد عادله فوستوف بعجرفة ولم يقدم له حتى وجبة طعام. ولم يجهر راسبوتين برد فعل من هذا السلوك لكنه ألمح حين غادره أن التفسير الذي سيعده للقيصر لن يكون في صالحه. وجد فوستوف الأمر صعباً عليه أن يصدق أن فلاحاً كهذا له حظوة عند التزار، لكن فضوله دفعه أن يرسل أحد أعوانه لكتيب البريد ويقرأ نسخة من البرقية التي بعثها راسبوتين للتزاريسكو سيلو. كانت البرقية مرملة لأنها فيروروف وبها لدهشة فوستوف عندما قرأ: «اخبري ماما أن نعمة الله في فوستوف برغم أن شيئاً ما زال يتقصه». ظن فوستوف أنه ارتكب حماقة وسافر من فوراً لبطرسبورغ لمقابلة التزار الذي استقبله بيروء حبراً أباه أن الإصلاحات الخاصة بمياه البالوعات في نوفوكورد ليست بالإنجاز المهم - وقد اتخذها فوستوف حجة لديه - ثم طرده. بعدها احس راسبوتين بالرضا وهو يرى فوستوف يحاول جاهدًا التملق اليه وهو سلوك لم يتلذمر منه راسبوتين فمنع فوستوف موعداً لمقابلته بعد مرور أربع سنوات. لقد كان سلوك فوستوف كعمله ذات وجهين أحدهما متزلفاً لراسبوتين وهو امامه والآخر متأمراً عليه من خلفه. وهو قد اخبر رودزيانكو ان سر سلوكه اللطيف مع راسبوتين امله ان يقضي به محموراً في مكان عام فياومه مع التزارينا.

ولا مندوحة هنا من ذكر اثنين آخرين لتكتمل الصورة المجددة بلجميع أعداء راسبوتين. انهما (فلاديمير بورشيكفش) وهو عضو لامع في الحزب المحافظ

وتلك عضو في الدوما، والأمير (فيليكس يوسف) الذي التقى راسبوتين في عام ١٩٠٩ ومرة أخرى عام ١٩١٤.

هؤلاء هم نفر الأعداء الذين شهروا سيوفهم بوجه راسبوتين عام ١٩١١ ولم يتوانوا لحظة واحدة في قتاله. هنا طلب رودزيانكو مقابلة التزار وقد تأتي له ذلك في العاشر من آذار عام ١٩١٢. وكان يعلم جيداً أنه كمن يعمل في يده باروداً سيبأ وأن القيصر قد يمر متوليين والأسقف أنتوني حين أرادوا الحديث اليه حول راسبوتين. لكنه يدرك في ذاته قوة الشكيمة وأراد أن يسود الاجتماع مع القيصر بقوة شخصيته. كما قرر اللجوء الى تكتيك معين فبعد أن طرح موضوع راسبوتين، أكمل الحديث مسرعاً: «هل سأنال شرف صاحب الجلالة أن يستمع لي حتى أكمل حديثي؟» فان كان الجواب غير ذلك فلنكلم بكلمة واحدة وسألتزم الصمت بعدها». تمت التزار بصوت خافت، وربما كان يفكر حينها في رد فعل زوجته اذا سمعت بأمر هذه المقابلة وقال: «تكلم». استهل رودزيانكو حديثه بنفس اتهاماته السابقة ضد راسبوتين وعرض على التزار تقديم ادلة موثقة تؤكد ان راسبوتين قد انتهز منزلته لدى التزار باغواء واغصاب كل فتاة يقع عليها. لقد كان على رودزيانكو أن يعلم أن القيصر قد استلم سلفاً تقريراً صخياً من متوليين حول هذا الموضوع ولم يكلف نفسه حتى عناء قراءته. ومع هذا أثر القيصر أن يدعه يمضي في حديثه لعله يجد وسيلة لانهاء المقابلة، فطلب منه أن يواصل القول فبما غمرت النشوة لب رودزيانكو.

لم يفلح رودزيانكو أن يتحسس مشاعر اللذبة في القيصر تجاه زوجته المحبة لراسبوتين، فـ (اليكساندرا) هي لا غيرها في الكون من سلبت لب نيقولا بعد أن كان في أمس الحاجة لمن يبه نفته العمياء ومن يجد فيه مكالماً لأسراره.

وكيف له أن يفعل الأثيباء دون علمها. فهو كمن سينب في القلب حاجراً بينها. وعليه قرر أن يتحول رودزيانكو صلاحية التحقيق في سجل راسبوتين على أن يعلم زوجته بالأمر والتي غلبها غضبها سباً وقد اكتشفت أن رودزيانكو قد حث داماسكي (نصير راسبوتين في المجمع الكنسي) أن يسلمه تقرير لوكيانوف القديم، الذي يثبت ان راسبوتين كان عضواً في الخلية الخبيثة. وعليه امرت داماسكي أن يستعيد لها التقرير فأسرع والخوف يملأ جواتحه لرؤية رودزيانكو واخبره أن شخصاً ربيع المقام يريد التقرير. فسأله رودزيانكو قائلاً: «هل هو سايلر؟» وهو رئيس داماسكي فاجابه داماسكي: «كلا، انها التزارينا اليكساندرا فيدورنا، ثم ارتعدت فرائص داماسكي حين صرخ رودزيانكو في وجهه قائلاً: «هل لك ان تحيط سعادتها علماً أنها - كما أتت - من رعايا القيصر وعلينا طاعتها معاً. وانني لا أرى في موقعي حيزاً أن ألبى رغباتها».

لم يجد رودزيانكو بدأ غير اغصاب التزارينا. وبعد أن اكمل وثائق اتهام راسبوتين، طلب مقابلة التزار مرة ثانية والذي لم يشأ مقابله وطلبوا اليه أن يكتب تقريره في الأمر فادرك ماذا يعني ذلك القول. لقد انتصر راسبوتين في جولة اخرى. وفي سورة غضب ذهب رودزيانكو لمقابلة كوكوفستيف مستجداً يأتي فعل يأتيه به، ولكن أتى لها أن يفعل شيئاً. لقد سبق السيف العادل والغلبة لمن أدركها.

انام كوكوفستيف الدنيا وأقعدها لعله يمسك بنامية القوز. ولكن تبعد ما فعله هباءً مشوراً فقد اخبره التزار لا شيء غير أن يذهب لمقابلة راسبوتين نفسه. اخذ كوكوفستيف هذه النصيحة على محمل الجد وذهب لمقابلة «الشارتيز». وهنا يدنو وصفه للمقابلة كثيراً من وصف متوليين. فقد تطلع

راسبوتين الى الرجل محاولاً ترويمه مغناطيسياً - او هكذا ظن كوكوفستيف . ثم قال راسبوتين متأثراً بالتهاس كوكوفستيف : « حسن ، سأرحل » . ثم شرع في سرد ملاحظات أثبتت تارة أخرى تفاد بصيرته ورويته الواضحة للمستقبل . تحدث لسكوكوفستيف عن وضع الغذاء ونصحته بالاهتمام بخطوط السكك الحديدية (لقد ورد هذه النصيحة تكراراً) . وتساءل السير برنارد بيرس ان كان هذا الاهتمام ناجم عن عطف سامي معين أم أنه محض الهام ، فالذي أطاح نيقولا عن عرشه هو الحصار المفروض على التجهيزات الغذائية المنقولة عبر السكك الحديدية .

دفع كوكوفستيف لهذا النصر - ان كان نصراً - أهمل ثمناً . فقد ولّاه القيصر مكتبه وما يرح بجهد حقيقة الأمور في ظواهرها وبواطنها وكل ما يدرك منها أن القيصر يبحث له عن بديل عنه .

لقد عاش رودزيانكو غبطة النصر وتذوق أكثر لحظة منها حين طرقت مسامعه حكاية شاعت بعد أسابيع قليلة في كل صوب من بطرسبورغ وحدها . جاء في الحكاية أن العائلة الإمبراطورية تصدت (ليفاديا) لقضاء عطلتها الصيفية هناك وحثت آنا فيروفوف راسبوتين على ركوب القطار ذاته الذي يقبل العائلة الإمبراطورية . وما إن سمع القيصر بذلك حتى هاج شيطانه فقد عكر صفوه ذاك الغلام اللطيف وسوء الاهتمام التي ما قتلت تدور دائرتها وامر لذلك بإيقاف القطار وإتزال راسبوتين في محطة تدعى «توستو» تقع بين بطرسبورغ وموسكو وترك معه شرطياً يتأكد أنه عاد أذراجه الى بوتروفسكو .

كما حاله أهداء راسبوتين نصراً لهم وان خسر فيه كوكوفستيف

ورودزيانكو حفسوتيهما لدى القيصر . لكن حقيقة الأبياء التالية جاءتهم بالذي أجهض معنوياتهم العالية . فقد تعرض التزاريفتش لحادثة أخرى وهو يفتخر من الزورق وقد يش الأطباء من انقاذ حياته . فارسلت التزارينا للتو برقية لراسبوتين (والتي سبق ان تحدثنا عنها في الفصل الخامس) وقد جاءها الرد أن ابنها سوف يعيش . وأن القيصر قد عض أصابع الندم للمساواة التي عامل بها راسبوتين . فالرجل ليس الا قديساً وصانع معجزات وان أسفرت تصرفاته عن خجل القيصر . وبحلول أواخر عام ١٩١٢ ، أرسى راسبوتين دعائياً لغوذه في البلاط أمّن أساساً من سواها في الماضي .

وحوالي تلك الفترة كتب رئيس الشرطة لرودزيانكو قاتلاً : «لقد حسفت ذوماً به فكلمنا نزل من القطار ذهب على الفور للحياصات مصطحباً معه سيدتين» . هو رجل لم يقضيه الاجهاد ولم يكل له مساعد وما حاد عقله برغم المكاثد السياسية ومحاولات الاغتيال التي تعرض لها عن الموضوع الأثرب اليه دوماً . . . . الجنس .

## الفصل الثامن

### عاصفة في الأفق

تري ماذا دعا راسبيوتين؟ فقراءة لتلك الحقبة وسيدرك فيها القراء على اختلاف مشاربهم أن راسبيوتين كان جالسا على برميل من البارود.

إن من الصعب التخلص من الاستساج أن تدهوراً خطيراً أخذ يطفئ آنذاك. لقد أحاط الأعداء براسبيوتين من كل حذب وصوب، وجميعهم كثر عن أنبياه. ولم يتغلب الأمر بشأناً نفاذ بصيرة ليدرك أنه هدف للاختيال اليوم وليس غداً. بيد أن هذا الرجل الذي ملك قوة جعلته مفارقاً للذيار ورحالاً محبوب الأصقاع بدا غير قادر أن يغادر هذا الجو المويء. وما لا حبار عليه أن الجنس كان أحد أسباب بقاءه. وخير شاهد لنا في ذلك تقارير الشرطة آنذاك المليئة بعبارات مثل «أمضت (ماريا جلي) وهي زوجة نقيب في القوج الحنامس والأربعين ليلة السابع عشر من كانون الثاني في منزل راسبيوتين» و «نامت الممثلة فارفاروفا في منزل راسبيوتين ليلة الخامس والعشرين من تشرين الأول»، و «عاد راسبيوتين إلى منزله في سيارة مع الغانية كرميجويفا وهو مخمور ثم قبل الغانية وصرر به على خديها» و «غادر راسبيوتين وزوجه (بيرجيس يازينسكي) البالغة من العمر ثمانية وعشرين عاماً في سيارة وهما في حالة سكر شديدة ثم توجهتا إلى شقة السيدة يازينسكي حيث أمضيا الليل هناك وحتى ظهيرة اليوم التالي».

وغالباً ما أشارت التقارير أن راسبوتين «سكير مترنح» برغم أنه إذا ما دعي للقصر الامبراطوري ثلاثت منه حالة السكر وإن كان في أشدها.

يبد أن هذا النمط من حياة الممارسة الجنسية اللاشعورية وتعاطي الخمر لا تكشف عن سر بقاء راسبوتين في بطرسيبورغ بل انها تصفي على المشكلة بعداً آخر هو: لماذا ارتأى راسبوتين لنفسه هذا النمط من العيش؟.

لم يجد من أراد أن يحط من شأنه - وهم جميع من كتب عنه - معضلة في ادراك غايته: فراسبوتين لم يكن سوى فلاحاً عاقراً للخمر أمسك بالعروة الامبراطورية عبر الخديعة والخداع ومضى يتسقى الأفضل من الأشياء. غير أن هذا الرأي قاصر لا يناسب الحقائق والوقائع، فما كان راسبوتين يقديس وإنما رجل مرموق، بل هو أكثر من اعترف الأنظار في روسيا آنذاك بجانب غارجييف. وكونه روسياً، تجلت فيه النزعة الشرقية لبذ العالم في داخله. وهو - كالعرب الذين وصفهم لورنس - لم يكن زاهداً، ومع هذا تجسد فيه الحب «للرياح العاتية الهابة في فياني الصحراء المترامية الأطراف»، وللسهول الممتدة على مرمى البصر وخير من يفوح بهذا الحب للبحرية وصفه للبحر او للسما في الدجى في يومياته. لقد كان راسبوتين حراً قبل تقاعده القيصر وكان له الأشباع والعجيبين لكنه لم يشعر بالإنتهاء اليهم فظل جوالاً دائماً. اضحى راسبوتين بعد ذلك سجيناً في جو تبخرت عنه رائحة التآمر والخطر والإهانات. لقد أورد جواسيس الشرطة تقريراً جاء فيه: «شاهد راسبوتين هارباً من منزل شخص يدعى بيلكوفسكي يتبعه رجلان، ثم قفز الى عربة مارة وظل واقفا طوال الطريق لـ «لبتي» للتأكد ان كان أحد يتبعه». وهذا مثال ذكر لا حصر من المؤامرات ومحااولات الإغتيال ضده. ويذكر جواسيس الشرطة ايضاً أن ضابطاً في الجيش

هاجمه في محطة القطار وفي مرة اخرى حاول جواسيس الشرطة بمدة اثنين من الأرواح الماثجين وقفوا امام باب داره بينما هربت زوجتيهما من السلم الخلفي للمنزل. لقد استحالت حياته الى كوميديا بطيئة لم تخلو قط من احتماليات الخطر. وهنا نتساءل: لم مكث راسبوتين في قلب الريح العاتية وهو بمستطع أن يسابق الريح صوب فلسطين لعام أو أقل حتى هذا العاصفة؟ أيكون حسه العام قد أنباه دون نفاذ بصيرته أن أملاً له في الحياة بات بصيصاً؟.

ثمة جواب معقول واحد لهذا التساؤل هو أنه أدرك موقناً أن اختفائه يعني تداعي العرش وهذا احتمال لا يبدو بعيداً كما قد يظنه القاريء أول وهلة. لقد حاصرت المنية القياصرة كما تشير لذلك مذكرات تلك الحفبة التي تتأ فيها الرومانوفيسون بكارثة أكتوبر عام ١٩١٧. فيها تناقلت روسيا بأكملها نبوءة راسبوتين للقيصر عام ١٩١٢: «سيظل العرش آمناً ما دمت حياً وإن افنتي المنية فانك لفاقدته وحياتك». لقد ظل راسبوتين في بطرسيبورغ لأنه استشر الكارثة القادمة وآمن أنه من يستطيع تضادي وقوعها وهو ايمان له ما يبروه. فقد أشاح حرباً في عام ١٩٠٩ وتوفى أخرى عندما احتد توتر بين بلغاريا وصربيا وتركيا والنمسا وكاد أن يتفجر الى حرب لولا نفوذ راسبوتين (كما اعترف بذلك بيرس أيضاً). وقد وجدت وجهة نظر راسبوتين ما زكاهها عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ وأفضت مباشرة الى حدوث ثورة. وربما تحمل فكرة أن راسبوتين أكثر من يلام على ثورة ١٩١٧ بعضاً من الصحة بيد أن ما هو مؤكد أن تدخله قد حال دون اندلاعها مبكراً.

الا أن مدى إيجابية او سلبية النظرة حيال هذا الأمر انها يعتمد على نظرة الفرد الذاتية لا سواها. إذ يرى بعض المعنيين بدراسة الشؤون السوفييتية أن



معظم ما حدث من تغييرات في روسيا سبباً في حقل الصناعة كانت منحت على أية حال. فمن الناحية السياسية، كان الأمر مجرد قضية وقت فحسب حتى تصوغ روسيا لنفسها نظاماً دستورياً. ومن جهة أخرى سجد من الصعب قراءة التاريخ الرومانوفيين دون الإحساس أن روسيا كان لها الحق في نظام جديد يخلج جروحها ويعيد لها الحياة وان «الدوما» لم تكن هي الأخرى إلا إصلاحاً جزئياً. وإن صح هذا الأمر سجد التاريخ الأمر صعباً عليه أن يصفح عن راسبوتين. فقد كان نفوذه السياسي موقفاً برمت طاملاً أنه شجع قيصراً خائراً لا لشيء إلا لأنه كان يحلم بالمعظمة. ان أحسن ما يقال لصالح ملكية راسبوتين هو أنها كانت ملكية مغلقة نات بنفسها عن نفاق متزلفي القصر. وهو لم يكن رجعياً بل فلاحاً عاصداً الفلاح وسائل الأقليات وهو كاليهود والفنلنديين لم يدخر وسعاً كي يبلغ ما يشده من إصلاحات. وعرف عن المتطرفين الشوريين من الجناح اليساري لا لأهم أرادوا التغيير بل لأهم أتروا الصبغة المادية خبيثة الأملق. وعليه فإن الصورة التي رسمها دوستوفسكي في روايته «الشياطين» ليست خاطئة أو مبالغ فيها بأي شكل من الأشكال. فقد كانت المادية لمعظم الثوار عقيدة صوفية لا تمتلك أية أرضية مشتركة مع الحس العام أو مع وجهة النظر الأخلاقية العميقة للفرق العقلانية مثل دوجوبوتسكي «المولوكاني» اللتان ندهوان للإخضاع وتشجيت لأم العائلة وتعتبران «الروح» و «الإرادة الحرة» شيئين ناعمين وهما وليدتان للعمليات الأحيائية والكيميائية. لذلك فإن رجلاً مثل راسبوتين - المؤمن بقواه الإعجازية ونفاذ بصيرته - لن يجد في ذاته أي تقارب مع هذه الأفكار.

١١) يقول «المولوكاني» أن الشيء الضروري الوحيد للعبودية هو حب الرجل التابع.

وعليه وقف راسبوتين، شاه ذلك أم ابن، ضد كل حزب متفقد في روسيا وهكذا منقته البلاشفة لأهم وجدوه دجالاً متصوفاً، ونفرو الأحرار لظنهم أنه شجع نزعة التزار للمهينة المطلقة، وعاداه المحافظون لأنه شجع التزارينا على الاعتدال في السياسة. وقد وصفها شقيقها في حديث له مع وزير الخارجية سنة ١٩١٢ بأنها «خطرة» وقال: «ان التزار ملاك وقديس لكنه لا يعرف كيف يتعامل معها».

وفي تخضم هذه الظروف، أمسى جلياً تفهم أسباب انحذار راسبوتين. إذ يرى الرجال جميعهم وحتى أشدعم أنفسهم كباراً في عيون أتباعهم ويكون من المستحيل إلا يصب منك الاحراف قسطاً وأنت تستشق تنانة الخقد والضغينة من حولك. ففي عام ١٩٠٥ لم يمين راسبوتين لنفسه أتى عدو في كل أرجاء المعمورة، بل ان العالم تطلع اليه فوجده رجلاً مبروكاً. انهم رجال أمثال جون من الكرونتشات والقديس هيرسونج وآلاف الناس العاديين الذين اتصل بهم والذين وجدوه دون عناء قديماً. وبحلول عام ١٩١٢ بنات أبغض من أنجته روسيا، وحتى أتراه من الفلاحين ما راق لهم أن يقترض حديث نعمة من صفهم رأيه على التزار والتزارينا. شرع بعدها بلوح براءة حاجته للمغفرة فلما اسودت قلوب القوم عليه تفجر عليهم غضباً وازدراءً. وهنا كتب بيرس قائلاً: «تخرج في محادثات راسبوتين مع الأحرار طرقة من الإحتقار لأعظم ذوي شأن على وجه البسيطة». وهؤلاء (ذوو الشأن العظيم على وجه البسيطة) قد ضمروا له نوايا سوداء لا مجرد الإحتقار.

انتقل راسبوتين سراً في عام ١٩١٢ إلى سكن جديد وسكن في ٦١ كوروخوف في في شقة من خمس غرف تقع في الطابق الثالث ذات سلم مغلقي

يمكن الوصول اليه عبر فناء. وأما المظفة التي حلّ فيها فكانت أشبه بحي  
للفقراء وغالباً ما كان الفناء مليئاً بالغسيل المشور وتفرّج من البيت رائحة  
العليق.

تضاربت بعض الآراء حول عناوين سكن راسبوتين قبل انتقاله  
لـ«كوروخوفي». ويذكر قولوب ميلر ثلاث عناوين أولها: شقة تقع في ضاحية  
(نيفسكي) استأجرها من امرأة غنية تدعى (باشاكوفا)، وثانيها في (كبروشنيا)  
وثالثها في الضاحية الإنجليزية. وحيث أن أول إقامة له في بطرسبورغ- وكما  
نعلم- كانت مع الصحفي سازونوف لذا يكون قد سكن على الأقل في أربعة  
ساكن في العاصمة. وبرغم ذلك يذكر رودزيانكو أن راسبوتين ظل مقياً مع  
سازونوف حتى أواخر عام ١٩١١، وما شقة نيفسكي والأرملة التي استأجر منها  
الا بدعة من بنات بدع الصحفي جارس اومبسا. ولأن الفتاتين قد مكثتا مع  
أبيها في «٦٤ كوروخوفي» فإن القصص المربعة التي رواها قولوب ميلر عن  
مغامراته الجنسية وممارساته لطقوس العريضة ليست إلا مبالغة من جانب  
الكاتب.

أخضعت الشرطة يعاونها جواسيسها الشقة الجديدة لرقابة مستمرة. بيد  
أن معظم ما جاء في سجلات الشرطة لتلك الفترة لم يكن سوى تلمظ كلام لا  
يملك من القيمة غير شيء من بعض. لقد تلقى راسبوتين الهدايا كل يوم وكانت  
عبارة عن صنديق من الماديرا ووزم من الكافيار والجبن وسلال سمك وحتى  
قطع اثاث وسجاد. وقد أسهم التزار في فتح مكتب له استقبال فيه زواره الذين

(١١) الماديرا: نبيذ أبيض شديد الاسكار يصنع في غرب المغرب شمال الاطلنطي.

قدموه أفواجاً طالبين شفاعته فما رد لهم طلباً وتدخل مباشرة مع القيصر او  
التزارينا لأدراكه أنها لا يعرضان عن الناس. وذات مرة أخبره القيصر: «نحن  
سعداء لرؤيتك يومياً. أما وقد أنجزنا لك ما أنجزناه، فإنا لا نرقب منك بعد  
اليوم مزيداً من الملتصين». وغالباً ما خرجت منه جميلات النساء واضيات مسيا  
اولئك اللواتي أبدن له سطوته عليهن. وأما قصص محاولاته اغتصاب كل  
الشوسلات الجميلات فأغلبها متسوخ بقصد الاساءة اليه ولنا في تقارير الشرطة  
خير شاهد، فهي أوردت أن أغلبهن يقين معه لعشر دقائق لا أكثر وكل ما في  
الأمر أنه أحب أن يشتم نفوذه دائماً. ويروي رودزيانكو قصة غريبة تبرهن ان  
معظم اللوم يقع على النساء اتفنهن في ترويج القول والقيل وهي: - ارادت  
امرأة تسكن الضواحي ان تحصل لزوجها على ترقية فذهبت للقاء راسبوتين الذي  
تحدث معها بأدب واخبرها أنه سيضع الأمر نصب عينيه وطلب منها زيارته في  
اليوم التالي في ثوب قصير بلا أكمام- ربما لانه وجد فستانها غير مناسب للذوق.  
فقفلت المرأة ادراجها خائبة الظن وقررت الا تعود اليه. لكن توقفا شديدا  
اعتراها وهي في طريق عودتها لمنزلها ومستذكرة عيني راسبوتين تخترقها حتى  
العمق. وفي اليوم التالي حصلت على ثوب قصير وعرضت نفسها على  
راسبوتين. غير أن اغتصاباً لم يحدث برغم ان زوجها حصل على الترقية.

أراد رودزيانكو من القصة الاشارة الى قدرة راسبوتين على التوهم  
المخاطبي بيد أن القصة لا تشير لغير هتيرية المرأة المعنية. لقد كان نديماً مع  
النساء في سلوكه، مساعياً- كما يتجلى هكذا- الى امتصاص (جفجفتهم) وكثير  
من تقارير الشرطة تؤكد ذلك مثل: «طلب راسبوتين منها تقبيله لكنها أبت ذلك  
وقادت المكان...»، «زارت زوجة العقيد (تارينوف) راسبوتين واخبرته

المخبرين بعدها أن «الستاريتز» قد عائق صبية امامها وقد وجدت في الحادثة خزيماً فقررت عدم زيارة راسبوتين للأبد. «وأخبرت امرأة، جاءت في طلب لراسبوتين، بواب العمارة: «طلب مني راسبوتين أن أشعل معطفي دون اكرثات منه لتوسلاتي وظل يتحسس وجهي وصدري وطلب مني تقبيله ثم كتب ملاحظة لم أطلع عليها وأخبرني بكدوه مني وطلب مني الحضور في اليوم التالي». ويتضح من ذلك كله ان معظم زائرات راسبوتين كن قليلات الاحتشام وربما أشارت الحوادث الى تناول راسبوتين قدحا من الخمر في غداته لكنها لم تشر اليه بـ «شيطان يحاول تعرية كل امرأة متوسلة».

ليست للملاحظات راسبوتين قيمة كبرى فهي موجزة في أغلبها لسبب منطقي هو أن صعوبة راسبوتين في الكتابة ما زالت كبيرة. وقد سخر أحد القصة أمام الجواسيس من كتابة راسبوتين الخرقاء. وتحمل تلك الملاحظات عبارات مثل: «صديقي العزيز، افعل ما يوسعك لحامل الرسالة. كريكوروي» وكان يرسلها لقليل من اصدقائه أو معجبيه أمثال سترومر أو الأسقف بارناي اللذين له عندهما مكانة.

وغالياً ما أرسلت التزارينا أنا فيروفوف حاملة عباراتها لراسبوتين. وقد أوردت أنا في مذكراتها أن كثرة الارساليات قد أزعجتها كثيراً والتي تضطر فيها لصعود السلالم وشق طريقها بين الحشود المزدهمة من المتوسلين. وتذكر أن طالبا فقيرا ترجأها أن يحصل على معطف فأرسلت له واحدا. وهذا قول يحمل في طياته حقيقة ان معظم المتوسلين على باب راسبوتين من الفقراء العاديين اما الرجال الأكثر نفوذاً -الذين طلبوا مرعدا مع التزارا أو مساعدة في الأمور المادية- فقد بلغوه عبر (ميلوكوف) أو (سيانوفيش) اللذين تعاملتا مع من يعث

لم يعترض راسبوتين على الوجود المستمر لجواسيس الشرطة فهم يمنحونه بعضاً من الأمان، بل انه عقد صداقات مع بعضهم ودعاهم لمرافقته للكنيسة او الحمامات (ظل راسبوتين مواظبا على الذهاب للكنيسة وحضور صلاة القداس). وهو يعلم جيدا أن هؤلاء الجواسيس يمنحون بواب العمارة راتباً اسبوعياً زهياً لتجسس عليه. وكان يضاجع احيانا الخياطة التي تسكن تحته بطابقين او مع المدلثة التي تظطن الشقة التي فوق شقته وهو يفقه أنهم من عيون الشرطة عليه. وهو لم يشعر باستحاض من التجسس عليه فهو جزء من النظام البيروقراطي وجزء من الشعب في الرتبة الروسية. فالشرطة لم تتجسس على نشاطات راسبوتين فحسب بل تحاورته للتجسس على التزارينا، فهي اذا ما خرجت في نزهة راقبت الشرطة خطواتها شبراً بشبر وإذا ما توقفت للتحدث مع احد معارفها أوقفت الشرطة من تحدثت اليه حال مغادرتها وسألته: «هلأ أخبرتنا الذي دار بينك وبين التزارينا بالحرف والكلمة؟» فلا غرابة أن تبغض العائلة الامبراطورية الشرطة.

ظل راسبوتين يزور القيصر يومياً دون الحاجة لدعوته رسمياً. وعادة ما أضافه القيصر وزوجته فيما من شيء يعكر صفو حياتها العائلية. وقد تعود راسبوتين دخول القصر من يوابته الخلفية- فنيا استعد الزوجان لاستقباله في جناحها الخاص- ثم يشرع بالحديث اليها بلطف وكياسة فيلغ القيصر على كشفه مازحاً ويضع في أحيان أخرى يده حول التزارينا مقلداً ايهاها بحرارة. وغالباً ما يروي قصصاً عن سيبريا إذا ما حضر اليكي واستمتعت الفتيات بلقاءات منفردة معه يمزح فيها معهن عن اهتمامهن ببعض الضباط في بطانة

الشرار. وما زال يلعب دورا ولو قليلا في تعيين الوزراء لادراكه ان اغلب من يجتاز المناصب الرسمية يضم له العدا.

أقلت مضاجع القيصر في أواخر عام ١٩١٢ ويناير عام ١٩١٣ كثير من الأمور. فقد انتهت فترة حكم الدوما الثالثة في نهاية عام ١٩١٢ وتشكلت «الدوما» الرابعة برئاسة رودزيانكو. بيد أن القيصر - برغم رضاه ظاهرياً بوجود الدوما - ما زال يطمح أن يقوض سلطانها، ماشياً بتشجيع راسبوتين اليه في نزعته هذه، وقد تفاقمت النفخة الشعبية في أواخر عام ١٩١٢ بعد حادثة ساحة (لينا كولد) عندما فتحت الشرطة النيران على المتظاهرين العزل. فأرسل أحد قادة الحركة العمالية البارزين ويدعى (اليكسندر كيرسكي) للتحقيق في الحادثة واكتشف ان الذي امر الشرطة باطلاق النار كان سكرانا ومعتوها. ومرة أخرى وجدت الحكومة نفسها أمام هجوم الدوما عليها وربما تمتنى نيقولا عودة حوالي الأيام حين لم تكن هذه المذابح الصغيرة شيئاً يعتد به. وتوزعت المظاهرات وأعمال الشعب في عموم روسيا ويبلغ عدد المتظاهرين من العمال في عام ١٩١٣ حوالي ثلاثة أرباع المليون وتضاعف العدد في السنة التالية واستفاد اليساريون من هذا الوضع. وبرغم ان الإغتيالات لم تصل العدد الذي بلغته في الفترة ما بين ١٩٠٥ و ١٩٠٧ عندما اغتيل ما يربو على أربعة الاف شخص، فإن الشوار قد أصبحوا مهرة في السطو على المصارف وسرقة قطارات البريد لتحويل قضيتهم. وفي تلكم الأثناء عمت الاضطرابات دول البلقان وداعبت فكرة اغتيال الأرشيدوق (فيردناند) وريث عرش النمسا مختلف الجماعات الصربية السرية أمثال جماعة (نارادنوا وبرانا) وجماعة (الكف الأسود). وعليه كانت روسيا جالسة على فوهة بركان دون أن تعلم ذلك.

لم يحرك القيصر ساكناً لتحسين الوضع الروسي. وقد احتفل بالذكرى المئوية لإندخار نابليون في ايلول من عام ١٩١٢ وجرت مراسم احتفال بهيجة وافقتها تظاهرات وطنية. وشهد عام ١٩١٣ أعظم احتفال بمناسبة الذكرى الثلاثمائة لحكم آل رومانوف. وسافر الشزار والشزاريتسا لرؤية اول منزل للرومانوفيين على نهر الفولغا واصطحبا راسبوتين معهما بيد ان هذا السلوك كان لا عقلانياً فرحان ما تلاه تصادم علني بين راسبوتين وروديانكو فضح شعور القيصر والإزداء لدى رودزيانكو لراسبوتين. كان رودزيانكو موظفا روسيا نموذجيا فخورا بموقعه وغبورا على سلطته. وقد سمع أن «الدوما» اعطيت مقاعد خلفية في احتفاليات كاتدرائية كازان بمناسبة الذكرى المئوية فطالب لمجلسه بمقاعد افضل فقال ما طلب، ووضع من أتباعه من يراقب تلك المقاعد. وبينما كان رودزيانكو ينتظر خارج الكاتدرائية جاءه رقيب وأخبره أن فلاحاً جلس على أحد المقاعد ورفض أن يتحرك عنه. وأضاف أن هذا الفلاح هو راسبوتين الذي ارتدى عباءة روسية رائعة من الحرير القرمزي وجزمة جلدية متميزة وبنطلون اسودا ومعطفا قرويا وارتندي صليبا متديا من سلسلة ذهبية. انتفض رودزيانكو وذهب حيث جلس راسبوتين وجأر فيه: «إذا ما خطبتي (كما أنت) لأمسكت بلحيتك وقذفت بك خارج الكاتدرائية. ثم امره بالخروج من الكاتدرائية برغم ان راسبوتين قد أراه ببطاقة دعوة من التزار شخصيا. ركع راسبوتين على ركبتيه وبدأ بالصلاة فصره رودزيانكو بقدمه صارخا فيه: «كف عن هذه الرقاعات». قتاؤا راسبوتين وتمتم «الهي اغفر له خطايا» ثم غادر المكان.

لا يلوح هذا الحديث جديراً بالتصديق لشخص كرودزيانكو. فهو ملك

من الحق في دخول الكاتدرائية مثل ما ملك راسبوتين. ومن الواضح - كما جاء في كتاب رودزيانكو - أنه أراد التبرع من هذه المراجعة باعتبارها نصراً عظيماً ضد راسبوتين. وذكر عضو في «الدوما» لاحقاً أنه أخبر رودزيانكو أن راسبوتين قد حدثه بقصة تصادمها وإضاف : «أقول لك الحق، لقد كنت دائم الاعتقاد أن ما أخبرني به عن قصة طردك إياه من الكنيسة كان مجرد تباهي». وتلك دلالة أن رودزيانكو كان من أهل الكذب والتجح.

بيد أن التزاور ظن في عام ١٩١٣ عاماً آخراً من الصراع والثورات. وبدا أن نيفولا كان أعجز من أن يتعلم برغم حالة الاضطراب العالمية. وعاد يداعب أحلام اليقظة فيه وينشد السلطة المطلقة. وقد نصحه وزير الداخلية الجديد المسمى (ماكلاكوف) باللعب إلى الدوما والقاء خطبة حامية ثم يأمر بحلها أو يقوض نفوذها في أقل تقدير. بيد أن مجلس وزرائه - ولحسن حظه - عارضوا الفكرة برغم كرههم للدوما بعد أن وجد فيها الأعضاء فتيلاً لثورة عارمة.

في تلك الفترة تحديداً طفق الاسم المنحوس ستورمر إلى الوجود. وهو قد زكى نفسه لدى نيفولا قبل عدة سنين عندما كان الأخير في مشكلة مع (الزيمستفوس) أي جمعيات الأراضي. فقد فقدت جمعية منها في منطقة «تفيرا» ثمة التزاور اثر بنائها لمستشفيات واعطائها إرشادات في الزراعة للفلاحين. حيثئذ استأسد ستورمر الذي كان مجرد موظف حقير وهاجم الجمعية وأقال اعضاءها واستبدلهم بجمعيين عاهدون الا بمركوا ساكتاً. بعدها نجح ستورمر، الذي وصفه بيرس بـ : «رجل سطحي تجردت منه النزاهة ونزع من نفسه الشجاعة»، في التعرف على راسبوتين بواسطة (سانيلوف) واحرقه بالمديح والإطراء. اقترح نيفولا تعيين ستورمر محافظاً لموسكو وأبد اقتراحه مجلس الوزراء. بيد أن

(كوكوفستيف) الذي خبر - برغم حجة عروبه - مواطن الأذلاء من المتزاورين بمجرد لمحة بصره عارض الاقتراح ففشل التزاور موقفه على مضض ووضع نصب عينيه فكرة التخلص من كوكوفستيف في اول فرصة مناسبة. ان نمط قيادة نيفولا للحكومة لينزع الإنطباع أنه يتوق في لادعيه للإنتحار.

تكنم المشكلة ان راسبوتين قد فشل في الحكم على شخصية المرء لا لأنه فقد ملكة البصيرة وإنما لأنه افتقر إلى الرغبة في ذلك. فاذا ما نجشم شخص مثل ستورمر عناء حتى يتعدى إليه أنيساً، صدقه راسبوتين وخال في صداقته أمراً متقنياً. وهو قد جرد ذاته من الغاية الدنيوية فأمن بالمال ثروة زائلة وأيقن في نفسه القوة التي يريد فأخذ لذلك الناس على مسألتهم. وفيه مسحة سلاجة غدت لشفتها رعباً. فبينما تدهورت الشؤون الرومية اليوم أسوأ من البارحة، ظل راسبوتين ينصح التزاور باستخدام نفوذه مستغلاً تأثيره لصالح رجال مثل ستورمر، فيما وقف - لأنه مقت ريبلاً شريفاً مثل رودزيانكو - معارضاً المددوما فأزاد الظلم بلة. ومع اطلالة عام ١٩١٣ تلبدت السهائم بقمامات الشتاء حتى حل عام ١٩١٤ فنزل الغيث.

فوجيء كوكوفستيف بفضله من منصب فجأة في شباط ذلك العام. إذ دخل في نقاش مع القيصر انتهى أن أعلن القيصر كعادته : «انت الضائب وأنا المخطي». ثم غم كوكوفستيف لصدوره. لقد تحطت الجميع في أمر هذا الرجل المهاج فما استقر في يومه على رأي وما عرفوا له منفذاً لارضاة.

خلف كوكوفستيف في منصبه الساذج (كوريكن) الذي سبق أن تولى لفترة قصيرة منصب رئيس الوزراء بعد طرد (وت) الذي ارتبط وراسبوتين

بصدقة لم تعيد له منصبه وظل هكذا حتى وارى التراب بعد عام من فصله.

ما فتأ الفيصري يسعى لحل «الدوسا» وظل معه مجلس وزرائه مناهضاً لهذا المسمى فيما أنجب من كرهه راسيوتين فكرة اغتياله لا محالة. وكان (يوسوف) يكمل آنذاك دراسته في المانيا. وأما القس ايليودور فما برح يغلي حقدا وسلواه الإنتقام من راسيوتين.

وفي يوم من الأيام، اجابت ماريا راسيوتين على الهاتف الذي رن في منزل أبيها في كوروخوفوي. كان المتكلم رجلاً غريباً أخبرها أنه رآها في الشارع فسلمت منه في لحظة بصر له. لم تكن ماريا بنت الست عشرة ربيعاً أية في الجمال، غير أنها ملكت فماً كبيراً وعينين ناضجتين بالحياة وقوام جميل، وورثت موهبة أبيها في الرقص. وكانت من السلاجة أن آمنت معها بفكرة حب رجل غريب لها وقررت عدم ابلاغ والدها بالأمر. ظل الغريب يطرق في مسامعها فكرة الحب أن وصف لها جولانها تفصيلياً عما تصدق أنها كانت مراقبة عن كتب ودون أن يفصح عن اسمه او شخصيته.

قرر راسيوتين في بداية حزيران من عام ١٩١٤ الذهاب لبوكروفسكو وقضاء فصل الصيف فيها ذهب التزار وعائلته كعادتهم لمنطقة ليفاديا فكان هذه المرة صائباً في قراره. وحقيقة الأمر أنه قرر السفر لأن فكرة اغتياله ظلت تتلنى مضجعه فما أغمض له جفن، فبدأ رحلة العودة الى الديار والتي استغرقت خمسة ايام في القطار ثم يومين آخرين في المركب من توبولسك. وفي الطريق تحدثت ماريا الى شاب يهودي من بطرسبورغ أخبرها أنه هو الغريب الذي حادتها هاتنيا. ثم تعرفا جيدا على ظهر المركب وقد وجدته لطيفاً حاضر الطرفة

وصديقاً يظن به لكن عيبه شكله، فقد كان قصير القامة أسود الشعر يهودي الطلل. لقد أعيا الشاب ماريا في أمره. اذ أخبرها حين وصلوا بوكروفسكو أنه ساكت في القرية. يا لدهاء هذا الشاب، كيف بلغ دواخل صبية في السادس عشرة من عمرها.

وصل الجميع بوكروفسكو يوم السبت الموافق السابع والعشرين من حزيران عام ١٩١٤. وفي الساعة الثانية والرابع من ظهيرة يوم الأحد قدم سامي البريد ومعه بريقة لراسيوتين الذي قرأها بسرعة وخرج منادياً سامي البريد أن يتظر ريثما يكتب ردا لها. وبينما كان يجيب على الرسالة اقتربت منه فلاحه كان قد رآها في نفس اليوم عندما أرادت مخاطبته بعد انتهائه من القداس فتوقف راسيوتين ليعطيها قطعة نقود لكنها سرعان ما تقدمت نحوه لتطعمه بالكين في معدته فهرول راسيوتين ولحقته المرأة ثم فكر ان المهجوم افضل وسيلة للدفاع فامسك بقطعة خشب كانت ملقاة على قارعة الطريق وضربها على رأسها ثم عاد لمنزله مشغل الخطنى نازقاً دماً ونادى على الخدم بصوته اليهودي. وفي تلكم الاثناء شاهد الجيران محاولة الإغتيال وأمسكوا بالمرأة التي بدأت تستعيد وعيها وسحبوها لمنزل راسيوتين وهي تصرخ: «قد قتلت عدو المسيح». خرجت ماريا ورأت الفلاحين وعلامم الغضب على وجوههم يسحبون مخلوقه ضعيفة ذات انف كبير مشوه وهي تجاهد في التخلص من قبضتهم. كان اسمها (كينيا كوسيفا) وقد وصفها لبيان انها كانت «امرأة جميلة». حيثذ رأته ماريا المرامل الصحفي اليهودي المسمى (ديفيدسون) وصرخت في وجهه فانطلق بسرعة ليريق

(١) يذكر بيرس تاريخاً للظمن وهو التاسع والعشرين من حزيران يد أن ماريا تذكر أن التاريخ كان يوم الأحد الموافق ٢٨ حزيران.



الأخبار الجريدة في بطرسبورغ وتلك هي المرة الأخيرة التي شاهده فيها ماريا.

استوفقت كوسيفا ولاحقاً راسبوتين عناءً في الإبقاء عليها من الموت قُبَيْلاً  
دخل هو مستشفى (نيومين). لقد كان جرحه بليغاً فقد فتحت الطعنة احشائه  
لكنه أبى الموت وعلم في المستشفى أن كوسيفا إحدى عملاء ايليودور وإنما  
التقت توا قبيل طعنها أباه بالقس المخلوع في الترويج. ووصف بيرس كوسيفا  
بـ: «صحية هسيبة لشيق راسبوتين». وهو وصف لا يبدو عادلاً قراسبوتين لم  
يرها من قبل. ومع ذلك تراء توسط حتى لا تحاكم المرأة سبياً وقد علم أنها  
مجنونة وسجت في ملجأ. أما دور ديبينسون فقد ظل مجهولاً.

وإذ أصاب الخنجر راسبوتين في بوكروفسكو، ثمة ضحية أخرى كانت  
تنتظر رصاصة قاتلها. كان المفتال (كافريلو برنسيب) وهو شاب يوسني رفض  
الإحتلال النمساوي لبوسيا أما ضحيته فهي الأرشيدوق (فرديناند) وريث  
العرش النمساوي الذي اماء اختيار اليوم الذي يزور فيه ساراييفو لانه كان يوم  
(فيدوفدان) ذكرى الإندحار الصربي العظيم والذي كان عطلة رسمية. اذك  
فريدناند ساعة موته وقال لمعلم اطفاله: «أبي أرى الرصاصة التي ستقتلني في  
طريقها الي». وبعد العاشرة من صباح ذلك اليوم القيت قنلة من صنع محلي على  
العرصة الدوقية الكبيرة فخرجت العديد من المتفرجين وتركت فريدناند وزوجته  
دون أذى. وقد حاول تحفظ المحاولة المدعو (شابرينوفيش) الانتحار بالساييد  
لكنهم القوا القبض عليه. ثم حضر الغراندوق وزوجته مهرجانيا في قاعة المدينة  
وعادوا المكان بعد نصف ساعة وبينما أوشكا أن يستقلا سيارتهما فاجأهما مصور  
فقال فريدناند لدوقته: «يغامرني شعور أن مزيداً من القنابل موجودة  
بحسبوري». وقد صدق في احساسه. فقد كان (كافريلو برنسيب) الطالب الشاب

المسلول يحمل قبلة ومسدس من ماركة براوننج بست رصاصات بيد انه أوشك  
على فقدان فرصة الإغتيال فحينما اقتربت السيارة عنه استعد للإطلاق لكنها  
استدارت لتدخل شارع فراتز جوزيف.

إن التاريخ الحديث على كف عصفرت حيث صرخ شخص ما وامر  
السيارات بالوقوف فالطريق في حيز التعديل. وعندما تراجعت سيارة الدوق  
تقدم برنسيب واطلق رصاصتين أحسن فيها رماية. إذ أصابت احدهما الدوق  
واستقرت الأخرى في جسد الدوق. القى بعدها القبض على برنسيب.

تقع ساراييفو على بعد خمسين درجة في خطوط الطول عن بوكروفسكو،  
وهذا يعني أن الساعة الحادية عشر في ساراييفو هي حوالي الساعة الثانية والربع  
في بوكروفسكو. وإنما لمصادفة عجيبة أن يشهد التاريخ محاولتين للإغتيال في  
اللحظة ذاتها تقريبا وهي مصادفة تجعل المرء ميلا للشك «بعمى التاريخ».  
فسموت فريدناند قد جعل الحرب وشبكة الوقوع وجرح راسبوتين جعل وقوعها  
حتمياً فهو الرجل الوحيد في روسيا القادر على تفادي وقوعها<sup>(١)</sup>.

توالى الأحداث سريعاً وراسبوتين راقد في المستشفى. فنار الحقد  
الصربية- النمساوية ظلت تبعث منذ ١٩٠٨، واليوم قد ساور الشك النمساوي  
وكانت مخففة- إن صربيا وراء اغتيال وريث عرشها وأرسلت الأذوا تطلب فيه  
تنازل كبيراً يتضمن وجوب سماح صربيا لموظفي النمسا باستجواب موظفي  
صربيا حول عملية الإغتيال. غير أن صربيا أعرضت عن التنازل فأعلنت

(١) لا اعتقد أن أحداً آخر غير وراث هذا الكتاب قد أشار لتلك المصادفة.



النمسا الحرب . تحبط القيصر ماذا عساه أن يفعل . فصريح الأمر أنه سيبقى  
لنجدة صربيا وهنا لن تغف ألمانيا مكتوفة الأيدي وستنهض لمساعدة النمسا . ثم  
توصل لتسوية وامر بالغير الجزئي . وتلك هي اللحظة التي كان سيقبل فيها  
وجود راسبوتين الموقف فقد أكثر القول أن دول البلقان لا تستحق القتال عنها .  
لكن الحرب تمثل اهانة لروسيا برغم كل شيء . فدول البلقان تقع بينها وبين  
النمسا ومن الواجب ان تبقى دول مستقلة . أما النمسا فأرادت أن تجرب  
حظها ثانية مستذكرة يوم خدع رجل دولتها (اهريثال) - وهو سياسي انتهازي  
من نوع بيسارك - روسيا عام ١٩٠٨ . ومد حينها ما برحت روسيا تداوي  
جرحها وتترقب ساعة الانتقام . وما غزو صربيا اليوم بأقل اهانة عن سابقه وهو  
كصفعة على الخد . لكن الأسوأ منه أن ألمانيا أخذت تعد العدة لمساعدة النمسا  
وأمرت روسيا أن تستوقف تحركها فوراً . وبرغم كل هذا الضجيج لم يتوقع أحد  
اندلاع حرب لأن أحداً ما كان راعياً فيها . حيث حاولت صربيا تفادي الحرب  
أن قدمت رداً ودياً للنمسا تقترح فيه (تسوية) فيما قدمت روسيا في محاولتها  
تفادي نشوب الحرب اقتراحاً بعرض المشكلة برمتها الى (المحكمة المقدمة) للبت  
فيها . ذهب المقترح أدراج الرياح وقصفت النمسا مدينة (بلغراد) عاصمة صربيا  
وسمع الروس شائعة أن النمسا أعلنت حالة الغير وأمرت بالتعبئة العامة فأمر  
القيصر في الحال اتخاذ نفس الاجراء .

كان راسبوتين راقداً في المستشفى حين بلغته أنباء الخبر فارسل في حالها  
برقية للقيصر يتجاه فيها تحجب حالة الحرب . استشاط القيصر غضباً وهو يقرأ  
التاس راسبوتين . فروسيا برمتها متعطشة للدماء وتعالى صيحات الغضب التي  
عبرت عن الوطنية المحسومة وهنتف الدوما هي الأخرى داعية للحرب . ولو

حدث أن عارض راسبوتين والقيصر الحرب لبات كلاهما أقل رجالات روسيا  
شعبية ، ولكنها كانتا سينغاديان ثورة ١٩١٧ من جهة أخرى .

أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا أولاً وأصبح نيقولا لأول مرة طيلة فترة  
حكمه الرجل المعبود في عموم روسيا وقد استمتع بهذه الشعبية المفاجئة حتى  
وصفه المعلم (كيليارد) بأنه كان أشبه برجل غير التزار .

ارسلت ألمانيا اندازا هي الأخرى لفرنسا وبلجيكا وقد كان الإنذار الموجه  
لفرنسا مهيناً كالإنذار لروسيا أصر معه (ويلهلم) على الحرب . وعندما دخلت  
القوات الألمانية اراضي بلجيكا دخلت بريطانيا الحرب دفاعاً عن حيادية بلجيكا .  
ثم أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا وبعدها انضمت ايطاليا لجانب «الحلفاء» .  
ومع اطلالة شهر آب - وراسبوتين لما يزل يداوي جرحه - كان نصف العالم قد  
دخل أوار الحرب .

## الفصل التاسع

### «امطار من نار»

كانت روسيا أقل استعداداً لحوض غبار حرب ١٩١٤ من حال انكلترا عام ١٩٣٩. أما رئيس وزرائها غير الكفء والمبهم الشخصية (كوزميكين) البالغ من العمر اربع وسبعين عاماً فقد ظن في الوزراء (خدم) القيصر، فيما ظن وزير الداخلية (ساكلاكوف) أن أي مسعى حرب قومية سيفضعف من امكانية حدوث ثورة. لقد عجت روسيا بالرجال لكنها انفرت لكثرة السلاح، وخلافاً للاعتقاد العام فإن كثرة الرجال ونقص السلاح يمثل عائلاً ايجابياً ضد المسعى الداعي للحرب. وقد توجب على المجند الروسي أن يقطع أصنعاغ بعيدة حتى يصل وحدته. وهي لم تملك الاقله من الطائرات الحربية وعانت نقصاً من المدفعية الثقيلة والذخيرة، والاتصالات بين الوحدات والقيادة كانت غايبة في السوء وثمت عبر هواتف ولاسلكيات قليلة وتحتم على جمعية الصليب الأحمر المساعدة في النقل. غيات لديها بحلول تشرين الاول من عام ١٩١٤ ما يبرو على المليون مقاتل بلا بنادق.

ومع هذا تحمل الآن ان بعض مشاكل السنوات العشر الماضية كانت نعماً لواقع اليوم. فقد ولدت كوارث الحرب اليابانية اصلاحات في الجيش سببا سلاح البحرية. وأمسكت روسيا في الشهور الأولى من الحرب جبهتها على نحو

مشير. ثم توالى بعض من الإندحارات الرهيبة في آب وأيلول مثل معركة (زاموسك - كوماروف) ومعركة (تانتيرج) التي انتحر بعدها الجنرال الرومي (سامسونوف) ونسب امر مئات الآلاف من الروسيين. من جهة أخرى هزم الروس القوات النمساوية في معركة (لامبيرج) وأجبروها على التنازل عن (كاليسيا) الشرقية.

لما ينزل الحال في حيص بيص. فقد غير الروس - في محاولتهم بلوغ الوطنية - اسم مدينة القديس بطرسبورغ الى (بيتروجراد) وقد كان لاسمها القديم الكثير من الصفات المشتركة مع بطرس الكبير - المناصر لألمانيا. لكن هذه الأبياء كانت الى حد ما نموذجية للمثالية المشوشة التي تقف وراء الجهد الحربي الروسي. وهكذا قرر القيصر الذهاب للجبهة وتولي زمام القيادة هناك بنفسه. هنا جاهد وزراؤه لثبته عن عزمه وإرسال بدلاً عنه الفرانديق نيقولا - أول من ناصر راسبوتين ثم ندم لقمعه بجلب راسبوتين للبلاد القيصري ويات عدواً له - . واتخذ التوار قراراً يقضي بتحريم بيع القودكا لانها تحدث السكر وتجهض على الجهود الحربي وتم كان عظيماً الحماس الوطني فما اعترض أحد على القرار واستمر «التحريم» عاماً تقريباً.

ویرغم ذلك فشلت الروح الوطنية في ولوج دواخل ذوي السطوة في البلاد. فذاك وزير الحرب الجنرال التقليدي (سوخو ميلنوف) الذي وصفه الن مورهديه العسكري المتحجر بتفاخر أنه لم يقرأ أصغر كتاب عسكري منذ خمس وعشرين عاماً وأن ما يعتمد عليه هو الطعن بالخراب. وتلك هي زوجة اليهودية الحسنة - التي تصغره بأعوام عديدة - لا تكثر لأمر غير البلخ وما كان من زوجها الجنرال الا أن يجد طرائق للبقاء لها حتى قيل أن أحدها بيع بلاده للألمان

والأخرى اختلاس الأموال المخصصة لشراء الأسلحة.

بيد أن التعصب الرجعي هيكل عقول النخبة الممتازة وغير الخائنة من الوزراء فتراهي هم الفلاح الروسي وبسبب حماسهم الوطني مصدر قلق لا موطن حماية وتطلعوا صوب الجندي الروسي فخالوه منهاً فحرموه من الأكل في المطاعم العامة ومنعوه من الركوب في الحافلات وسلبوه حقه في قراءة الصحف دون إذن من أمره. وما كان يستطيع أن يجيب على سؤال ما ب: «لا اعرف» بل عليه القول: «لا استطع ان اعرف» فطالما هو فلاح فهو «لا يستطيع ان يعرف».

سار الرجال زرافات زرافات صوب منيهم وخاضوا غمرازات معارك ما كان النصر نصيبها ففلاحي النية منهم اربعة ملايين في خمسة شهور فحسب. وذلك لم يكن خطأ القائد نيقولا، فقد كبل يديه الفرنسيون الذين سرعان ما اجتاحتهم الألمان. بل هو لم يكن مستعداً ليقاوم وهجوماته الحاطئة في بروسيا الشرقية وبولندا وكاليسيا قد كان نصيبها الفشل سيقاً. وما ان حل عام ١٩١٥ حتى عاشت روسيا اندحاراً كاملاً.

تلكم هي الأوضاع التي واجهها راسبوتين لدى عودته الى بيتروجراد في ايلول من عام ١٩١٤. فالقيصر غاضب عليه من برقيته التي ترجاه فيها اطفاء جرة الحرب. وقد لاحظ الجميع ان نيقولا قد اضحى رجلاً جديداً مذ نشبت الحرب. بيد ان التزاوت لم تلمس حاجتها الشديدة لـ «صديقها وناصحها». فهي اللابئة المولدة وغلب على الساحة الرأي أنها في صف الألمان، وهو افتراض لم يكن سليماً برمته. وقد سرت طرفة عن التزاوتيش تقول على لسانه: «لست ادري

(١) غير الاسم في الحادي والثلاثين من آب ١٩١٤.

من يجب ان اساند فاذا ما خسر الروس الحرب نجهم وجه أي أو عسرها الألمان  
مشيكي ساما. لقد اتاحت التزارينا شديدة العصية ووجدت أن من المستحيل  
عليها الظهور للعمامة وهنا أشار السفير الفرنسي ان سلوكها في مأدبة عامة كان  
جدا متوترا وانها اشرفت على نوبة من نوباتها المشهورة قبيل نهاية المأدبة.

وقف راسبوتين - كصديقه وت - مناهضاً عنيداً للحرب وحامت حولها  
الشكوك انهما جاسوسان للألمان . ثم ماتت وت في آذار من عام ١٩١٥. تاركاً  
وراءه راسبوتين يعمل على عاتقه وحيداً لقب اقل الرجال شعبية في روسيا،  
ومكابداً للرأي السائد عنه أنه جاسوس للألمان. لم يكن الميوس الروسي من  
النحس محض أو هام فقد اكتشف أن أحد العقلاء واسمه (مياسويدوف) وهو  
صديق لوزير الحرب (سوخوميلنوف) يعمل عميلاً للألمان واعدموه لذلك.  
وشاع القيل والقال أنه كان عشيقاً لزوجة سوخوميلنوف. كما اتضح أيضاً أن  
بعض اليهود يناصرون الألمان الأمر الذي أفضى الى الشروع بحملات إبادة  
واسعة النطاق شملت جميع اليهود في روسيا وبولندا وهرب الآلاف منهم خارج  
بولندا وهاموا في الأراضي الروسية ومات أغلبهم بسبب الجوع والطبيعة.

وفي خضم هذه الأحداث عاد التزار ثانية ليكون الحاكم المطلق في روسيا،  
لقد منع «الدوما» من الاجتماع وسجن ستة من النواب البلشفيين وكان سادسهم  
(ماليونوفسكي) جاسوساً شرطياً برغم أن الغالبية قد وثقت به واحبته ومن بينهم  
ثلاثين نفسه. ولأول مرة منذ عشر سنين لم يعترض احد على تسلط التزار  
وبطأنته فالجميع قد عاش قلق الحرب ونسي تذمره من سلطان القيصرة، وظل  
الحال هكذا حتى انقلب عليه سافله بعد تسرب أنباء الجبهة المشيوية فتبخر  
لحماس الوطني وعاد التمرد القديم ليشل الى جموع الشعب.

أنداك استقطب راسبوتين مشاعر التزارينا التي شعرت بنفسها انهذه  
الطريق ومساءة الفهم تبحث عن صديق فاستسلمت لعبق نفوذ الأخاذ.  
وسرت اشاعات أن راسبوتين قد تومنها مغناطيسياً (دارت قصة تحكي أن  
راسبوتين بدأ عام ١٩١٣ يتلقى دروساً في الترويم المغناطيسي من غير في هذا  
الاختصاص لكن (بيلينسكي) طرد الخبير من بطرسبورغ). وربما تكمن الحقيقة  
أن التزارينا بدأت تفقد قرب زوجها منها والذي كان يستفيء بشعبته مع رعيته  
ولا يكتفرت لأمر غير الحرب، لذلك أفضى راسبوتين لفترة من الزمن وعاء  
شم كل مشاعرها العميقة. وفي مستهل عام ١٩١٥ بدأ اسم راسبوتين عند التزار  
يأفل نجمه بعد أن بزغ مع نهاية عام ١٩١٤. وكان له رئيس الشرطة الجديدة  
الجنرال (دزهانوفسكي) شديد الحقد وسعى (للثيل منه)، وشرع يهمس في اذني  
القيصر بعض نشاطات راسبوتين سيما حفلاته الصاخبة في (قبلا رود) عندما  
يخلبه فيها السكر فيتحدث عن القيصرة بلا توقيف وكأنه يتحدث عن روسي من  
أبناء العمامة، ويصل به الأمر أحياناً لخلع ملابسه. وهكذا فقد موطيء قدمه في  
القصر مع حلول عام ١٩١٥ واضطرت معه التزارينا للقائه سراً في منزل آنا  
فيرويوفا الصغيرة بالقرب من القصر في تزاريسكو سيلو.

في الخامس عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩١٥ توجهت أنا الى  
بيتروجراد لزيارة والديها. وفي الطريق تعرضت لحادثة اصطدم فيها القطار الذي  
كأنت تستقله بأخر تجم عنه تحطم عدد من العربات واصابة أنا بجروح خطيرة.  
فقد انحسر ساقاها في جهاز التدفئة البخاري واصطدم رأسها بعارضة حديدية.  
ثم اخرجوها وحملوها على باب مخلوع. وادخلتها التزارينا لمستشفى تملكه طيبة  
تدعى الاميرة (كوباديتز) التي قطعت حتى يبيض أمل في انقاذ حياتها (اعتقدت

أنا أن الاميرة كانت تنوي قتلها وقد أصابت في ظنهما فالاميرة تعيش خلف الكواليس). لم يسمع راسبوتين بالحادث الا بعد مرور يوم كامل فاستعار سيارة وانطلق مسرعاً للقصر حيث ترقد أنا فيروبوف فاقدة الوعي برغم أنها رددت بين الحين والآخر وهي تهذي عبارة «الأب كريكوري». دخل راسبوتين الغرفة متجاهلاً التزار والتزارينا اللذين كانا يجوران سرير المريضة وأمسك بيدها قاتلاً : «نوشكا انظري الي» ففتحت عينيها وقالت: «كريكوري حمدا لله» ظل راسبوتين ماسكاً بيدها بعض الوقت ونظر اليها ثم قال للتزار : «سوف تعيش لكنها ستكون مشلولة». ثم خرج من الغرفة لكن المجهود أعياه والتعب أضناه فتعشعر وخر مغمباً عليه خارج الغرفة، فيما أخذت أنا تستعيد عافيتها بعد زيارة راسبوتين.

ان أشد عناصر القصة تشويقاً هو- دون ريب- سقوط راسبوتين مغمباً عليه. وقد شهدت صحة الواقعة أنا بنفسها وموسولوف رئيس البلاط بقولها: «نودل في مشبه داخل الغرفة وترنح خارجها وسقط مغشياً عليه ثم استفاق متعرقاً وشعر أن ما اوتي من قوة قد أخذت منه». ومن ذلك يتضح أن ما حدث ليس إلا مثالا اخرًا على قدرة راسبوتين على العلاج ومثالنا هذا يجسد أنه تخلى عن حيويته لإعادة شحن فعاليتها. وحقيقة الأمر أن أنا كانت تصارع الموت حين رأها راسبوتين وقالت فيها الطيبة الامبراطورية للتزار وزوجته أنها في عداد الموتى وطلبت منها القاء نظرة الوداع عليها وكل هذا كان قائماً قبل وصول راسبوتين وعليه فان جهد إعادة (احيائها) قد كلف راسبوتين طاقة لم يستنزفها من قبل. من جهة اخرى لا يبدو ممكناً أن راسبوتين قد قلل من قواه الروحية في العبريدات التي وصفها عنه دزهانكوفسكي.

وحتى لو صح القول، فان في الحادثة لمحة لأهم جانب من حياة راسبوتين. اننا ونحن نقرأ سير الأحداث الجسود صوب الكارثة- سيما غرابة المصادفة بين اغتيال راسبوتين واغتيال الارشيدوق فيردناند- نششف صعوبة الا نتلمس ابطال الرواية بغير دمي كارتونية ومن أن وجهة النظر الماركسية للتاريخ على أنه القوة الحقيقية وراء قضايا الإنسان هي وجهة النظر الصحيحة. لكن راسبوتين عاش في بعض زمنه- في بعد آخر من التاريخ- وفيه يقع سر نفوذه وسطوته على التزار والتزارينا. كما يبدو أن (الماهية) الخداعة التي تكبل اغلب بني البسيطة قد انتقلت عند راسبوتين.

هذه النقطة تستحق منا الاسهاب في الشرح قبل الحديث في غيرها. يحتفظ أبناء المعمورة لفهم بنوع من التوازن بين العالم أي الطبيعة الخارجية وبين الإرادة. وان الهدف المادي خاضع بالتزام لقوانين الطبيعة: فليس بوسع ورقة الشجر ان تقرر بإرادتها السقوط او البقاء معلقة على الشجرة، وكثير من الحيوانات سلبية الإرادة في الاختيار فهي تتكيف للطبيعة فحسب، ويبقى الإنسان المخلوق الوحيد المعادي بفعاليته للطبيعة والساعي دوماً الى التفوق عليها بدلاً من الخضوع اليها.

بيد أن عادة السلبية تظل مغروسة في الانسان برغم ادراكه انه قادر أن يهزم الظلام بمجرد الضغط على زر الاتارة. فهو لا يكف عن الشعور باحترامه للطبيعة وخوفه منها ومن الواقع الخارجي فجزه من وجوده لما يزل يرى الطبيعة الحاكم المطلق والسيد المطاع. ويذهب الشعراء والفنانون ابعد من ذلك فيحلمون بهزيمة تكراه للطبيعة وفوز ساحق لروح الانسان. وبرغم ذلك يستوقف معظم الشعراء هذا الاحساس المعادي للطبيعة- وخصوصاً في منتصف العمر- ويدأون

التكيف معها. بيد أن روح الدين يرمتها - روح القديسين والانبيااء المهمة - هي  
اعتقاد بقوى الروح المطلقة والاسان العادي يستخدم ارادته (دستورياً) آخذاً في  
الاعتبار قوانين الطبيعة. وهذا يعني انه لو واجه مصاعباً ولو وافقه سوء الطالع  
الذي يبدو (قضاء وقدرًا) أو من عمل الصدقة لاكتشف القنوط وشعر أنه ضعيف  
الخيلة وسلياً وأنه لم يبال جهداً حتى يركب الصعاب. ها هنا قد عجزت الروح  
لأسمى فعل وتشتت الإرادة.

وأما رجل مثل راسبوتين فسيخطو أبعد من ذلك. وعظمااء الفنانين  
وحدهم الأقدار على تحدي القدر. فذاك يتسهوفون يضرب بقبضته على دوي  
الصمم، حتى تلوح الروح كأنها الفائزة بشجاعته ومثابرتها وان كانت الطبيعة  
أقوى منها. ويصفه راسبوتين غريزياً ان لا مكانة للهزيمة والإرادة فاعلة حتى  
وان كانت المواجهة للأمر الواقع من جانب الطبيعة. ولسبب ما، لم يكن  
راسبوتين سلبياً كخني البشر فهو وبدلاً من أن يتهار في حالة هزيمة، انتفضت  
حيوته لتواجه الطوازي.

لقد وصف العديد من الشعراء هذه الحالة من اليقظة في الفاعلية على انها  
لفيض السلبية تجاه الحياة. وهي على الدوام ضرب من الاستيقاظ من النوم.  
يرمز وليام بليك لسلبية الإنسان وحصلته الحيوانية بـ (الموتة) فيقول:-

كلنا يقع في طاقة موتة

حتى تدنو الساعة

ساعة تفتق انسانيتيه

ويلمق بالموتة في البحيرة

ويصف «بستن» الشعور ذاته على مستوى آخر: «عندما يصارع الإنسان  
الجنون»:-

من عينين مكشوفتين

ينهمر شيء

يكمل بعض عقله

ويسترقف لوهلة

على هيئة

يصحك عالياً

وقله في وثام

وهذا هو ما يعنيه غارجييف في «الصراع ضد النوم»

وتستبي السيدة ابدي - التي وصفناها سابقاً - انظرية القائلة أن الإنسان لم  
يبلغ بعد هيئته المطلقة على الطبيعة طالما هو يمتلك موقفاً غريزياً من الثلاثة  
دوماً ما يشل قواه. وهو في ذلك اشبه بصاحب كلب هلوج لا يستطيع السيطرة  
عليه لأنه دائم الخوف منه.

ان راسبوتين وبرغم كل ما قيل ضده ليمتلك هذا الشاؤل الغريزي والثقة  
القطرية والادراك لقوة الروح. فبات قادراً أن يرى روسيا تنحدر قدريا نحو  
الكارثة بيد انه لم يستطع قط ان يصيح قدريا لان في هذا شيء من اللاوعي

للذاتية الامسان الغربية. لقد وصفت التزارينا علاجه لأنها بالمعجزة، لكنه ليس بمعجزة إذا ما تقلبنا كلمات (فيتيس كويمبي) بل هي مجرد استهزاء لقانون الطبيعة. غير أن العائلة الملكية التي ولدت قدرة قد وجدت العلاج ولا ريب معجزة.

لقد تعددت طرائق وصف الحادثة الفعلية التي نجم عنها اللاكثراث المؤقت من جانب التزار حيسال راسبوتين اواخر عام ١٩١٥ ويقول بيرس أن: «اقل توضيح هجومى نستطيع اختياره... ما هو الأذى الذي لحقه بسعادة التزار؟». لقد أصيبت الحادثة في الواقع عصلة حسنة على شهرة راسبوتين فيها وصف تقرير الشرطة الحادثة بما يلي: -

في التاسع من آب من عام ١٩١٥ غادر راسبوتين بعد زيارته لدير في (تيومين) على متن سفينة بخارية تدعى (توفاربار) التي بدأت رحلتها في الساعة الحادية عشر صوب بوكروفسكو.

وقراءة الساعة الواحدة ترك راسبوتين مقصورته مخموراً وعقد صداقات مع بعض العساكر الموجودين على ظهر السفينة. واعطاهم خمس وعشرين روبية وامرهم بالغناء. ثم قفل عائداً لمقصوره وبعد ما عاد للغداء العساكر واعطاهم مائة روبية أخرى، فقتلوا جميعاً. ودعاهم لتناول العشاء في صالة الطعام من الدرجة الثانية لكن القبطان امرهم بالخروج. كما تشاجر مع بعض المسافرين واغلق على سيده طريق العودة لمقصورتها. ثم ظهر على ظهر السفينة وتشاجر مع رجل من تيومين ومع التاجر (ميشالوف) من تيومين. وتعمق بالبدني من

(١) عرض (كارل هيسان) الوثائق الأصلية القانونية المتعلقة بمقتل راسبوتين للسبع (لاينيك) (١٩٢٩).

الكلمات عن (بارناي) اسقف توبولسك. تنازع بعدها مع احد المضيفين مخاطباً اياه بالسارق الذئب ومتهماً اياه بسرقة ثلاثة آلاف روبية. ثم عاد لمقصوره ونظر من نافذته الى سطح السفينة. وهنا صرخ بعض المسافرين الناقمين: «قصوا لحيتته». . . احلقوا ذقته». وطلب منه احد المخبرين أن يقفل نافذته لتجنب اية حوادث أخرى. وعندما وصلت السفينة ميناء بوكروفسكو سحبه وهو في عمرة سكره اربعة نجارين واستقبلته بناته واخذته في كلية الى البيت.

هذه هي «الحادثة المريعة» التي لم يوافق على صحتها العديد من الكتاب. ولا نستطيع فهم السبب فراسبوتين منقت الطريقة التي عومل فيها الجنود كحيوانات ذليلة ويبدو مصدر الحادثة بأكملها استهجاناً للطريقة التي عامل فيها قبطان السفينة ومسافرو الدرجة الأولى وتعاليمهم على الرجال الذاتيين عن حياض روسيا.

لقد أحسن راسبوتين دفاعاً عن نفسه. اذ قال أنه ما كان مخموراً وأن المسافرين قد أهاجوا شيطانه بنظرتهم الاستعلائية لمن يدود عنهم وقال محاجباً أن القبطان قد خبر هويته وأنه اتخذ منه موقف المضاد لآرائه (راسبوتين) المناهضة للحرب، وهي آراء علمتها روسيا من قاصتها الى ذاتها (وقد اشرنا سابقاً ان غالبية روسيا ظنت براسبوتين والتزارينا جاسوسين للألمان).

طرقت الحادثة العيشية مسامع القيصر ودار القول حول اعدام راسبوتين بغير اية تهمة جلية. وثمة حادثة مشابهة أخرى وقعت داخل قارب نهري لا

(١) حرية لجرها الكلاب.



نعرف عنها شيئاً سوى أن راسبوتين كان مكرماً. وقد حاولت الشرطة ابتزازها  
بهاذين الحادثين أن يقوم بجولة طويلة الايام بين الأديرة لكن «التاريخ» غلبهم  
بمكره وانتمهم بتقديم الأدلة ضده لأننا فيروبووف تم رفض أن يتزحزح عن  
موقفه قيد أنملة.

ترك (احياء) راسبوتين لأننا فيروبووف أترأ لدى القصر لا يقل بمخالف ذرة  
عن ذاك الذي زرعه فيه شفاء ابنه على يد راسبوتين عام 1912. فهو قد تجاهل  
رغبته وشاطر زوجته وأبها أن راسبوتين يمتلك قوى غير طبيعية. وهكذا عاد في  
مخضون أشهر قلائل للمحظوة الملكية برغم أنه عارض الحرب جهاراً.

بعد اربعة ايام على حادثة أنا فيروبووف، مضى راسبوتين ماشياً على الثلوج  
الغاسية لكاميتو - اوستروفسكي حينها سمع صوت حوافر حصان يقترب منه  
فاستدار حذراً وقفز بعيداً. فقد اندفعت مزلة وضربه فتعثر، ثم سقطت  
المزلة وهرع رجال الشرطة الذين كانوا قريبين منه - كعادتهم - وسحبوا عدة  
رجال كانوا على المزلة. (ولم يحدد (بالبولوج) الذي روى الحادثة عدد الرجال  
الذين كانوا فيها). واعترف الرجال في التحقيق أنهم قدموا من الـ (تزارينين)  
وهي قلعة ايليدور. بيد أن أحداً لم يكشف ان كان عملهم تنفيذاً لأوامر  
الليودور أم أنهم أرادوا بسحق اراذتهم الإيقاع بالرجل الذي سب طرد وابعاد  
الليودور.

وهذه قضية نتوقع أن يأخذها المعينون آنذاك على محمل الجد. انها محاولة  
الاستيصال جلية ذات دليل ظرفي دامع له اعتباره واهمته. لكن أحداً لم يسمع أكثر  
مننا قلنا وقد نفترض ان الرجال قد أطلق سراحهم «لعدم كفاية الأدلة». وربما

تمت دزهانكوفسكي: \* المئى حظاً أحسن في المرة القادمة» واستأنف كتابة تقريره  
عن (سلوك راسبوتين المشين) على متن القارب النهري. فالمحاولة - في رأيه -  
مجرد عمل عشوائي حدث في بيتروجراد طالما أن راسبوتين مقرب التزارينا.

كانت التزارينا نفسها تستمتع بتجربة جديدة ألا وهي شعبيتها مع القوات  
المسلحة. لذلك قررت الشروع ببناء مستشفيات للجرحى - ربما استجابة  
لصيحة راسبوتين -.

واندفعت طوع هذا العمل الإنساني بكل ما اوتيت من طاقة عصبية.  
فاقتضحت مستشفيات في عموم روسيا بما فيها تزاريسكو سيلو وساعدت على  
تجهيز الكثير من المستشفيات في القطارات التي تحمل اسمها. ثم تدرت على  
العمل كممرضة تحت اشراف الاميرة (كوادريتش) واحصرت على تعليم أنا  
فيروبووف وابنتها مهنة التمريض ايضاً. كانت أنا تلميذة عبيدة وهذا قد يفسر  
العداء الذي تكنه لها الدكتور كوادريتش. بيد ان حداثتها اهتم ميكراً مشاويرها  
القصر في مهنة التمريض، فيما ملأت التزارينا وابنتها التزاريسكو سيلو بالجنود  
الجرحى واعتنين بهم يتوع من الاخلاص الماسوشيبي. وأما الأميرات فقد وجدن  
العمل بمشغله أفضل لمن حالاً من الفنون الذي اكتنهن من حياطة مفارش  
الشاي في القصر. كان مجتمع بيتروجراد ميالاً لشهد فعاليات ونشاطات التزارينا،  
وكتب مؤلف رواية «سقوط الروماتوفين» (وهو امرأة على الأغلب) كالتالي:  
«حتى وهي ملاكاً للرحمة فشلت في تلمص شعور الجندي بصفتها امبراطورة  
روسيا. لقد صلعه رؤيتها راكعة امامه تغسل قدميه او تقصد جراحه...»  
وربما ارادت أن تتجاوز الدور الذي تلعبه، بيد أن بعض مذكرات معاصريها  
ذكرت أن الجنود لم يكتفوا بهذا القدر من الاستيلاء كما زعمت السيدة المجهولة

الاسم . ويقال ان ضابطاً محتضراً تماسك باواده الإعجازية حتى تأليه التزيارنا وتبارك موته . لقد وهبها هذا السلوك هالة رومانطيقية في عيون الجند الذين لم يروا قبل هذا إلا صوراً لها وهي صبية جميلة وحزينة في سن العشرين وما ظنوا يوماً أنها ستغدو عقيلة عطوفة تعاني من عذاب اعصابها ومن مس الإضطهاد .

توفي وت في آذار وذهب القيصر لشفيتش الجسيمة بعد ان باركه راسبوتين الذي فكر أن يرافقه حيث ذهب لكن الغراندوق يقول قتل الفكرة في مهدها وصرح أنه لقاتل راسبوتين على سرأى الجميع لو ذهب هناك . وقد ذكر راسبوتين في دفتر يومياته أن رجلين ما زالا يقفان حجر عثرة في طريقه عليه الاطاحة بها ، وهما الغراندوق ورئيس الشرطة دزهانكوفسكي .

وسرعان ما وائته فرصة التخلص من الرجل الثاني . فبينما كان التزار في الجسيمة ، وقعت بضع حوادث صغيرة اخرى سارع في تمويلها اعداء راسبوتين لفضائح كبيرة . وفي الثامن من نيسان سافر راسبوتين لموسكو لزيارة قبور البطارقة . وكتب بيرس : « يبدو ان الصلاة لديه كانت عظيمة الشأن وربما أحس في صلواته حسنة . وعلى أية حال فقد زار احد اشهر اماكن التسلية مئة الصيت ويدعى ، يار . ٤٠ . وما حدث هناك لم يتأكد لأحد . اذ تزعم الشرطة في تقريرها أنه فتح ازرار ملبسه الداخليه وعرض اعضاءه التاملية على العامة . بيد ان بروس اوخاروت يقول في «مذكرات عميل انكليزي» أن راسبوتين دخل مهجعاً خاصاً ارتفعت منه بعض الأصوات المزعجة وأصوات نورة يتصايجن . فان كان راسبوتين خالماً نصف ملبسه ، فان قصده لم يكن الإستعراض غير المحتمل بل هو صيغة طبيعية للممارسة الجنسية . استدعى المدير الشرطة التي لم تشأ أن تقحم نفسها فيما لا طاقة لها عليه فانصلت هاتفياً بمديرها الذي اتصل هو الآخر

بدزهانكوفسكي في بيروجراد والذي امرهم باعتقال راسبوتين . وقد اقتيد لاحقاً ومثلمراً بيننا حاولت الشرطة تهدته في مركز الشرطة المحلي حتى يفرج الصباح . وورد في تقرير الشرطة أن راسبوتين لم يكن جالساً وملبسه الداخليه مفتوحة فحسب ، بل انه اعلن أن هذا هو سلوكه في حضرة العائلة الإمبراطورية أيضاً .

وفي شهر حزيران - ايان عودة نيقولا - تم استدعاء راسبوتين للمثول أمام القيصر الذي كان جد غاضب منه . حاول راسبوتين تهج سلوكه (المراثي) وقال صراحة انه رجل آثم وهو قبول لأشد وطأة - على حد اعتقاد بيرس - على الروسي من اي رجل انكليزي . لم تعلم التزيارنا بالحادثة . بيد ان دزهانكوفسكي تسامل في امكانية استغلال الحادثة لإسقاط راسبوتين . ولكن سبق السيف العذل فقد طرح راسبوتين شكواه امام التزيارنا ويبدو انها كانت شكوى حقيقية : لقد تباهى دزهانكوفسكي بالحكم في جنح صغيرة وفي الوقت عينه تغافل متعمداً مقاضاة الرجال الذين حاولوا اغتيال راسبوتين . عندئذ ابلغت التزيارنا زوجها بوجود طرد دزهانكوفسكي من منصبه وتم لها ما تريد . وتولى منصب رئيس الشرطة المشبوه (بيليتسكي) ، الذي طرده دزهانكوفسكي ، والذي لعب دوراً مهماً في حياة راسبوتين خلال العام التالي . ولم يعلم راسبوتين بذلك . بيد أنه كان آخر ما تبقى من حياته . . .

## الفصل العاشر

### راسبوتين.... يغدو تزارا

ان تأملا في مجرى التاريخ لتلك الحقبة من الزمن سيبحث فيما الإعتقاد أن الحرب جعلت من اندلاع ثورة امراً مقضياً، بيد ان دراسة متعمقة للدلائل القائمة سيظعن في ذلك الاعتقاد. ففي انكلترا كتب (روبرت بروك) سونيته هزل للحرب فيها ومطلعها: « ثناء لله اليوم الذي فاقنا في ساعة قيامته ». ويمضي واصفاً الصراع بحمام يطهر امرء من خطاياہ. وفي روسيا كان الشعور ذاته يخترق صفوف الشعب. وبإيديء ذي يده نفون لو نجح القيصر في بلوغ السلام خلال الأسابيع الأولى من الحرب سيما وقد حقق الروس تقدماً ساحقاً حرض المساويين على التفاوض لمائت بلور الثورة قبل نضجها. لقد دخل القيصر قلوب الشعب حتى الثوريون ينهم. فقد أسدى الإراهاي (فلاديمير بيرتسيف)، وهو مخبر ثوري امضى معظم وقته في تعرية عملاء الشرطة الروسية في الخارج، نصحاً للشوار بمساعدة القيصر لو احتاج لعونهم. بل قد حذاه انقاعه بالعودة الى روسيا حيث أخذوه معتقلاً (ثم صدر عفوه عنه). وظل (لينين) الوحيد الذي لم يكل له مساعد وطلب من الشوار انتهاز فرصة الحرب وقلب النظام. ولم يتبع خطأ سوى منظمات الحزب اليساري المتطرفة التي ساند معظمها بعدئذ المجهود

(١) السويته اصبحت تألف من ١٤ بيتاً.

أما وقد مر عام واحد، انقلب واقع الحال عاليه سافله. ترى كيف حصل ذلك؟ يقع وزر معظم المسؤولية على كاهل وزير الحرب (سوخومالينوف)، الذي أنهم لاحقا بالعمالة للألمان. لكن الحقيقة تكمن في غير هذا المكان. فقد اعتقد أن الحرب ستضع أوزارها عشية اعياد الميلاد عام ١٩١٤ وعليه لم يضع للسلاح والذخيرة حساباً. بل هو رفض عرضاً فرنسياً بشراء الأسلحة، زاعماً أنهم ليسوا في فاقة للسلاح. فكانت عاقبة ذلك أن أسك الروس بتلابيب النصر بالحرب فحسب مضحين بمجرى للدماء متدققة. ثم التقى رودزيانكو القيصر ونجح بطرد سوخومالينوف والرجعي الواجم ساكلاكوف (وزير الداخلية) من منصبها وكان ذلك في شهري أيسار وحزيران من عام ١٩١٥. وشغل منصب وزير الحرب الجنرال (بوليفانوف) - المقاتل المقتدر وحرر الأخلاق-.

ورودزيانكو، ربما أضله غروره وبهويله للأشياء، لكنه خبر من أين تؤكل الكتف. وبصفته زعيماً لحرب الأحرار، مضى حيث الخطى ليقتي على روسيا من عواقب الغموض البيروقراطي والغباء الرجعي ومشكلاً مجلس دفاع اعطوت مسهخته على تحويل المتاح من الصناعة الروسية الى صناعة السلاح. وعليه كان واضحاً في اجتماع الدوما في الأول من آب عام ١٩١٥ وجود جبهة موحدة وصفت الجميع لوزير الحرب عندما اعلن تعاونه الصميمي مع الدوما. قبل كما لو ان روسيا وجدت من يتقلدها برغم وجود التزار. غير أن يقولوا أسد المسمى ثانية بعد مجرد ستة أسابيع بقراره اخلاق الدوما حتى شهر تشرين الثاني. فاثار عليه غضب الأحرار وأضرب عمال بيتروجراد ليومين. وبورخ يرسم تلك

الساعة تأريخاً لاندحار الروحية الروسية. ترى ما الذي حدا بالقيصر أن يبتنى هذه الخطوة التعسفة؟ لقد سكته الخوف من انزلاق روسيا (للدستورية) برغم أن الدوما لم تشد أكثر من «وزارة ثقة» اي رئيس وزراء ومجلس وزراء يحظى بشقة الجميع. ولم يكن (كوريكين) الا أسوأ رجل لمنصب رئيس الوزراء لا لأنه دمية لم يتشلق بغير (نعم)، بل لأنه كان عاجزاً ساكراً دائماً ما تحدثت عن موته وتناسى مصير وطنه.

وخلف هذه المشاكل تسع التزارينا المهوسمة بتبعتها على سلطان زوجها، فظلت تمس في أذنه: «أثبت لغريك أنك الحاكم المطلق». لقد هزل جسدها من نشاطها في التمريض وازداد ضعف قلبها الذي فقد قوته منذ ولادة التزارفيتش حتى اضطرت لاستخدام كرسي متحرك. وتشير الرسائل التي كتبها في عام ١٩١٥ الى عمق حباها لزوجها وعائلتها يرافقه شدة مقتها للدوما وكثيراً ما تحدثت عن رعبتها في شق «رودزيانكو البشع» وجشكوف او بتدبير حادثة قطار لها.

وعليه، تتحمل التزارينا بشكل غير مباشر وعبر نصيحتها للقيصر مسؤولية اغلاق الدوما في اليلول. كما تأخذ على كاهلها وزر قرار آخر أوقع بالدوما ومجلس الوزراء في حالة من الصخب: انه قرار القيصر ان يصبح القائد العام للقوات المسلحة.

ثمة أسباب وراء هذه الخطوة الهوجاء. اولها كانت غيرة التزارينا من الشعبية التي فاز بها الغراندوق نيقولا. فقد كثر القول والقليل أن الغراندوق قد أعلن نفسه (نيقولا الثالث). ومهما يكن من أمر، فقد غلبت شعبية نيقولا

شعبية القيصر في الأشهر الأولى من الحرب.

وثاني الأسباب هو نفور راسبوتين من الغراندوق الذي كان له أول الأمر نصيراً ثم جعلته الأيام - شأن الكثيرين غيره - ألد أعدائه. وحين اقترح راسبوتين زيارة الجبهة وتحصيص ايقونة للجيش بعث له الغراندوق برقية جاء فيها: «تعال ولسوف اشتقك فور وصولك». بيد أن ثالث الأسباب يحتمل من الأهمية مكاناً. فهو ينطوي على نزعة نيقولا الانهزامية. لقد تميزت بيروجراد بحاجتها الدائمة للعين الباصرة حتى لأتفه مشاكلها. أما في الجبهة فقد جعل الأمر بالبساطة وفيها فراح الجنود يعلو معنوياتهم غير أبيين جزائهم شديدة الوطأة. ويزغت من خصالهم شجاعتهم وسجلوا نذرة الأعمال في وقعها شهد لهم بها بيرس وغيره. لقد كان نيقولا رجلاً عسكرياً عاشقاً للهواء الطلق. بيد أن وجوده في الجبهة لم يكن حتماً فالغراندوق نيقولا قد أحسن قيادة. من جهة أخرى كانت بيروجراد في أمس الحاجة لوجود التزار لمعالجة مشاكل توزيع الغذاء ومشاكل النقل. غير أنه غادرها، مهتماً بعيقته في المساء الأمور، صوب الجبهة بعد أن طرد الغراندوق وتاركاً زوجته وراسبوتين لتولي مسؤولية حكم روسيا بأكملها. احتج مجلس الوزراء على هذه الخطوة فاقال اعضاء تنفيذاً لأوامر زوجته. وقد عبرت الدوما عن ارتياها من هذا القرار فأغلقها ليغدو راسبوتين - في واقع الحال - تزارا الآن . . .

لم يكن نفوذ راسبوتين سبباً برغم حدة العنف الموجه اليه. فقد أدرك - شأنه في ذلك شأن رودزيانكو - أهمية الكك الحديدية ونجح في اقناع التزار بتأجيل رحلات نقل المسافرين لثلاثة ايام ليستنى لتجهيزات الطعام والذخيرة الحربية الوصول لاماكنها المقررة. وتم له ما أراد لا لثلاثة ايام بل لأسبوع: بيد

أن الفوضى واللاكفاءة كانتا عميقتي الجنذور ولم تصل معظم التجهيزات وجهتها.

في تلك الأثناء - وتحديداً في الشهور الأخيرة من عام ١٩١٥ - عاود نحس الطالع (اليكسر هفوستوف) الظهور على مسرح الأحداث. وحري بنا الاستدكار هنا ان راسبوتين كان قد التقى هفوستوف قبل اربع سنوات ووجدته (يفتقر الى شيء ما). فعندما مذ حينها عضواً في الدوما ونجح ان يكون المتعلق الدليل لراسبوتين بينا تظاهر بمساندة رودزيانكو.

ولد هفوستوف متأماً ساكراً وقرر اليوم أن الساعة قد حانت حتى يكشر عن أنيابه ويمسك بتلابيب الأمور في روسيا. وقد حملت غايته خطة جسور تقضي أن يتسلق سلم السلطة على أكتاف راسبوتين ثم يجهز على من أوصله لهاية بسلطه

لقد آثر ان يتم له الجزء الأخير من الخطة بمساعدة الشرطة. فاختار لهذا الهدف (بيليتسكي) عوناً له، والذي سبق ان طرده دزهانكوفسكي لكنه عاد ثانية بعد سقوط دزهانكوفسكي. شرع الاثنان ينجان مخططها الذي انطوى أولاً على اقناع راسبوتين استعمال نفوذه وتعيين هفوستوف وزيراً للداخلية على أن يتظاهر كلاهما أمام الملأ أن لا حيل وصل بينه وبينها. ولانها بحاجة لمن يوصلها الى البلاط القيصري فقد ارتأيا استغلال خدمات المتأمر اللواطى الأمير (اندرونيكوف). وإذا ما طرقت انباء المؤامرة مسامع الدوما يقول هفوستوف أنه انها يصسو لاسقاط راسبوتين - وهي النية المبيتة - وأنه يحاول الدخول لمعسكر الأعداء. فبان بلغوا عنبة السلطة أذلوا الصعاب ولن تمنعها عن تنفيذ مآربها

عقبة. فالكثير الكثير من الاموال مرمية في البلاط تنتظر من يجمعها. وقد نجح قبلهما وزير الحرب السابق (سوخومالينو) في تحويل بعضها لجيبه الخاص لكنه كان اخرقا فالدوما كانت تقترح في نفس ذلك الوقت تقديمه للمحاكمة والقضاء. (بيد ان تدخل راسبوتين الذي ضمته زوجة سوخومالينوف الجذابة يسعر يمكن ان نلدهه- انقلده من المحاكمة). وسرت ارجوقة ان شخصاً أهوماً حصل على ما يعادل ثلاثة ملايين جنيهاً من الحكومة لتجارب اجراها على قاذفة لمب والتي تملكت عنها الحكومة بعد ان احترقت عدة رجال حتى الموت. تأمل هفوستوف الوضع بعد ان اصحت الحكومة في يدي التزارينا فلم يتمالك نفسه. فحط من شأن راسبوتين كما فعل مثله الكثيرون.

غير أن الأمور سارت- باديء الأمر- أحسن مما كان يتوقع. فقد أدخل اندرينوكوف هفوستوف للبلاط دون اذى صعوبة واهلنت التزارينا انها «توق لرؤيته». وترك كلامها اثرا كبيرا في نفس الآخر. وقالت لزوجها في احدي رسائنها: «انه يشبه صديقنا غريغوري» وكلمة (هفستر) تعني في الروسية (ذيل) وبدأت التزارينا تنادي ميكافيلي هفوستوف بـ «ذيلي الزئيمة». وسرعان ما اشغل هفوستوف منصب وزير الداخلية-والذي يعني ايضا منصب رئيس الشرطة- وتولى بيلينسكي منصب المساعد، ويات كلامهما وعمل مدى الاشهر الخمسة التالية الحاكم الفعلي لروسيا. لقد برهن هفوستوف ملامته للمنصب ان تلاعب بالانتخابات لصالح الدوما حين اشترى سراً عدداً من الصحف «لتوجيه الرأي العام». ويستحق هفوستوف في مستقبل تاريخ الديكتاتورية ان يكون سلفاً ل هتلر وموسوليني في مجال الدعاية. (انه السلف الحق فقد أعدمه البلاشفة ومعه بيلينسكي بعد قيام الثورة). ومفروض أنه اخلس الكثير من اموال الدولة كما

أظهر ذلك التحقيق المتأخر عن مصير الملايين التي منحتها اياه الحكومة لأجل التلاعب بانتخابات الدوما.

بيد أن غاية كلا التأميرين لم تكن السطو على خزانة الدولة فحسب. فقد كان بيلينسكي نافذ البصيرة أدرك ان الميل المتزايد للبلشفية او الشيوعية أكثر ما يعزى سببه الى نقص الغذاء وارتفاع الأسعار لا الايمان بالأفكار الاشتراكية. لذلك نظم اسواقاً لبيع المواد الغذائية بأسعار دعمتها الدولة الأمر الذي أجل اندلاع الثورة عامماً تقريباً. ونجح في عمل رائع أسكن فيه الاف المهاجرين الذين قدموا روسيا من المناطق المتضررة بالحرب. من جهة اخرى، خصص فرعا من مكاتب البريد لاستلام الرسائل التي تحمل ملاحظات ضد الحكومة وأمر الصحف وأرشاها لكتابة مقالات عن شجاعة التزار في الجبهة وعن قناعة التزارينا كمرضة.

عكر راسبوتين صفو بيلينسكي بميله للتفاخر وهو غمور: فقد زود أعداءه بالذخيرة فضاعف بيلينسكي حراسه من الشرطة وأبقى عيناً مهددة على الصحف التحررية. وقد اضطر مرة الى تقديم مبلغ كبير من المال مقابل شراء رسالة نفتقر لفرن الرسالة سرقت من شقة راسبوتين ووضعت بين يدي صحيفة بارية.

سد المناصب الرسمية آنذاك رجال لم يكونوا بأهلها وقد بلشوها لا بجدارتهم وانما بصدقاتهم لهفوستوف أو بشرائهم رضاه. ومن كان آنذاك صديقاً لهفوستوف كان صديقاً لراسبوتين الذي لم ينتر على غايته أن يزوع «رجلا نابعا له» في كل منصب مهم في الحكومة.

ان من الصعب استيعاب الذي حدث لراسبوتين اواخر عام ١٩١٥ . فهو لم يكتسب مال أو سلطة لأجل المال أو السلطة . ومع هذا ، سيتجلى عسيراً الآن الا تعتقد أن شخصية راسبوتين ، وهو في أوج نشاطاته ، قد عانت من تراجع ملحوظ آخر . فهل لين الحزب ومناقرة الخمر عقله؟ أم أنها حالة الحرب قد جعلته عاجزاً أن يكظم غيظه؟ لقد أخطأ أعداؤه في ظنهم به شيطاناً في جسد انسان وكل الأمر أنه من نمط غير نمطهم . والآن قد وجد حتى أعداؤه صعوبة أن يتجاهلوا أن راسبوتين قد تحظى حدوده . وتحول رجال السياسة الروس الى شيء أشبه بقصر مدينة شيكاغو في عشرينات هذا القرن حيث الزحف الفاسد صوب السلطة وسيتحمل راسبوتين كامل اللوم لمساندة هفوستوف . وطبقاً لقول سيانوفيش ، استقبل راسبوتين كل يوم الكثيرين ثريات النساء اللاتي رغبين باعفاء ابناءهن من الخدمة العسكرية ، او اصحاب بنوك لاحت لهم فرصة خداع الحكومة بخصوص الذخائر الحربية . من جانب آخر ، عين اندرونيكوف نفسه عميلاً سياسياً وضابطاً للعلاقات العامة لراسبوتين ، بيد ان السمعة الغريبة في هذا الاتفاق هو ان العميل يتقاضى نسبة ٩٠٪ مما يجنيه راسبوتين . اما بيليشكي فقد كان مشغولاً في سعاء الإيقاع باندرونيكوف بغادته معلومات تتعلق بانترفااته الجنسية مع آنا فيروبوف . غير أن لعبة كهذه تتوخى الخلد في لعبها ، فاندرونيكوف قد خبر من الأسرار ما لن يجعله لقمة سائغة . وروبدأ ورويداء خرجت مواطيء قدم اندرونيكوف بعيداً عن اسوار البلاط وتولى حماية راسبوتين «حام» آخر هو شرطي فاجر يدعى العقيد (كوميساروف) الذي انطلت مهمته على مراقبة راسبوتين أتى ذهب وأن يبقى عيناً باصرة على كل من سولته نفسه اغتياله . في تلكم الأثناء ، رسخ هفوستوف وبيليشكي فكرة أن راسبوتين الغول الذي يقف وراء السياسة الروس ، وصور رسم كاريكاتورى راسبوتين - القاحش

المخيف - ومعها الفيسر وزوجته راكناً على ركبتيه وهما دعتين بيته أشخاصاً<sup>(١)</sup> وربنا ذهل بعض (الليبراليين) (الذين كرهوا راسبوتين) لمبدأ أن هفوستوف وبيليشكي قد ظنا براسبوتين ناقص العقل وأنها اختار له (كوميساروف) كمرضة تقيه في صحو من التعب .

قرر هفوستوف أن الوقت قد حان ليلعب راسبوتين في «رحلة طويلة» قبل أن تتفاقم لاشعبته ، فزوده بعربة وبعض اقفاص الماديرا وحفنة من المال لمصاريفه الشخصية . بيد ان راسبوتين شعر بالدعة والراحة في بيتروجراد فرفض بكياسة أن يتزحزح عنها ومقيداً نفسه بتهديدات الاجراءات القانونية لحادثة الزورق النهري . بينما بدأ هفوستوف يجمر في نفسه الضغينة ضد من أوصله عتبة السلطان .

طفقت علاقة غريبة بين راسبوتين و (كوميساروف) الذي تلمس شأن الآخرين غيره أن «الشيطان المقدس» شيئاً عزيزاً في براءته . لقد كان راسبوتين طفلاً في تركيبته وهو طفل مخرج صعب المراس . وفي احدى المرات أمسك به كوميساروف وابلغه لقاتل اياه اذا ما ظل يحبط من قدره . وهو اذا ما استهل خطبه لمن يطرق بابيه من المتوسلين بابداء المشاعر الدينية قاطعه كوميساروف بحدة قائلاً : «ها يا كريكوري ، دع الدين جانباً» .

كان الجزء الأصعب في مهمة كوميساروف هو أن يجنب راسبوتين الاتقال في الشرب وأن يستمتع من اغتصاب المتوسلات اللاتي رغبين راغبات (أغلبهن)

(١) يمكن أن يعني هذا التعبير أن راسبوتين (محرك دمي) .



أن يمنحته أجسادهن. غير أن سواهن اللاتي أتته لشهرته في الشفاء ولأنه رجل  
مبروك رفضن راسبوتين في فكرته «اختيار ارواحهن» وهؤلاء النسوة قد ألحقن  
أشد الأذى بسبعة راسبوتين ينشرهن فضائحه فيها بل لك كوميساروف ما وسع  
ليحاول دون وصول هذه الأمور لهذه المرحلة الخطيرة. وفي مرة أخرى حاول  
راسبوتين دخول غرفة إحدى النساء عنوة فهربت المرأة بمعونة كوميساروف  
حينها قال راسبوتين حاتفا: «لقد خدعتني».

لكن شرابة الأمر هنا أن أغلب معجبيه ظلوا برغم ما سمعوا مؤمنين أن  
الذي سمعوه ليس الا هراء واقتراء وكان ما فعله الأعداء نفعاً في رساد وصباحاً  
في واد. ودليلنا لذلك السيدة (كولوفن وابتهها)، (اللتان جئن بيوسيوف  
لراسبوتين)، ما برحن يعتقدنه رجلا مقدسا. وريبا أصابتنا في ذلك الاعتقاد،  
وحادثة منتصف شهر كانون الأول سترهن ان قواه العجيبة لم تتغير طرفة عين:  
ففي الخامس عشر من ذلك الشهر بدأ القيصر زيارة للجبهة الجنوبية يصحبه  
(اليكسي) البالغ من العمر آنذاك اثني عشر عاماً. كان الصبي واقفاً واثقه لاصفاً  
بالتألفه عندما توقفت العجلة على حين غرة وانضرب انفه بالتألفه التي سببت له  
رعافاً شديداً وكما العادة ظل نازفاً ففقلاً عائدين من فورهم للتراريسكو سيلو  
وأرسلوا برقية عاجلي لراسبوتين الذي لم يشعر حينها بميل للترار وقرر عدم  
الذهاب قبل اربع وعشرين ساعة، تأزمت فيها حالة الطفل كثيراً وسكنت  
جسده الغض الحصى. وحالما ظهر راسبوتين توقف الترف وقد علل لمفوستوف  
سبب تأخره برغبته أن يتروغ القيصر في طمته ليوم كامل. وهذا دليل أنه يدرك  
أنه يستطيع معالجة الصبي حال رؤيته والا فمن محاولة كهذه دون الوثوق  
بتأثيرها لجد باهض. وهنا عاودت التزارينا تأكيدها أن راسبوتين (تابع الله)

طلما أن قوته الشافية هبة الله اليه. وريبا ذلك اليوم تبا راسبوتين أن العصي  
سبعتيد أحسن عافيته بعد عيد ميلاده الثالث عشر وقد ثبتت صحة نبوءته.

وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ١٩١٦- يوم اسم راسبوتين  
استلأت حرفة بالشمع والتفيس من الهدايا. . . أثاث، سجاد، تحف فضية للزينة  
ارسلت جميعها ليوكروفسكو على الفور. وحضرت الغداء آنا فيروفوف حاملة  
معها تحميات وشميات العائلة الملكية. وبحضورها أحسن راسبوتين التصرف،  
وريبا استذكر اعانته لها قبل اسابيع قليلة باحتسائه الكثير من الخمر ومرجه  
ومرجه على طاولتها. وحالما عادت منزله ظهر الموسيقون العجر وشرع الجميع  
بالرقص والشرب. وذكر ييليسكي أن راسبوتين يضع نساء افرطوا شرباً  
ووقعوا أرضاً. لكن القول يحمل مبالغة بين ثناياه الهدمها اسلوب مرد الحكايات  
عن الخليستية. وعلى اية حال امضت اثنتان من النسوة الليلة مع راسبوتين وتلك  
هي المرة التي وقف فيها الزوجان الهالجان على باب راسبوتين الأمامي بينما  
هربت زوجتاها من الباب الخلفي.

من جهة اخرى، استمرت المكائد تحاك وازدادت تعقيدا وبات العجز  
(كورميكين) المهدف القادم لمفوستوف الذي ظل يغذي احلامه ان يصبح رئيساً  
للسوزراء. وقد اعانته رودزيانكو غير واع بهجومه على اللاكفاءة التي ميزت  
العجزو كورميكين. بيد أن تعيين مفوستوف رئيساً للسوزراء لم يكن ليروق  
راسبوتين بتاتاً، فهو شديد المكر لم ينال منه اعجاباً وعليه أشار راسبوتين على  
التزارينا أن مفوستوف وان اتسم بالذكاء واستحق من الآخرين ثقتهم يبقى أحد  
أعضاء الدوما السابقين وأذا فهو لا يستحق الثقة. ولكن من ذا الذي سيملا هذا  
المنصب الأهم بين المناصب؟ وقعت العيون على (بوفيلاتفوف)- وزير الحرب

الجديد - لكن دفة الحرب تحتاج مراسها. ثم يقع اللوم على القيصر. فلو نحل  
 ببعض الشجاعة لما توالت في اختيار رومزينكو لسد هذا المنصب ولنجح عندئذ  
 بنوحيد البلاد باختلاف أوجانها وفصلاتها خلف العرش ما خلا الرجعيين  
 منهم. لكن التزارينا ما كانت لترضى بهذا الإختيار لسبب بسيط هو ان  
 رومزينكو كان أشد من هجاء لسان راسبوتين. وعليه مضى القيصر متأرجحاً  
 في سياسة انتحاره البطيء، بانتخابه أقل رجالات روسيا من يليق بهم منصب  
 رئيس الوزراء. . . القاصر في ادائه. . . المناق في سلوكه. . . الجنان  
 في خطاه. . . المتزلزل لراسبوتين. لقد حام ستورمر حول راسبوتين مذ بزغ نجمه  
 في روسيا متوقفاً أن بعض فتانات السلطة ستسقط من المائدة الكبيرة. وحدث ما  
 تأمل. ففي الثاني من شباط من عام ١٩١٦ تم فصل كومينكن دون سابق انذار  
 وعين بدلاً عنه ستورمر وسط ذهول وريبة الدوما ومجلس الوزراء. وبينما  
 استشاط هفوستوف غضباً ولعن حظه العائر تظاهر راسبوتين أن القرار من صنع  
 القيصر وحده. وأما الشعب فقد وجد في القرار خيانة جديدة فأغلبهم قد خال  
 ستورمر المانياً - كما يوحي عليه اسمه -.

ومؤكد أن راسبوتين أدرك أن غمامات العاصفة أخذت تتراكم. فالخرب  
 تسير من السوء الى الأسوأ. وها هي بلغاريا دخلت الصراع الى جانب المانيا  
 وأخرجت الروس من صربيا، وتلك بولندا قد ضاعت بين ايديهم وطغى على  
 العامة شعور الهزيمة. وفي بيتروجراد سأم المجتمع الواقي الحرب واصطنع لنفسه  
 حالة اللاحزب فاستمرت حفلات الشبان والفت الشغراء الأبيترامات الساخرة  
 عن الحكومة ومعها راسبوتين.

(١) الأيترام: قصيدة قصيرة مختمة بفكرة ساخرة.

أفترع المشهد الروسي الجديد الأمير (يوسوف) الذي فر من المانيا مع بداية  
 الحرب. واقترض -حماطنا- أن راسبوتين لا سواء المسؤول عن قرار القيصر أن  
 يوئي نفسه القائد العام للقوات المسلحة حتى يتاح له ومعه التزارينا الامساك  
 بتلابيب السلطة في الدولة. واعتقد كذلك أن الإندخارات الروسية المتتالية تعزى  
 في بعضها لتجسس راسبوتين لصالح الألمان وبدأ يداعب فكرة اغتيال  
 راسبوتين.

بيد ان يوسبوف لم يكن بالوحيد الذي جنال في رأسه هذا الأمر. فعلى  
 الجانب الآخر يقف هفوستوف الذي أثبت في نفسه ذات القرار لأسباب - يقول  
 عنها بيرس - لم تحتل في المصادقية مكان اسباب يوسوف. لقد لطمح راسبوتين  
 شيء صيته حتى تخشى أقرب من حباياه أن يقرؤا بعونهم له ولعب أغلبيهم دوراً  
 أحسنوا نسجه، وتظاهروا بعدم معرفتهم اياه. وخير مثال لنا في (بيتريم) مطران  
 بيتروجراد، الذي بلغ المنصب بقوة راسبوتين. فهو قد أطلق على راسبوتين  
 «الرجل الخفي». لقد راق هفوستوف هذا الرياء وعندما أخبره أحد أهوانه أن  
 بيتريم التقى راسبوتين في اجتماع، أثار عليها في حاله وسط دعة راسبوتين  
 وخرج بيتريم.

أدرك هفوستوف حاجته أن يخفي راسبوتين عن المسرح السياسي مرة وإلى  
 الأبد. وأخذت محاولة الإغتيال شكل المهزلة. فقد حاول هفوستوف استخدام  
 السم وطلب من (كوميساروف) شراءه الذي ادعى أنه يعرف الشخص المنشود  
 في ساراتوف، وذهب لشراء السم منه. مرت بضعة اسابيع وصل بعدها

كومييساروف بيتروجراد وذهب لمقابلة هفوستوف حاملاً معه كمية كبيرة من المساحيق البيضاء مصنفة على أنها حمض وصلباناً من العظام. أمضى الاثنان قرابة نصف ساعة تحدث فيها كومييساروف عن مفعول هذا السم زاعماً أنه أجراه على قطة نائمة وماتت في حالها. ان ما لم يذكره أن هذه «السموم» كانت عبارة عن ادوية منزلية لا ضير فيها ثم اضيفت اليها بعض المساحيق المشار اليها في كتاب رخيص عن السموم. وما هو مؤكد ان احدى الفئاني احتوت سمها حقيقياً سكب كومييساروف بعضها منه في حليب قطة راسبوتين أثناء احدى زيارته له فتلوت القطة ثم ماتت. ولسبب ما، ادعى راسبوتين أن اندرونيكوف سمم قطته واضعاً بذلك نهاية لعلاقتها المتأزمة.

وجد بييليتسكي الأمر مهزلة برمته. يضاف لذلك أنه ضاق ذرعاً بهفستوف وأدرك في خطة الاختيال فرصة للتخلص منه. فشرع بعد العدة لمؤامرة مضادة. فيما جالت في رأس هفوستوف فكرة تالية يستعين فيها بالراهب ايليدور- الموجود حينها في الترويج- في قتل راسبوتين. وفيها سيدفع هفوستوف المال وعلى ايليدور الرجال. تبادل الاثنان الرسائل ثم بعث هفوستوف بأحد رجاله لالتقاء ايليدور واعطائه المال الذي أراد. لكن الرسول واسمه (رزهنسكي) كان احمقاً متبجحاً لا يحفظ سراً وقد افترض مخطئاً أنه يحظى بدعم (رسمي) من الشرطة ما دامه مبعوث هفوستوف. لذا تحدث لسطات الحدود الفنلندية في تفاصيل غامضة عن مهمته. أرسلت السلطات الفنلندية بريقة الى بييليتسكي وابلغته شكوكها فامرهم باعقاله واعادته لروسيا. وعلى اية حال، ارادت الشرطة الروسية اعتقاله لاسباب أخرى. وقد أخبر بييليتسكي هفوستوف أن عميله كان احمقاً وسيفسد عليهم أمرهم اذا ما اسكتوه حالاً.

لم يعد هفوستوف يتق بييليتسكي منذ ان اقترح عليه التخلي عن محاولة اغتيال راسبوتين وكتابة تقرير بدلا عنها يتعلق بجنح راسبوتين المختلفة مدعومة بشهادة كومييساروف التي تتضمن سرداً مفصلاً لكل عرييدات راسبوتين وموثقة ببعض الصور (حسب قول يوسوبوف) لراسبوتين ممارساً العملية الجنسية. لقد ظن هفوستوف في التقرير مسيلاً لسحق حظوة راسبوتين لدى التزار سيما وأنه اختلف عن سابقاته التي استندت على الهراء والترهات. بيد أن أكثر اهتمام هفوستوف قد انصب اليوم على التخلص من بييليتسكي أكثر من راسبوتين لدرجة أنه نسي أمر التقرير في لقاء له مع القيصر وكل ما أراد خلاله طرد بييليتسكي: وفيما بعد أخبر هفوستوف بييليتسكي أن القيصر قد وافق على التقرير لكن بييليتسكي تطلع الى حقيقة هفوستوف ووجد ان التقرير ما يزال فيها.

أفضى خداع أحد الطرفين للآخر الى أن ذهب كلاهما لـ (أنا فيروبوف) وعرضاً أمامها القضية. وقد هالها ما سمعت فحثت خطأها صوب التزارينا لتخبرها بمحاولات تدعيم «صديقها» الحبيب. فتم استجواب هفوستوف وبييليتسكي ولم يأنو كلاهما جهداً لتبرئة ساحته بالظعن في الآخر فتداعيا معاً. ودبها حظي بييليتسكي ببعض النصر حيث نصبه القيصر محافظاً لسبيريا. لكن صحيفة بيتروجرادية نشرت مقابلة مع بييليتسكي فضح فيها محاولات الإغتيال وأخرجها الى الملأ وقد كان مالك الصحيفة ساذجاً لدرجة قوله أن مقابلة مع معاون رئيس الشرطة (لن تنسوها شائبة). لكن التزار احتدم غضباً لهذا التحدي العام لقراوه منع نشر مقالات عن راسبوتين. فالغنى تعيين بييليتسكي وطرد هفوستوف من منصبه والذي انبط به رئيس الوزراء ستورمر، حامي راسبوتين.

ان من الصعب علينا ونحن نتمتعن في خيوط نسيج هذه المكائد أن

تجاهل حقيقة كيف أغشى راسبوتين بصره عن رؤية ما كتب على لوح القدر. ومع هذا، لم تكن الأحداث - كما رأها - جدي سينة كما نراها. فلما يزل يحدد لأشباع أو أنه أبقى على أتباعه الذين آمنوا به حد العظم. وأشدهم في هذا الأمر التزارينا التي بلغ بها إيمانها به أن تصورته (المسيح) متجسداً وكتبت لزوجها قائلة أنه عيادها ساعة الكارثة.

لقد تضاعفت قوة ونفوذ راسبوتين. وسواء أكان مصيباً أم مخطئاً فقد اعتمد على أحلامه في إصدار الأوامر للمقصر بخصوص العمليات العسكرية. وفي مرة ما منع هجومياً على الجبهة الشمالية متنبهاً بالكارثة. ونصح التزار بتحميط شعره بمشط راسبوتين قبل أن يتخذ أي قرار حاسم. وهو قد أصدر أوامره إلى ستورمر وعامله بازدياه منفضوح وهدهذ ذات مرة قائلاً: «كانت الثالثة الاثاني... يا ستورمر... ان لم تفعل ما تشاء منك (ماما)». وظل راسبوتين مشجعاً التزارينا في محاولتها العقيمة الإبقاء على روسيا ملكية مطلقة والتي تعني في الفعل أن أيًا من لا تكفل له مساعد أو تكحل بالنزاهة سيرمي به بعيداً عن دائرة الضوء. فكان بوليفانوف - الذي أحسن اشغالاً لمنصب وزير الحرب - هدفها التالي. وما زالت التزارينا بزوجها حتى أطاعها برغبتها وعزل بوليفانوف من منصبه. وكتبت له قائلة: «علينا بالقوة لأجل مستقبل الصبي»، طانة أن هذا التدخل سيحفظ للابن عرش روسيا. ان الجريمة التي اقترفتها بوليفانوف هي أنه سخر لأغراض عسكرية ثلاث سيارات رسمية قدمها ستورمر هدية لراسبوتين. ونحن اذا تأملنا الأحداث في مجراها لتبين أن جميع محاولات الإغتيال قد أخطأت الوجهة، فلربما انقلد يوسيف العرش لو أطلق الرصاص على التزارينا بدلا من راسبوتين.

في حزيران، بدأ الورد (كيشنر) رحلة سرية الى روسيا كان الغرض منها دراسة الحاجة الروسية الى السلاح. وقد تعرضت السفينة (اج. ام. اس. هامبشاير) الى طورييد مجهول المصدر أفرقها قبالة جزر (اوركاني) ولا يزال سر هذا الإغراق مجهولا حتى الآن. بيد أن مصدراً آخرأ كان سيقدم العون لروسيا قد توقف. فالتزارينا - كعادتها - لم تدرك ذنو الكارثة وشاطرت راسبوتين رأيه أن كيشنر ربما ألحق أذى بروسيا. ويبدو أن راسبوتين قد بلغ هذه النتيجة عبر أحلامه التنبؤية، اولا يبدو الأمر عبر التصديق أن بريطانيا ستصيب روسيا بأذى لو زودتها بالسلاح!!!

كانت قضية وزير الحرب المشين (سوخومالينوف) الشغل الشاغل لراسبوتين والذي وجد نفسه أعجز من أن تقاوم توسلات زوجته الفاتنة. وقد كان وزير العدل، هفوستوف الأكبر، (الذي لا يجب خلطه مع ابن اخيه الحفيظ) في صدارة من أرادوا اعدام سوخومالينوف، غير أن راسبوتين أجاد اللعبة ونقل هفوستوف من منصبه الى منصب وزير الداخلية.

كان روهزيانكو الرجل الوحيد الذي رقب عن كتب وفقه أين ستفهي بهم هذه الدسائس والمكائد. وفي دعوة وجهت له لحضور حفل عشاء لمجاس الوزراء، انتهز الفرصة وأمطروهم بكلمات كانت أشد في حدمها من خناجر غاطباً إياهم أنهم قد أهدروا الوقت منغمسين في مصابحات تافهة فنسوا حاجيات الشعب وأغضضوا بصرأ عن البلاد وهي تنهارى ركتاً بعد آخر. لقد جبن الجميع من الحديث خوفاً وكان له في نفوسهم وقعاً بيد أن أحداً لم يحرك ساكناً.

ارتكب راسبوتين خطأ صغيراً في الجزء الأخير من مسرحية التأمير. فهو

قد أراد من تعيين العم هفوستوف وزيراً للداخلية ان يكون به بعيداً عن قضية سوخومالينوف. لكن العم كان رجلاً نزيهاً لذا بادى باستغلال نفوذه الحالي ضد راسبوتين. فاناط مهمة حماية راسبوتين بالمستز (مانيلوف) الذي كان صديق راسبوتين لسنتين عديدة (وما فكرة تعيين مستورسر رئيساً للوزراء الا من بنات افكار مانيلوف، الذي استغل موقعه الخطير في جمع المال بأتى وسيلة والتي افترقت في جنتها الى الصبغة الشرعية). لذا قرر العم هفوستوف الايقاع به في شباكه وحاك مؤامرة فيها ارقاماً بمبالغ ستعطي له كرشوة. اكل مانيلوف الطعام واخذ الرشوة فالقي القبض عليه في الحال. لكن هذا الخليج الفاسق لم يبتز له جفن و اشار بلطف ان محاكمته ان تتعدى فضح كل اسرار راسبوتين. وصلت الأنباء التزارينا فوراً وتسارعت البرقيات وانتهى الأمر بخلع العم هفوستوف ثانية من منصبه. واعيد مانيلوف بهدوء تام لراسبوتين واستمر في نذالاته ونجا وراته. (كان عليه أن يمضي بعض الوقت في السجن بطلب من خليفة العم هفوستوف في منصبه.

عاد منصب وزير الداخلية شاغراً مرة اخرى. وأطال راسبوتين التفكير بمن سيختار اليه، حتى استقر آخر المطاف على امعة أخرى هو (بروتوبوبوف)- الرجل الغريب الطبع القصير القامة- الذي لا يملك من المؤهلات أقلها وكل ما فيه أنه سيكون أداة طيعة لتنفيذ اوامر راسبوتين. وكتبت التزارينا لزوجها رسالة تقترح فيها تعيين بروتوبوبوف للمنتصب وقالت له «لقد احب صديقنا لاربع سنوات على الأقل». وعين الامعة وزيراً للداخلية في العاشر من ايلول عام ١٩١٦ بعد طول تردد من القيصر وظل في منصبه حتى قيام الثورة. ان في هذا الاحتياط شيئاً من السخرية للتزارينا ولروسيا. فعن اللاعقول أن يغتس

المرء اصمق من الفصاع أو أن يختار بمن حوله الاشد فيهم سخافة. فبعد بروتوبوبوف، لن يبقى في الأمر غير التذلي . . . اي شيء ما عدا الثورة.

## الفصل الحادي عشر

### النهاية

عمت مشاعر السخط روسيا وفي الجبهة تحدث الجنود جهاراً عن الثورة، بالرغم من تحسن حالة الاحتلة الحربية بفضل الجهد الكبير الذي بذلته (لجنة الدفاع) التي سامت (الدوما) بإنشائها مساهمة فعالة، بيد أن الشعور العام بلاكفاءة الرجال المسكين بزمام السلطة كان ينخر في جسد الجيش. ويورد رودزبانكو في رسالة له مثلاً نموذجياً يصف الوضع العام:

أشعر ابننا في سرد تجاربه. لقد تمخضت اللاكفاءة وانعدام التعاون بين صفوف القيادة العليا عن مجزرة لتنظيفنا المشهومة. وتأكد لرجائنا ضباطاً ومراتب أن النصر غداً مستحيلاً برغم بطولة حماة الأرض. لقد عصى الخراندوق (بولد) أمراً بمحاصرة نقطة محددة له يمانورة من الجناح وأرسل قطعائه للقيام بهجوم متقدم على مرتفعات (راي-ميتو)، فوجد الجنود خالهم في مستنقع أهلك أغلبهم وبتنا هم يتخبطون في أحواله تصفتهم الطائرات الألمانية... وغطس ابني حتى ابطنه وكانت معجزة أنهم أنقذوه... لم يكن ثمة سبيل لإخراج الجرحى من المستنقع ففرقوا فيه. لقد كانت نيران مدفيعتنا جد ضعيفة فشلت في تحطيم الأسلحة الشائكة، وبهاوت القذائف على جنودنا أنفسهم. وسحب الجنرال (رووش) كشائبه بدلاً من اطاعة الأوامر ونجح الحياة

في مهمتهم برغم واقع الحال هذا وبلغوا المرتفعات وشبح الخوف عليهم (ثم صدرت اليهم الأوامر بالتخلي عنها فيما بعد). وليس غريباً أن يختتم ابن رودزيانكو قوله: «لقد نخر الفساد اجساد القيادة العليا وعقولها...» . اننا لن ندخر حالاً حتى نموت من أجل روسيا لا من أجل نزعات الجنرالات وأهواءهم. ولو تحلت الحكومة الروسية بنصف فعالية جيشها لانصرت روسيا في الحرب ولما قامت الثورة أصلاً. إذ حقق الجنرال (بروسيلوف) أهر النجاحات بين شهري حزيران وأيلول وبدا أن القيصر لتاج من المنية برغم فواجع سياساته الداخلية.

لكن السيل قد بلغ الزين في بيروجراد ولم يعد أحد يستطيع أن يوقف الانتصار. فقد عجت محطات القطار بفنيان المقاتلين الذين ينقصهم السلاح، وهم إذا ما وصلوا الجبهة حملوا معهم دون ريب روح الهزيمة وأبناء القوضى التي نعم النديار. فقد احتفى اللحم من بيروجراد وموسكو ومع هذا تم نقل الزلاجات المحملة بجثث الماشية المتعفنة على أعين الناس الى مصانع حساء اللحم وتصل فأسدة لمحطات القطار. ودارت شائعات عن قطارات ملء باللحم محجورة في سيبريا ستفسد حالما يتم تفريغها. بيد أن أحداً لا يعرف ما ينهي عليه فعلة خيال مشكلة النقل.

ان الوزير الجديد لتصب الداخلية ريبا كان أعزب من اختاره راسبوتين حتى الآن، وأعلن رودزيانكو أن الترقية المفاجئة مستصعب بروتويوف بمس من الجنون لوسمعهما وربا أصاب في ذلك. لقد كان بروتويوف صديقاً مقرباً لراسبوتين بل هو أقرب اليه من ستورمر أو هفوستوف في أيامها الخوالي. وهو قد خلق فضيحة حين التقى في صيف عام ١٩١٦ في ستوكهولم مولاً المانياً شديد

الصلة بالحكومة الالمانية. ولما نشرت وسائل الاعلام نبأ هذا اللقاء أعلن بروتويوف أنه ما أخبر الممول شيئاً سوى أن روسيا ستقاتل حتى الموت. لكن الأرجح من الاحتمالات أنه كان مبعوثاً من راسبوتين للتفاوض في امكانية توقيع اتفاقية سلام روسية- المانية بعد جهود بذلها راسبوتين لنصح التزار بضرورة ايقاف لمب الحرب وإن كان ثمة النكاية بانجلترا وفرنسا. أما وقد بات وزيراً للداخلية، انقلب حال بروتويوف رأساً على عقب، وبدا كأن نشوة صوفية سكتته وصرح تكراراً أنه اختير ليتخذ روسيا. من جهة أخرى كان هذا سائماً سداجة الأطفال. فعندما أخبره أحدهم أن عليه الاستقالة، قال: «أنت لي أن أستقبل؟ وقد حملت طوال حياتي أن أكون نائب محافظ وها اتذا وزيراً مرة واحدة!». بيد أن أفكاره لانقاذ روسيا انما هي محض خيال فهو أعجز من أن يعالج الأزمات الداخلية الخطيرة. ولعل أفضل بنات افكاره كانت تعيين رودزيانكو رئيساً للوزراء والذي كان يتسنى له ذلك لو قبل التعاون مع راسبوتين والتزارينا. لقد أخبره رودزيانكو ان شرطه الوحيد في تولي منصب رئاسة الوزراء هو وجوب حجز التزارينا في قصر ليفاديا لما تبقى من الحرب. لم يصدق بروتويوف ما سمع وذهب مسرعاً صوب راسبوتين خشية ان تحمل الواقعة على رودزيانكو بعد ادعائه الأفضلية على راسبوتين والتزارينا.

لم تتل التزارينا كل ما ترمو اليه. ففي شباط من عام ١٩١٦، زار القيصر الدوما دون سابق انذار والتقى فيها خطية رحب فيها بالتعاون بين الحكومة والدوما وقد لقت خطبته ارتياحاً واثراً طيباً لدى اعضائها. (من الامية القول أن كلا من راسبوتين وروديانكو قد نصحاه القيام بهذه الخطوة. فكلاهما قاسم الشان أغلب طموحاته ومن دواعي الأسى ان رودزيانكو لم يدرك ذلك). فيها



احسب التزارينا أن في الزيارة استسلاماً للأعداء فهارست ما ملكت من نفوذ  
وتأثير على زوجها كي يخلد الدوما ويخرج رودزيانكو قدر ما استطاع. ونجحت  
في مسعاها لضعف زوجها أمامها وتم اختيار ولاء رودزيانكو للعرش على نحو  
قائم.

اثبت وزير العدل الجديد (ماكناروف) أنه أصعب من سهولة تطويعه،  
شأنه شأن العم هفوستوف، إذ رفض خلق ملف قضية (سوخومالينوف) فجاءه  
دور التآمر عليه وأبعد عن منصبه ببديل جاء به راسبوتين والذي لم يهدر وقتاً في  
خلق قضية حليفي راسبوتين سوخومالينوف وماليلوف. لكن راسبوتين كان قد  
مات في حينها.

تم في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ووسط دهشة الجميع وغبطة  
روسيا إبعاد ستورمر عن منصبه. ويبدو أن سبب هذا القرار هو زيارة غير  
متوقعة قام بها وزير الخرب والشؤون البحرية للدوما أعلن فيها رغبتها في  
التعاون مع الدوما وهي إشارة ارتداد من جانب مجلس الوزراء. وهنا استشاطت  
التزارينا غضباً لمعجز ستورمر السيطرة على وزرائه وأمرت التزار بطرده. وقد  
تولى المنصب بديلاً عنه (تريسوف) الذي هو أحد أعداء راسبوتين. آنذاك ظهر  
عمل مسرح الأحداث أحد المنع وأحب أعضاء الدوما يدعى (ف. ام  
بوريكيفش)، وهو نصير متحمس للملكية وأحد الذين مقنوا راسبوتين. لقد  
عرفوه وقبحاً ومنى ما اعتلى المنبر في الدوما متحدثاً ارتسمت على شفاه الأعضاء  
ضحكة والف كثيرا من الأسماع هجا فيها راسبوتين والتي رددتها عموم  
بيتروجراد. وهو الذي صاغ عبارة «الوثيات الوزارية» واصفاً سمة تغير الوزراء  
بين الفينة والأخرى.

وفي مطلع شهر كانون الأول القى بوريشكيفش خطبة أمام الدوما. كانت  
هي الأجرأ والأكثر صراحة ما سمع لها الأعضاء مثيلاً من قبل صب فيها جام  
غضبه على راسبوتين وهاجم فيها بروتويروف والندرونكوف. كان للخطبة  
ومعها صدق ايمان ملقبها عميق الأثر في نفوس مستمعها لدرجة أنها حدثت  
بأحد أعضاء الدوما الخصور أن يتخذ قراراً مفاجئاً هو أن الخطيب عينه الأمير  
يوسيف الذي طالما راودته فكرة اغتيال راسبوتين والذي أدرك اليوم أن الساعة  
قد حانت لذلك.

والآن قد بلغنا أحرب ما انطوت عليه القصة. لقد أدرك راسبوتين منذ  
سنوات عديدة خلعت أن أحداً سيفتاله أغلب الأمر وما اهتز له جفن لذلك.  
لكنه أضحي. بعد خطبة بوريشكيفش، كتيباً صامتاً وأحسن أن النهاية قد دلت  
حشية وساع الموت قد أزقت.

وفي يوم ما تمشي بمحاذاة نهر (النيفا) وعند عودته قال لي أراه وليء بدماء  
الدوقين وهي نبوءة لما سيحدث بعد عام. ثم كتب لعائلته قال فيها أنه يرى  
الموت قد اقترب أعقبها بوثيقة هي الأغرب ونبوءة تفوق حدود العقل منحها  
عنواناً: «روح كريكوري ايفسوفيش راسبوتين» - نوضح من قرية بوكروفسكو  
وفيها يلي نصها:-

أكتب رسالتي هذه لأتركها برهاناً لي في مدينة القيس بطرسبورغ والتي  
لأشعر أي مفارق هذه الحياة قبل اليوم الأول من شهر كانون الثاني. والتمنى ان  
يذكر كل الشعب الروسي واليابا و «الام» الروسية وجميع الأطفال الروس  
والتراب الروسي العطر ما يجب ان يدركوه: «إذا ما قتلتي اخوتي فلاحو روسيا

فلا عرف عليك ايها التزار وسيفي عرشك حاكماً ويا ايها القيصر لا تخشى على اطفالك شيئاً فان لهم حكم روسيا لثلاث روسيا. ولكن إذا ما اغتالني البوياريون والنبلاء واذا ما اهدروا دمي لسوف تظل ايديهم ملطخة بدمي ولن تغسلها هم السنوات الخمس وعشرين القادمة وسوف يهجرون روسيا، تاركين الأخ يقتل احبه ولن يكون للنبلاء مكاناً في البلاد لخمس وعشرين سنة. يا قيصر الأرض الروسية : اذا ما سمعت ناري يبتك مقتلي فعليك أن تعرف التالي : ان كان قاتلي من اهليك فلن يبق منك ولك أحد حياً لأكثر من ستين بعد موتي وقتلهم شعبك الروسي. انني أرحل وفي داخلي أمر الهي أن أخبر التزار الروسي بالذي عليه فعله بعد رحيلي. توخى الحكمة ما انت فاعل وترقب صداها في نفوس رعاياك. عليك بسلامتك، وأخبر من لك من الأحرىاء اني أشاطرهم بقاءهم بدمي. انني مصادر الدنيا ولم أجد من أحيائها فصلي لأجلي، صلي وكن قويا واعتن بعائلتك المباركة. كريكوري.

اخذ سياتوفيش الرسالة، على حد قوله، للتزاريينا طالبا منها ألا تعرضها على نيقولا. وقد اعيدت اليه، حسب ادعائه، بعد وفاتها مع ملاحظات اخرى خاصة به.

ويضيف بيرس، الذي قرأ نسخة طبق الأصل من الرسالة، أن سياتوفيش<sup>(١١)</sup> ملك بحوزته ايضاً كتاب صلاة التزاريينا مع رمزها المفضل وهو السوامستيكا، وهو اختيار يستحق التهكم والاستهزاء في ضوء دلالاته الأخيرة لسنازية الألمانية والذي كان بحوزتها حين مقتلها. وبذلك يكون الدليل على

صحة الرسالة راسخاً قبله حتى الشكوكي بيرس.

وكما هو شأن كثير من أحداث حكم نيقولا، يزرع مقتل راسبوتين شعوراً أنه محفور في لوح القدر منذ دهر طويل. فهو لم يكن يأتي شكل حسن التخطيط وكانت ستفشل المحاولة لو صادفها أصغر عارض. تقرب يوسيف من بوريشكفيش وعرض الخطة عليه فوافقه اياها في لحظتها وقرر الاستفادة من عون اثنين من اصدقائه وهما الغرانديوك (ديمتري بافلوفيش)، الذي كان يناهض التزار «ياهم»، وضابط شاب يدعى (سوخوتين). وقد اضاف لهما بوريشكفيش طيبيا اسمه (لازافيرت).

ويروى قسم المتآمريين الا يبوخوا بسرهم لغيرهم، أذاع الشئرا بوريشكفيش الخطة على الملا. فليبه ماكلاكوف في صالة الدوما بين حشد من الناس وأخبره القصة كما أخبر صحفية تدعى (بيكر) مزودا اياها بكل التفاصيل وذاكراً اسما المتآمريين. وعندما نجح يوسيف اخيراً في دعوة راسبوتين لمنزله ليلة التاسع والعشرين من كانون الأول، توجه سياتوفيش وبروتوبويوف وأنا فيرويوف الا يذهب فيتمعرض لخطر ما وانتزع منه بروتوبويوف وعداً بعدم الذهاب والذي نقضه راسبوتين بعدئذ ما دام قد وعد يوسيف بالحضور اليه. وخلال يومين قبيل مقتله، بلغت نيوة راسبوتين يدنو حثفه ذروتها فاكتشفه لذلك خوفاً عميقاً. ولأنه قد تنبأ بيوم موته قبل الأول من شهر كانون الثاني (اي بعد مقتله بأسبوعين والذي يوافق الثالث عشر من شهر كانون الثاني حسب التقويم الجديد<sup>(١٢)</sup>)، فستجلى لا معقولة مجازفة الذهاب وحيداً لمنزل يوسيف في

(١١) السوامستيكا مذكور في الشمس او الحظ السعيد

(١٢) التقويم الجديد: حساب السنين والتواريخ على حساب التقويم الغربي.

متصف الليل. وقد نجد تعليلاً لذلك في تفسير بيرس الغائل أن راسبوتين شعر  
بمزيج من العطف والازدراء للشاب الوسيم اللعوب يوسيف والذي سماه  
«الصغير» وعليه لم يتخيله البتة مصدراً للخوف والخطر. من جهة أخرى كان  
يوسيف الصديق المقرب لاختصاص تلميذات راسبوتين الا وهي (مونيّا كولوفن)  
التي أرادت من تقارب يوسيف وراسبوتين خلق نوع من الإعجاب بينهما.

وفوق هذا تطلع راسبوتين للتعرف على زوجة يوسيف القاتنة  
الغراندوقة (ايرينا اليكسندروف) وربما وجد فيها فرصة محتملة. وبذلك وجد  
فيها يوسيف الطعم المثالي لاجواء راسبوتين قدوم منزله وكان له الحجة ايضاً في  
مجيء راسبوتين ليلاً وسراً لقصره فولده الذي كان أحد أعضاء السلطة المدنية  
المسؤولة عن مومكو قد مقت راسبوتين أشد المقت.

كانت آخر مرة رأى فيها راسبوتين القصر حين طلب منه الأخير ان  
يسارحه فرد عليه راسبوتين قائلاً: «حان الوقت الآن لتباركني انت». وفي امسية  
يوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني طلبت التزارينا من آنا فيروفوف أن  
توصل لها رسالتها لراسبوتين في محل اقامته. وقد أخبرها راسبوتين أنه وافق على  
لقاء يوسيف فابدت آنا مخاوفها من هذا الموعد الغريب فطمأنها راسبوتين بقوله  
ان دافعه وراء الإبقاء على الزيارة سراً هو عشيقته من والديه. لكنها لم تتمالك  
نفسها خشية عليه وترددت قبل مغادرتها اياه سبياً وقد خاطبها بصوت لم تألفه  
قبل هذه الساعة: «أنتيغين مني المزيدي؟ لقد أعطيتك كل ما تبغين».

قصت آنا بعودتها للقصر الذي حدث بينها وبين راسبوتين للتزارينا التي  
قالت: «لا بد من وجود خطأ ما... فأيرينا (زوجة يوسيف) في الكريما»

الآن. ومع ذلك لم تخبر راسبوتين هاتفيّاً بمخاوفها وظلت تصارع خوفها ومرددة  
عبارة: «لا بد من وجود خطأ ما...».

يقول يوسيف أنه جهّز الغرفة التحتية بقناني خر وكعكة شيكولاته لهوي  
سيانيد البوتاسيوم كما وضع مسحوقاً من السيانيد في بعض اقداح الخمر.

بحلول منتصف الليل ذهب يوسيف برتحف خوفاً وهلعاً الى منزل  
راسبوتين الذي كان وحيداً بانتظاره وأخبره أن برتوبوبوف قد اتصل به في ذلك  
المساء وترجاء أن يتخلّى عن فكرة الذهاب لثلا يشتال وهي ابياء صريحة أن  
يوسيف ليس بموضع ثقة.

عندما وصل راسبوتين قصر يوسيف سمع صوت الكراموفون يعني  
«ميانكي دوول» فأخبره يوسيف ان لدى زوجته زواراً ومستظم اليها فور  
مخادرتهم. ومضى الإثنين لغرفة الجلوس التحتية وقد ابهرت راسبوتين الحرارة  
المزخرفة فيها وربما ساوره الشك حينها فهو قد رفض شرب الشاي او الخمر  
بادي الأمر برغم تناوله بعض البسكويت. ويقول يوسيف أن راسبوتين قد  
أكل آخر الأمر بعض الكعك المسموم. وهنا يشوب الشك هذا القول. اذ تقول  
(ماريا راسبوتين) ان ابيها لم يأكل الكعك في حياته تحت اي ظرف من الظروف  
يضاف لذلك أن أي أثر للسم لم يوجد في الجثة. وربما اصابت ماريا الحقيقة في  
قولها. أي أن يوسيف قد زوّق جريمته الشائنة: جريمة قتل فيها رجل أعزل  
السلاح على يد أربعة من القتلّة سكنهم الرعب منه. ويزعم يوسيف أن

(١) وفقاً لولائق لاينبيج.

راسبوتين لم يتناول الكعك المسموم فحسب بل شرب كأسين من الخمر المسموم، ثم انتظر يوسبوف ولم يحدث شيء، وهذا يحد ذاته قول ينطوي على كثير من الشكوك قدر تعلق الأمر بمفعول السيانيد السريع. فتناول بضع ميليفرامات منه سيحلب الموت على صاحبه في بضع ثوانٍ نتيجة لشل الجهاز التنفسي. واستناداً لوصف يوسبوف فإن راسبوتين قد ابتلع اونصة كاملة تقريباً. لم يشعر راسبوتين بشيء وطلب من يوسبوف ان يغني ويعرف على كيتاره ولا بد ان الموقف قد تطلب رباطة جأش يوسبوف حتى يحسن علاجه. وفجأة رفق راسبوتين بنظرة تعابير بغضاً، لكن الأصوات العالية الآتية من الطابق العلوي هدأت الموقف وتمتم يوسبوف وقال انه ذاهب ليري ان كانت زوجته قد استعدت للقاء راسبوتين. فذهب الى الطابق العلوي حيث ينتظر باقي المتآمرين على احر من الجمر وأخبرهم ان السم لم يعط مفعولاً. فتشاوروا على قتله حقناً بيد ان يوسبوف رفض الفكرة خشية ان يحدث صدام بين راسبوتين وبوريشكفيش. وأخذ من الغراندوق مسدسه ونزل الى الأسفل فوجد راسبوتين جالساً ورأسه مغطى على صدره، وقال ليوسبوف انه يشعر بغير ما يرام وان بلعومه يشتعل ناراً ثم اقترح ليوسبوف الذي اندعش لإقتراحه، وجوب الذهاب لمشاهدة العنجر. وبعد هنيهة قال: «فلنذهب ونحن نحمل الله في نفوسنا والإنسان في اجسادنا».

(١) أخبرني السيد إنجل مورلاند، الكاتب المشهور في عالم الجريمة، أن راسبوتين كان يعاني من التهاب حاد في المعدة جراء تناوله الكحول بما يزيد من سمك غشاء المعدة، لذلك يشترق السيانيد وقتاً طويلاً حتى يظهر مفعوله. وقد علم السيد مورلاند، الذي كان في روسيا ايام الثورة، هذه الحقيقة من صديق مقرب لراسبوتين كان قد ساعده الأخير في المغرب من اوديسا. وكان راسبوتين يردد كثيراً أمام أصدقائه بأن نصلب غشاء معدته يؤهله لشرب كميات كبيرة من الكحول دون أن يبدو عليه أي سكر. وقد استخدم السيد مورلاند هذه الفكرة في رواية شائعة اسمها (السيانيد المنشط). المؤلف

صارع يوسبوف لجذب انتباهه لصليب من الكريستال وقال له: «مركوبوري ايتسوفيش... من الأفضل ان تؤدي صلاتك امام هذا الصليب». ورفقه ثانية بنظرة يكتنفها الخوف والشك الشديدين استدار بعدها نحو الصليب واطلق يوسبوف رصاصتين استقرتا في ظهره وتداعى على السجادة. انطلق المتآمرون صوب الغرفة واطفاً احدهم النور ففرقت الغرفة في بحر من الظلام. وعندما اضاءوا الغرفة مرة اخرى رأوا راسبوتين ساقطاً على الأرض وعينيه مغلفتين. فحسوا الجثة واعلن الطبيب لازافيرت عن موت الضحية. بيد ان اعصاب الطبيب كانت شبه منهارة وأصابته نوبة هستيريا وهو ينتظر يوسبوف يفيق من غيبوبته وخرج من المنزل وسقط مغشياً عليه فوق الجليد. ثم نزع اثنان من الشركاء معطف راسبوتين وارثاه (سوخوتين) حتى يضل من يرقب القصر ان راسبوتين عادره في الثالثة صباحاً تقريباً. وتارة اخرى صعده يوسبوف وبوريشكفيش للطابق العلوي وقرر يوسبوف أن يلقي نظرة اخرى على الجثة لظنه أن لدى راسبوتين قوى شيطانية تؤهله للنهوض من الموت، (وقد اعترف يوسبوف لماكلاكوف بعد الحادثة أنه اراد لراسبوتين ان يتطلع الى الصليب قبل هلاكه كي يقلل منه قواه الشيطانية). هز يوسبوف الجثة فظلت هامدة. ثم تحركت اجفان راسبوتين واهتزت اجفان يوسبوف رعباً فقد انتصبت «الجثة» ومزقت كتيفغية من كتفه. هرع يوسبوف مدحوراً للطابق العلوي وراسبوتين يطارده زاحفاً على اربع فوجد نفسه امام باب مغلق يؤدي الى فناء الدار وبقوة هائلة نجح في فتحه والخروج منه. انطلق بوريشكفيش وراءه واطلق عليه نيران مسدسه. وأخطأته اولى الرصاصتين وأصابته التاليتان فتهاوى أرضاً. ثم ركل بوريشكفيش، ذلك الرجل الأصلع القصير ذو الأنف الشعجرف، رأس راسبوتين بقدمه وخرج من المنزل صائحاً: «قتلت راسبوتين... عدو روسيا

والقيصر ثم ساعده اثنان من الجنود على سحب الجثة داخل المنزل. انقض  
يوسيف بعدها على الجسد الهامد بمقبض حديدي يعود للاكوف ومرقها ارباً  
اربا. تعكس هذه الجريمة هشاشة معنى النزاهة لدى يوسيف ويوريشكفيش  
وما تقطع الجسد الا دلالة أنهم انما قتلوه لعنادتهم له لا تخسباً لعمل بطولي  
وطني كما وصفوه لاحقاً.

قيدت جثة راسبوتين ووضعت في سيارة الغرانديوك وأخذت الى ساحل  
نهر اسمه «النيفكا الصغير» وربت الى حفرة في الجليد ورموا معها معطفه  
القرائي وجزميشيه اللتين بقينا على سطح الجليد ووجدنا لاحقاً ابن سينوفيش  
الذي نصح الشرطة بالبحث عن جثة راسبوتين هناك.

لما يزول راسبوتين حياً عندما دفعوا به الى النهر، ووبيا ساور الشك  
المتآمرين اذ اوتفوه جيداً قبل وضعه في السيارة. وقد ايقظ الماء البارد راسبوتين  
فما تفض وتنجح في تحرير احدى يديه، بيد ان الثلج كان يغطيه فلم يستطع الا  
رسم اشارة الصليب قبل ان يغرق وحين وجدت جثته كانت يده اليمنى ما تزال  
على صدره وقد رفعوا عنها ثلاثة اصابع.

ظن المتآمرون أنهم يقتلهم راسبوتين سيغفروا بحري القدر الروسي. وقد  
اشطأوا في ظنهم وما لعبوا بذلك الا اصغر دور في سفر التاريخ الروسي.  
فراسبوتين لم يكن بصاحب ذلك النفوذ الذي خاله فيه اعداؤه وما زمام السلطة  
والنفوذ الحقيقيين الا بيد التزارينا. ويعد موت راسبوتين ظل الحال يراوح في  
مكانه ولم يتغير منه شيء سوى ان التزار والتزارينا اصبحا اعمق ايماناً من ذي  
قبل انهما لغارقان في وحل كارثة لا ملاذ لها عنها.

شاع نأ مقتل راسبوتين في صبيحة اليوم التالي. وقد اتصلت ليلتها ماريا  
راسبوتين بالتزارينا لتسألها عن مكان تواجد ابنيها. وانكر يوسيف وجود  
راسبوتين في منزله تلك الليلة لكن التحريات أكدت وجود بقع دم على ارضية  
السيارة وفي القبو وفي فناء الدار. فأمرت التزارينا يوسيف والغرانديوك بالنزاع  
منزليهما. ثم ارسل يوسيف لاحقاً الى مقاطعته الريفية وارسل الغرانديوك الى  
الجهة على الحدود الإيرانية - مما انقذ حياته اذ انه كان خارج حدود روسيا ابان  
قيام الثورة. وسمح ليوريشكفيش بالذهاب للجهة.

تم العثور على جثة راسبوتين بعد يومين من اغتياله واستدعت ماريا  
راسبوتين واختها للتعرف على جثة ابنيها. وجاء في تقرير الطبيب الشرعي:  
«كان الشعر الأجمع مغطى بكتل من الدم، والوجه متورماً والعينان طاففتان.  
وعند نزاع المعطف بدت ملامحه كجلد خشن ملتصق في بعض المناطق ومنزوع  
في مناطق اخرى. لكن اغرب شيء على الجثة هو ان اليد اليمنى كانت ترسم  
إشارة الصليب...» ولم تشر الفحوصات الى وجود اثر للسم في جسده. وفي  
يوم صيالي لف العاصمة، وتحديدأ في الثالث من شهر كانون الثاني تم دفن جثة  
راسبوتين في الساحة الإمبراطورية وحضر مراسم الدفن العائلة الملكية. وقد  
سأل التزاريفيتش الصغير الذي عرف عنه مقته لراسبوتين غاضباً ان كان القتلة  
مطلقاً.

لم يتبدل شيء، وبات القيصر أشد لامبالاة ولم يعد يكثر للذهاب  
للجهة برغم خفة حدة القتال في الجهة ايام الشتاء. وكان الوقت لما يزول سانحاً  
لاقتضاد الموقف الروسي لو اغتم القيصر الفرصة ونجح في عقد معاهدة سلام مع  
المنيا، لكنه آثر البقاء في قصره ينتظر القادم اليه. واما التزارينا فقد انطوت على

عند اندلاع الثورة أمراً مقضياً وباتت كأنها رياح تلج عاصفة. فقبل هذا اليوم وتحديداً في شهر تشرين الأول فتحت الشرطة تيران اسلحتها على متظاهرين قتلت أغلبهم. وبحلول كانون الثاني غدت التظاهرات ومسيرات الاحتجاج أمراً معتاداً وبذل بروتوبويوف جهده الجهد في قمعها واعتقال اتصارها «واستورد» روحانياً اجنبياً بعد أن لم يعتمد على نضال روح راسبوتين. وعانى الشعب الروسي من نقص الغذاء والوقود ومنحت طوابير الناس المنتظرين لقمة خبز المحرزين السياسيين ما يريدون من أعوان. وبيتروجراد قد اكتظت بالفرق الناقمة المنتظرة دورها صوب جيبهات القتال بيد انها كانت على اتم الاستعداد لمعاونة العمال إذا ما أمروا بقمع الثورة. وفي شباط من عام 1917 جاهد رودزيانكو في آخر مسمى له لاقتناع التزار بضرورة التحرك من اجل الشعب والملكية لكن القيصر بدأ متعباً ولا مبالياً بل قد أدار أذناً صماء لقول رودزيانكو أن فترة حكمه كانت برمتها سلوكية خاطئة طال أمدها. وهنا استذكر رودزيانكو، وهو يسرد تفاصيل اللقاء، مقابلة اخرى له مع التزار سلمه فيها تقارير مهمة فنظر نيقلوا الى القضاة الذي امامه وقال: «كنت اليوم في الغيابات... يا لسكونها... ان المرء ليس فيها نشأة المؤامرات وتفاعة الانسان الثقيلة. لقد استشعرتُ روعي السلام... فالمرء هناك اقرب للطبيعة... اقرب الى الرب». وهذا القول يدل أن نيقلوا كان راجباً عن أن يكون حاكماً سيبا في عصر مضطرب كعصره. وكان سيكون اسعد لو كان رجلاً ريفياً يزرع أرضه ومتابلاً سلاحه.

كتب نيقلوا في الصفحات الأولى من يومياته، والبلاد تسهاوى أمام

ففسها واشتد انشغالها بعائلتها. لقد خلق موت راسبوتين موجة احتياج واسعة النطاق بيد أنه عمق شعور الفلاحين بالامتعاض وقال احدهم لماكلاكوف: «اجل... لم ينجح إلا موجيكاً واحداً في بلوغ بلاط التزار... وقد قتله الأسياد...».

لاح التفكك واضحاً لكل امريء في روسيا... حتى لم يعد أحد يقبل منصباً عالياً في الدولة. اذ استقال رئيس الوزراء (ترييوف) من منصبه وعين بدلاً عنه العجوز الهرم الأمير (كوليسين) برغم انفه. وطرد وزير العدل من منصبه ليعين بدله مرشح راسبوتين (بويروفولسكي) الذي لم يخالف للتزارينا أمراً. وأبعد ايضا وزير الحرب ومُسمح لوزير التربية والتعليم بالاستقالة. وأضى بروتوبويوف جل وقته في التزارينكو سيلو اذ قيل انه كان مصعباً (عل) السير على نهج راسبوتين) وخلافته في الخطوة لدى التزار والتزارينا وأشاع رودزيانكو قولاً ان بروتوبويوف كان يعقد جلسات تحضير ارواح ويتلقى التعليقات من روح راسبوتين.

في الأشهر الأولى من عام 1917، استمع رودزيانكو لحطتين انقلابيتين كانت اولها عندما عقد الجنرال (كريموف) اجتماعاً غير رسمي للدوما في منزل رودزيانكو واخبر الأعضاء أن الجيش يرى نفسه مهزوما طالما بقيت التزارينا تمسك بزمام السلطة في روسيا وأضاف: «باتت الحاجة للإنتقال ملححة جداً»، فاجابه رودزيانكو انه لن يشجع قيام ثورة اطلاقاً. وبعد فترة ليست بالطويلة تلقى دعوة من الغرانديقة (ساري بافلوفا) - ارملة الغرانديوق (فلاديمير) الذي كان مسؤولاً عن اطلاق الرصاص في «يوم الأحد الدامي» - وأخبرته علانية أن التزارينا (قد حان يوم حسابها) وهنا عبر رودزيانكو عن مخاوفه من فكرتها



ناظرية: «سألعب الدومينا في اوقات فراغي».

اندلعت الثورة في العاصمة بيتروجراد في يوم الثلاثاء الموافق الثامن من اذار. فقد سادت القوضى بسبب نقص الخبز وعلم لاحقاً أن الخبز كان يكفي بيتروجراد لعدة ايام لكن العيب كان في سوء التوزيع. وبعد مضي يومين على ذلك فتحت الشرطة النار على تجمعات كانت تصرخ: «فلتسقط المرأة الألمانية» اي التزارينا. وتزايد عدد القتل في اليوم التالي. ثم تمردت كتيبة (فولونسكي) وقتلت احد ضباطها. وتتابع تمرد كتائب اخرى واقامت المتاريس في الطرقات. وفي الرابع عشر من الشهر ذاته قررت الدوما استغلال هذه الثغرة السياسية لتفر تكوين حكومة مؤقتة. وقد كانت الثورة مشوشة وتفتقر للتنظيم. وكان فيها دور البلاشفة ضئيلا جدا.

نصح القيصر بعد عودته مسرعاً الى التزاريسكوسيلو بالتخلي عن العرش. وحين لحق بزوجه اجهش بالبكاء امامها فقد احس للمرة الأولى في حياته أنه وحيد تماماً. ولما حاول بعد ذلك مغادرة القصر دفع به ستة جنود بمؤخرة اسلحتهم قائلين له: «ليس بمقدورك الذهاب من هذا الطريق ايها السيد الكولونيل»، وقد شاهدت التزارينا ذلك الموقف من النافذة... ولعل تلك اللحظة كانت اسوأ ما شهدته في حياتها.

ابتهج الألمان كثيراً لأشياء الثورة فهي تعني اجبار روسيا على عقد معاهدة سلام وفق شروطهم وهذا ما حدث فعلاً في العام التالي. وتم ارسال (لينين) من سويسرا الى روسيا بمساعدة كادر الماني وعابراً الأراضي الألمانية بقطار محكم الإغلاق حتى وصل المحطة الفنلندية في بيتروجراد في السادس عشر من نيسان

واستقبلته جموع حاشدة فقد امضى عشر سنوات في المنفى. والقى احد اعضائه «الطلبة السوفيت» كلمة رحب فيها بعودته ورد عليه لينين مرحباً «بالثورة المنتصرة».

بيد ان نصر لينين لا يزال بعيداً. فكيرينسكي كان مسؤولاً عن الحكومة المؤقتة وتعرضت «الجبهة الثورية» للإنتساق نتيجة الخلافات الدائرة بين منسوقها. لقد اراد لينين ان يطمئن أن لا عودة للنظام القديم البائد او أي نظام قريب له متذكراً درس فرنسا بعد الثورة الفرنسية 1798. لكن البلاشفة أنفسهم لم يتأكدوا بعد أن روسيا ستغدو (ماركسية) بين عشية وضحاها. وانتهى الأمر أن اصدر كيرينسكي أمراً بالفيض على لينين الذي اجبر على السفر جوا الى فنلندا ثم عاد متكرراً في تشرين الأول. وفي الساعات الأولى من يوم السابع من تشرين الثاني ضرب البلاشفة ضربتهم واحتلوا المراكز المهمة في بيتروجراد ووقع الشيء ذاته في المدن الأخرى. ان الحرب الأهلية آتية بيد أن الثورة قد انتهت من ناحية أهدافها العملية.

في هذه الأثناء، ظلت العائلة الملكية حبيسة قصر تزاريسكو سيلو. وعرضت عليها الحكومة البريطانية اللجوء السياسي وشرع كيرينسكي في تدبير خطوات رحيلها من روسيا ثم تمرد (ليود جورج) في بريطانيا على العرض فحسبه الحكومة البريطانية.

لم يكن نعمة مبرر لخوف كبير لدى العائلة الملكية خلال الأشهر الأولى من الثورة. فقد سمحوا لها بمراسلة أصدقائها ومعارفها دون قيد، ودارت احاديث عن احتمالية ارسالها لليابان عبر سيبيريا فيما تعاطف معها كثيراً الضابط المسؤول



امر كبيرينسكي في الثالث عشر من آب نقل التزار وعائلته لتوبولسك فاستقلوا قطاراً وعبروا تيومين ثم بقارب بخاري عبروا النهر مرووا بقرية راسيوتين (بوكروفسكو). وقيل ان يطنوا ارض توبولسك، كسبت التزارينا لصديقتها أنا فيروبوف، التي كانت سجنية في قلعة بيتر وبول، رسالة قالت فيها: «ان روح صديقتنا المجيدة تناديننا...» فلما وأوا منزل راسيوتين شحخت في الجو بنائية أعلى من مثيلها طلعت على ساحل النهر.

ومن سخرية القدر ان يكون اسقف توبولسك الكاهن هيروموجن الذي نفاه القيصر. وعندما حلت ذكرى تنويج نيقولا في الثالث من تشرين الثاني امر هيروموجن بقرع الأجراس في توبولسك.

كان زوج ماريا راسيوتين شاباً غريب الأطوار وثبوصياً يدعى (بويس سلولوفيف). قرر هذا الرجل وزوجته المجازفة في انقاذ حياة التزار فذهبا متخفين لتوبولسك ووافق الأسقف هيروموجن على تقديم يد العون لهما. وتلخصت فكرتهم بايصال التزار وعائلته الى اقرب نقطة تمكنهم من الإنقاذ بالجيش الروسي الأبيض وهم الموالون الذين رفضوا القبول بالثورة. لكن التزار نفسه رفض الخطة وبدأ انه قد احتفظ حتى آخر ساعته بزعته العمل ضد ذاته. بل انه طلب ايضاً تعهداً بعدم اجباره على ترك الأراضي الروسية فهو لا يزال متأملاً في العودة لعرشه. وهو بذلك لم يكن مدركاً للخطر المحدق بحياته. ويوم موعد تنفيذ مؤامرة الهروب أخبر هيروموجن جمعه ان أحدهم غدرهم فغادرت ماريا راسيوتين توبولسك الى بوكروفسكو فيما بقي القبض على زوجها ثم

افرجوا عنه. غادرت ماريا وزوجها ارض روسيا الى برلين حيث ساعدهما سياتوفيش -الذي سبقها بالفرار الى برلين وانتهى الأمر بماريا راسيوتين واقصة في باريس بعد وفاة زوجها الذي تركها لتعيل طفلين.

تم نقل التزار في اواخر شهر نيسان الى (ايكاتيرينبيرج) في جبال الأورال وقد قال عنها بيرس: «هي ريبا اشد المناطق بلشفية في كل ارجاء روسيا» وفي الطريق تم استبدال حويله -لثابعة الطريق- تحت نافذة منزل راسيوتين في بوكروفسكو ولحقت التزارينا وبقيبة افراد العائلة الملكية رب العائلة في أبار، وكان مرض التزارفيتش سبب تأخرها في توبولسك.

وفي السادس عشر من تموز ابلقت العائلة بامر نقلهم الى مكان اخر في تلك الليلة نظراً لوجود قطعات تشيكوسلوفاكية عسكرية في الجوار (وقد احتلت تلك القطعات ايكاتيرينبيرج في الخامس والعشرين من ذلك الشهر). وفي تلك الليلة طلب اليهم التزول الى القيصو. ويبدو أن شكاً لم يراود التزار البتة برغم امارات الكره التي ابداهها حيال سجنائهم الجديد ويدعى (بوروفسكي) وهو يهودي من سيبيريا. وقد كتب القيصر في مذكراته: «هذا الشخص أقل من أحببنا في العالم». وساعتها كان التزارفيتش جد مريض عجز حتى عن المشي فحمله اياه الذي اعطى كرسياً للجلوس عليه. ثم تقدم السجان يوروفسكي صوب القيصر وقال: «يقولوا اليكساندروفيتش: لقد حاول أتباعك تخريبك من قيدك وفشلوا. والآن حان لك أن تموت رمياً بالرصاص» صعد التزار وقال «ماذا تقول؟» فاجابه يوروفسكي: «هذا» وأفرغ في صدر آخر القياصرة الرومانوفيين رصاص مسدسه وتهاوى أرضاً. ثم رصعت التزارينا الصليب على صدرها وهي شديدة اليقين بقرب حتفها وهذا ما حدث بعد ثوان من مقتل

زوجها حيث فتح الآخرون النار عليها ثم على بناتها اللاتي وقمن على الأرض فقد تثقب الجدار من الأسفل. وقتل طبيب القصر وطاعيه وحاولت الخادمة أن تسمي نفسها من الحراب بالوسائد وظلت تصارع حتى لفظت آخر أنفاسها. ويبدو أن اناستازيا قد هوجمت بقنقذ بندقية ثم قتلت بطعنة حرة. بيد أن امرأة أطلقت على نفسها لاحقاً اسم (اناستازيا) قالت انها سقطت مغشياً عليها وتظاهرت بالموت. وبينما كانت هذه الأحوال دائرة، كانت شاحنة تنتظر في الخارج لنقل الجثث وانتهى الأمر كله بقتل كلب الاطفال، أن حطموا رأسه برصاص بندقية.

ويذكر (فرانز سفوبودا)، وهو اسير حرب سابق نعمساوي الجنسية، سرد له في عام ١٩٣٨ أنه وظيفه له ساعدا في حمل الجثث للشاحنة وقد اهترت احدي الجثث وكانت جثة اناستازيا، فغطياها بذياب ونجحا في حملها على عربة خارج السجن بدلا من الشاحنة المخصصة لحمل الجثث. حينها بدأت رحلتها الطويلة التي انتهت في برلين بعد سنتين في محاولة انتحار وقد تسبب الاعلان عن شخصيتها في عطف عالمي على قدر آخر الرومانوفيين.

لا نملك حيزاً هنا لسرد قصة أنا ستازيا، غير أن بيرس يقول صراحة أنها مجرد مدعية كاذبة ويبدو ان التاريخ قد حكم عليها بذات التهمة ايضاً. ومع هذا، نقف لصالحها براهين كثيرة جمع بعضها (رولاند كرج فون ندا) في سيرة حياتها اسماها «أنا». . . اناستازيا» ونموذج واحد من هذه المذكرات سيغي بالمطلوب. واعلن الكونت (كارل بوند)، الذي كان مرة رئيساً للبعثة السويدية للصليب الأحمر لسبيريا، في ملاحظات له نشرت عام ١٩٥٢:-

بصفتي رئيساً للبعثة السويدية للصليب الأحمر لسبيريا، استقبلت في رحلاتي عام ١٩١٨ قطاراً خاصاً. وفي مكان ما- لم تعد ذاكري اسمعني المذكور اسمه- توقفت القطار وبحثنا عن الغراندوق اناستازيا ابنة التزار نيقولا الثاني. لكن أحداً لم يعرف مكان وجودها.

ومؤكد أن البلاشفة قد باشروا في تموز عام ١٩١٨ بحملات تفتيش واسعة أشارت جميع الدلائل أنها كانت بحثاً عن اناستازيا. وقد ايد (كيليارد) معلم التزارفيتش، أن المرأة التي ادعت نفسها انا ستازيا هي نفسها اناستازيا، بعدها أنكر ذلك. ولم تتجح أنا ستازيا قط في اثبات هويتها او في الحصول على ملايين الروبلات التي اودعها التزار في امريكا تحسبا لاي طاريء. واذا ما كانت المرأة التي ادعت هوية اناستازيا صادقة، على الأرجح، في زعمها فان حكايتها المأساوية ستكون نتيجة ملائمة جدا لتاريخ عائلة التزار التي وصفها اكثر من مؤرخ بانها كانت موسومة بسوء الحظ.

ثم بعدها تدعير بقية الجثث بحامض الكبريت ورميت في حفرة عميقة. ان قدر التزار وعائلته لأهل مأساوية من بقية الرومانوفيين. فالغراندوق (اليزابيث)، شقيقة التزارينا، نقلت الى ألبينفسك على مقربة من ايكاتيربيرج مع الغراندوق (سيرجيوس ميخيلوفيتش) وثلاثة من ابناء الغراندوق (قسطنطين) والابن الأصغر للغراندوق (بول). وفي اليوم التالي لقتل نيقولا وعائلته تم رمي هؤلاء جميعا في حفرة مهجورة احياءا باستثناء الغراندوق سيرجيوس الذي حاول المقاومة. ثم القي الديناميت المتفجر وراءهم. وعندما اخرجت الجثث لاحقا كانت جميع الرؤوس مهشمة وأشار تقرير طبي أنهم لم يموتوا في الحال بل ماتوا موتاً بطيئاً.

بعدها اعدم الكثير من الفرانقة بحجة «الإنظام» لموت (اوبسكي) رئيس الشرطة السرية للبلاشفة ومحاولة اغتيال لينين على يد (دورا كابلان) وهو ثوري اشتراكي. كما اعدم العديد من الوزراء السابقين في نفس الوقت بعضهم ستورمر وماكلاكوف وبيلييتسكي وبروتويوف وهفوستوف (ابن الأخ)، وقبلهم مات كورميكين العجوز خنقاً على يد سواه الناس. وانتهى حال هفوستوف وبيلييتسكي - اللذان أصبحا لبعضها ألد عدوين- في تزانة مشتركة شاركهما فيها الثوري (بيرتسيف)، والذي ساعده على الهرب لاحقاً المبتز ماتيلوف -اليد اليمنى لراسبوتين لستين عديدة- ثم أعدمه البلاشفة مع الأمير أندرويكوف. وهذا وزير الحرب السابق بوليفانوف والجنرال بروسيلوف- الذي اوشك على الانتصار في الحرب عام ١٩١٦- بلشعنين. وهربت الكثير من الشخصيات الفيادية في هذه القصة للعيش في كنف الدول الأخرى ومنهم رودزيانكو الذي توفي مدقعا في سيبيريا عام ١٩٢٤ والإمبراطورة (دواجرا)، والدة الشزار، التي عاشت في بريطانيا لفترة ما، ومات يوريشكيش اثر اصابته بمرض التيفويد وهو يقاتل مع الجيش الأبيض في جنوب روسيا وتكتب هو الآخر، شأنه في ذلك شأن يوسيف، كتابا عن مقتل راسبوتين.

ربما كان يوسيف هو الناجي الوحيد في هذه المأساة وظل على قيد الحياة دهرأ. وقد ثبت حقه في لقب «قاتل راسبوتين» في محكمة امريكية عندما قاضى يوسيف فريق عمل في فيلم عن حياة راسبوتين، حيث صور الفيلم راسبوتين يقتصب زوجة امير فقتله الأمير انتقاما لشرفه ولم يكن هذا «الأمير» يوسيف اطلاقا، الا أن يوسيف زعم في المحاكمة أن العالم عرفه قاتل راسبوتين وأن الفيلم لم يكن الا تشهيراً به فكسب القضية وجنى مالا وفيراً.

لم يلبح البلاشفة جثة راسبوتين واقعة في الساحة الملكية فنيشوا الفير وأحرقوا الكفن في محرقة كبيرة وقيل لذلك أن الجسد قد عانى من شدة عناصر الطبيعة من الماء والتراب والنار والهواء.